غياب

obeikan.com

الكتاب: غياب
المؤلف: محمد عبد القوي مصيلحي

تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي
تدقيق لغوي: أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع: .... / 2015
الترقيم الدولي: ....

الطبعة الأولى: 2015

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

غياب

محمد عبد القوي مصيلحي

ن للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

كل محبّتي وامتناني، لأصدقائي الأعزاء، الذين تشرّفتُ بالعمل معهم، والذين يحرصون كل الحرص على أن تخرُج كتبي في أفضل شكل ممكن. حسام الدين حسين، هيثم حسن. وصديقي الأعز، ومدققي اللغوي شديد اليقظة والمهارة أحمد عبد المجيد. ولكل فريق عمل دار **ن** للنشر. وخالص تقديري لكل الصديقات والأصدقاء الذين أسهموا بقوة في تطوير هذا النص، وإيصاله إلى حالته النهائية، وعلى رأسهم: إيمان لطفي، شاهيناز أحمد (فراشة زرقاء)، أمنية الشيمي، الشيماء تاج الدين، إبراهيم صلاح، عصام منصور، ليلى الشويشان، شيماء زايد، هبة الله أحمد، رباب حمدي. ولكل السيدات والآنسات والسادة الكرام، الذين تفضّلوا بوقتهم الثمين لقراءة ما أكتب. إليكم جميعًا خالص احترامي، وعميق تقديري.

obeikan.com

obeikan.com

محمود القاضي

رواية

غياب

المسوَّدة الثانية

obeikan.com

obeikan.com

"اللغز، ما هو إلا حقيقة تقف على رأسها، لتجذب الانتباه!"

نيكولاس فاليتا

obeikan.com

obeikan.com

شكر

أدين بالشكر للصديق الفاضل الذي كان له الدور الأعظم في خروج هذه الأوراق إلى النور. سيادة المقدم (ح.ف). لن أنسى ساعة طرَق بابي في الثانية صباحًا ذات ليلة باردة. يلهث كالخارج لتوّه من سباق عدو. وبين يديه يحمل رزمة من أوراق الفلوسكاب، المسوّدة بخطّه الدقيق الواضح. وضعها أمام عينيّ شبه المغلقتين، وقال كلمتين من بين أنفاسه المتقطّعة.. لم يعتذر، ولم يُلق حتى التحية. فقط قال: "اقرأ هذا!"

وتنويه

الشهادات المأخوذ بها في هذه التحقيقات، تم جمْعها بوسائل مختلفة؛ صفحات من دفتر مذكرات.. تفريغ لتسجيل صوتي.. شهادات شفهية، ووسائل أخرى. وقد تطلَّب مني الأمر أن أعيد صياغة النصوص التي وردتني، ودمجها معًا بشكل أقرب إلى التماسك والتجانس. وقد حاولتُ تحرّي الأمانة قدر الاستطاعة في إعادة صياغة بعض المقاطع أو الصفحات، بحيث أحررها من اللهجة الخبرية الرسمية، دون إخلال بالمحتوى، حتى إنني تجنّبتُ المساس بالمواضع المذكور فيها اسمي على لسان آخرين، إلا في حدود الضرورة القصوى.

محمود القاضي

obeikan.com

مُبْتَدَأ

«من الواضح أنك لازلتَ مؤمنًا بأن حامد لم يكن هو من تسبَّبَ في كل هذا الهَول..»

دخل الساعي يحمل صينية الشاي، ووضَعها فوق منضدة صغيرة، أمام مكتب المقدِّم حسين فوزي، رئيس مباحث قسم شرطة قصر النيل، ثم أدى التحية وانصرف في هدوء، ساحبًا الباب من خلفه. أشعل المقدم حسين سيجارة، وتراجع بظهره إلى عمق المقعد في إرهاق. لم يكن ينتظر إجابة على سؤاله على أي حال، فإن كل ما يمكن أن يقال، قد قيل بالفعل.

راح يتأمل وجه الأستاذ محمود القاضي، الروائي المعروف. كان مرهقًا بشدَّة هو الآخر، ولم يبدُ بخيرٍ على الإطلاق. أنت لا تعود من سفرك لتجد كل هذه الفوضى، وتظل بخير.. لكنه برغم هذا كان متماسكًا. تناول محمود كوب الشاي وتشمَّمه، ثم تناول منه رشفة..

"هل هناك مشكلة؟"

obeikan.com

همَّ حسين بالضغط على زر استدعاء الساعي، فأشار محمود بيده نفيًا وقال:

"لا، على الإطلاق. إنها عادة قديمة لديّ.. لمعرفة مقدار السكَّر.."

لم يُبدِ أي إشارة تفيد بأن حالته المزاجية تسمح بالمزاح، لابد أنه جاد فيما يقول. بالنهاية قرر محمود أن يبدأ هو هذه المرة..

"ما الذي أكَّد لسيادتك أن حامد هو من قتلهم؟"

"أنا لستُ متأكدًا من أي شيء، إنه اتهام رسمي موجّه بالفعل إلى الفتى.. ربما كان سبب الاتهام هو شهادتك. أنت قلت إن حساء العدس المسموم، الذي قضى على الجميع، هو من صُنع حامد!"

رفع محمود وجهًا مرتعبًا، يملؤه البؤس إلى الضابط، الذي أتبع:

"وربما لأنه هو الوحيد الذي لم يتناول الطعام معهم.. لدينا خمسة أشخاص تناولوا طعامًا بنكهة سمّ الفئران. جميعهم الآن موتى فيما عدا واحد فقط، هو الصبي كمال.. لكنه لم ينج تمامًا. لقد أجرى له الأطباء غسيل معدة، ومن الواضح أن كم الطعام الذي تناوله لم يكن كافيًا لقتله. برغم هذا هو الآن راقد في فراش بالمستشفى، غير واعٍ"

قال محمود آسفًا:

"بالفعل حامد هو الوحيد الذي اعتاد صنع هذا الحساء، لكنني لم أتوقَّع أن يكون قاتلًا.. وإن كان، فهو لن يقتل أهله. ليس ماريا ولا زيزي ولا كمال أو شوقي بك.. وبالتأكيد ليس صديقه الأسطى بركة! لماذا يفعل هذا؟ لقد

كان يستعد للرحيل، حالمًا ببداية جديدة حين يعود.. بحياة أفضل مع من أحبَّهم، ولم يحظ بغيرهم قط"

قال حسين شاردًا، وهو ينفث الدخان، وكأنه يتم عبارة مُحدِّثه التي وجدها ناقصة:

"إن عاد من موسكو!"

أطلق محمود ضحكة عصبية، قهرت البؤس الذي يسكن ملامح وجهه لثوان، ثم هز يديه أمام وجهه معتذرًا.. قال:

"اعذرني، لقد كانت مزحة جيدة! بالله، أنت بالتأكيد لا تصدِّق أن هذا الطفل البائس عميل حقيقي لدولة أجنبية، وكل هذا الهراء الموجّه إليه!!"

لم يتخل حسين عن صمته، وظل لثوان يرمق الرجل، الذي سأله مجدَّدا في يأس:

"هل تصدق سيادتك كل التُّهم المنسوبة إليه؟!"

تنهد وقال بهدوء:

"ليس من اختصاصي أن أصدِّق أو أكذِّب، بل أن أصل إلى حقائق. هذا بالإضافة إلى كوني لا أعرف حامد هذا. أنت من يفترض أن تكون أعلم به منيّ، وبرغم هذا لم يكن لديك الكثير لتقوله"

لم يكن حسين أفضل حالًا من محمود، فبرغم أنه لم يعرف هذا المدعو حامد، ولم يلتق به إلا منذ أيام قلائل، إلا إنه في داخله كان يؤمن بكون الأمر ينطوي على مؤامرة مدبَّرة بعناية فائقة. وهذا لا يعود فقط إلى ما

توصّل إليه بصدد حامد، من خلال تحقيقاته المكثَّفة، وإنما بسبب بعض القرائن، التي قد ظهرتْ تباعًا في الساعات القليلة الماضية، لتُقوّي من شعوره ببراءة الفتى من كل ما نُسب إليه.

كان محمود مجرد شاهد، وهو من أبلغ عن الجريمة، لكن حسين قد رأى أن لديه حق الاطلاع على هذا الشيء بدرج مكتبه، أو على الأقل أن يعلم بكونه موجودًا، ربما جعله هذا أفضل حالًا.. فتح أحد الأدراج، وأخرج دفتر مذكّرات ذو غلاف أسود لامع، ألقى به فوق سطح المكتب. رمق محمود الدفتر بنظرة محايدة، ولم يبدُ كمن رآه من قبل.. قال حسين وقد انطبع على وجهه شبح ابتسامة:

"على أي حال، يبدو أنك كنت محقًا، على الأقل بالنسبة لنقطة أن حامد لم يكن القاتل.."

أشار محمود إلى الدفتر، واستحوذ عليه فضول مفاجئ تجاهه، جعله أخيرًا يتحرّك في جلسته المسترخية..

"ما هذا؟"

"هذا دفتر مذكرات المرحومة عزة. لم نكن نعلم أنها تدوّن مذكراتها، وقد استغرق مني البحث طويلًا في خزانة ثيابها، حتى استطعت العثور

عليه.. لن تصدق ما هو مكتوب هنا، إنها تقريبًا قدمت دليلًا على براءة حامد من تهمة القتل!"

رمق الدفتر مذهولًا، وبدا وكأنه يريد الإمساك به، لكنه لم يعرف إن كان هذا من حقه أم لا. سحب حسين الدفتر وأعاده إلى الدرج ببطء، قال محمود مندهشًا:

"*تقريبًا* قدَّمتْ الدليل؟!"

ثم عاد ليقول:

"أنا أيضًا لم أكن أعلم أنها تدوّن مذكراتها.. هل تعني أنها ذكرت اسم الشخص الذي وَضَع السم في طعامهم؟ كيف هذا، ولماذا لم تستغث بأي شخص في البيت، وكيف تناولتْ الطعام أصلًا؟! إن هذا لا يصدَّق.."

ظل حسين صامتًا، وظل محمود يترقب ملامحه، ثم قال بالنهاية في تردد:

"هل تعني أنها انتحرَتْ وأخذتهم معها؟! أنت بالتأكيد لا تعني هذا.. ثم من أخبرك أنها اعتادت تدوين مذكراتها، وكيف علمتَ بمكان الدفتر؟"

شبك الضابط أصابع يديه، ونظر إلى عيني محمود مباشرة..

"لن تصدِّق هذا أيضًا.. إن حامد هو من أخبرني!"

*****

طوال فترة عمله في المباحث الجنائية، لم تقابل المقدم حسين فوزي قضية تنطوي على كل هذا الكم من المفاجآت. كان الأمر أكبر من أن يُصدَّق، وكانت المؤامرة أعقد من أن يمكن حلها. لقد كان الفتى يواجه عددًا من التهم يكفي لإعدامه خمس مرات على الأقل.. جريمة قتل جماعية، تسبَّبتْ في موت أربعة أفراد ونجاة واحد بالكاد. وجريمة تخابُر مع دولة أجنبية، هذا بالإضافة إلى الطبيب النفسي الذي وُجد مقتولًا في عيادته، في نفس الليلة المشؤومة.. والذي تبيّن أنه الطبيب الذي يعرف *بحالة* حامد.. مجموعة مثالية من التهم.

لم يكن أعتى المحامين ليقدر على زحزحته عن حبل المشنقة ملليمترًا واحدًا، لكن مَن أنقذ عنقه لم يكن محاميًا، بل معجزة.. أن تُحَل قضية بمثل هذا التعقيد، بواسطة شهادة ثلاثة أشخاص، أحدهم واقع في غيبوبة، والآخران قتلى، فهذا بالتحديد هو ما يُطلق عليه معجزة!

كانت البداية حين عاد محمود من سفره في هذه الليلة بالذات، ليجد الجميع ممددًا على الأرض في أوضاع تشريحية متباينة، وحول كل رأس، كانت هناك بركة صغيرة من القيء المختلط بالدماء. فقام بالاتصال بشرطة النجدة، وأبلغ عما وَجَد، ولم يكن حامد بالبيت حينها. في الصباح التالي عَلِمَ أن حامد صار رهن الاعتقال، وأن تُهمة التخابر قد وُجِّهت إليه. كانت هناك تسجيلات وصور تؤكد تواصله مع رجل مخابرات روسي، وقد أثبتتْ التحريات أن حامد كان يستعد للسفر بصحبة هذا الرجل، في اليوم التالي لتلك الليلة المشؤومة. وأنه حين ألقِي القبض عليه في غرفة هذا الرجل

بالفندق، استطاع الروسي العجوز أن يهرب من رجال الشرطة، وقد اختفى بالفعل بطريقة سحرية، ولم يتم العثور عليه حتى الآن!

لم تُفد التحقيقات المستفيضة التي أجراها المقدم حسين في استنتاج أي معلومة قد تؤكد أو تنفي هذه التهم، لكن أحدًا لم يكن ليصدق أن يفعل حامد أيًا من هذا. كان من الغريب أن التحقيقات قد أوشكتْ على الانتهاء، قبل أن يعلم حسين بالمصادفة البحتة بأن هناك دفتر مذكرات يخص عزة.. وأن يتوصّل من خلال هذا الدفتر إلى طرف خيط، يصل كل أطراف الموقف العجيب بهذا الطبيب الجثة؛ ذلك الذي وضع بنفسه قبل أن يموت آخر قطعة في لعبة البازل الفريدة هذه.

*****

في صباح اليوم التالي للجريمة، بدأ المقدم حسين كالمعتاد باستدعاء كل من يفترض أنهم كانوا على صلة بالفتى.. وما قالوه لم يكن متوقعًا بحال. كل منهم روى القصة بطريقته ، لكنهم جميعًا اتفقوا على أن حامد كان مختلفًا.. إن من سمع ليس كمن رأى. بالفعل كان هذا الفتى مختلفًا وبشدة، أكثر مما صوّرتْ له حكاياتهم بكثير.

حينها شعر بحاجة لرؤية حامد هذا، والتواصل معه بأي طريقة. ودون إطالة تفكير، قرر نقل مقر عمله إلى المستشفى بشكل مؤقت. كان يعلم أن الفتى سوف يأخذ كل وقته، وبالنهاية سوف يتكلم.. وقد أحَبَّ أن يكون موجودًا بنفسه في هذه اللحظة.

ظل يتأمله طويلًا.. لم يَظهر عليه أنه قد شعر بوجود أي شخص في المكان، كما أنه بدا حينها أصغر سنًا، وأكثر ضعفًا وبراءة مما تخيَّل.. هز رأسه للممرضة، فانسحبتْ إلى الخارج في صمت، وأغلقتْ الباب من خلفها.. سحب مقعدًا من ركن المكان، ووضعه قريبًا من فراش الفتى، لم يعرف كيف يبدأ، لكنه كان في أمسّ الحاجة إلى البوح.. ماذا فعلتَ أيها التعس؟ ولماذا تورطتَ في كل هذه الفوضى بالخارج؟ أنا أعلم أنك تستطيع سماعي بشكل تام، ولكني لست متأكدًا مما إذا كنت تعلم بما ينتظرك حين تخرج من هنا.. بالخارج يقف كل من محمود ودكتور أسعد.. نانا أيضا موجودة بالخارج، وهي لا تصدّق أنك آذيت أباها. كم كنت أتمنّى أن أستطيع مساعدتك. هل تسمع هذا؟ أنا بالفعل مهتم بمساعدتك وانتشالك من هنا.. فأنت أصغر وأضعف وأشد بؤسًا من أن تحتمل المزيد من البؤس.. فليساعدك الله.

إنهم بالخارج لا يعرفون عنك إلا أقل القليل، هؤلاء الذين من المفترض أنهم آخر من يعرف عنك أي شيء. كلهم يحبونك، وكلهم يؤمنون بأنك بريء، وكلهم يتمنون لو كان باستطاعتهم مساعدتك.. لا أعرف كيف يحبون شخصًا لا يعرفون عنه أي شيء، لكن هذا ليس من شأني.. ما يعنيني الآن هو كيف يمكنهم مساعدتك؟ لماذا كنتَ بعيدًا غريبًا إلى هذا الحد؟ أليس لك أهل أو بيت أو شخص ما في مكان ما، يستطيع أن يُخبرنا بمعلومة إضافية عنك؟ هل أتيتَ من زمن آخر، أم هبطتَ من السماء، أم ماذا؟! ستموت أيها الأحمق، ستظل موصومًا إلى الأبد، سوف يُذكر اسمك مقترنًا

بالخيانة والوحشية والغدر، وسيحفظ الأطفال حكايتك عن ظهر قلب، وسيصنعون لك دمى يحرقونها في أعيادهم. لماذا لا تتكلَّم وتخبرني بالحقيقة؟!

كان حسين في هذه اللحظات أشد عجزًا من الفتى الراقد بلا حراك، لا يستطيع التوصل إلى الحقيقة.

وبعكس ما يُفترض منه، كان يتعاطف معه بلا سبب حقيقي يؤكد براءته. وكانت الدلائل تشير إلى إدانته بقوة، لكن شيئًا في داخله كان يوقن من أن هذا لا يعبّر عن الحقيقة.. إن لم يتكلم فهو هالك لا محالة، وإن امتلك القدرة على الكلام، فلن يجد الوقت ليفعل.. لابد أنه اقترف الكثير من الآثام ليستحق ما وصل إليه الآن.

هناك الكثير من الناس على مر التاريخ، قد قُتلوا وشُرِّدوا وظُلموا بلا ذنب جنوه.. ولكن مقارنة بهذه الحالة، قد يبدو الموت بوابة إلى الخلاص. إن كان حامد بعد كل ما تعرَّض له بريئًا، فماذا يُفترض أن يلحق بالجناة والخطاة إذًا...؟!

بالخارج كان ثلاثتهم يجلسون، أسعد وناهد ومحمود، لا يعرف أحدهم الآخر. ولا يربط بينهم سوى هذا الفتى. لماذا على اختلاف ثقافاتهم وأعمارهم ونشأتهم، يبدون متشابهين إلى هذا الحد؟ ليسوا هم فقط، وإنما أيضا من يرقدون الآن في ثلاجة المشرحة.. كأنهم جميعا ذات الشخص. نفس الحكاية، ونفس التاريخ، ونفس الوحدة والعناء والاغتراب.. هل يُعقل أن يجتمع كل هذا العدد من النماذج المتشابهة في حياة شخص واحد؟

بالتأكيد هي ليست مصادفة، ولكن إن كان حامد هو من سعى إلى البحث عنهم، وجمَعهم كما يجمع المرء طوابع البريد، فلماذا تخلَّص منهم بهذه الوحشيّة؟!

شعر حسين بأن الغرفة المظلمة، المعقمة، شديدة الهدوء، تُطبق على صدره. كان بحاجة إلى حركة، وأصوات، وأضواء صاخبة، كي يتخلَّص من شعوره المؤلم بأنه سيَقع مغشيًّا عليه في أي لحظة.. قرر أن وجوده هنا لن يُفضي إلى أي شيء، سيخرج قبل أن يضطر إلى إفراغ أمعائه على الأرضية المغسولة بالمُطهِّرات. ونهض بالفعل، يهز رأسه مستسلمًا، وهو يلقي على الفتى نظرة أخيرة، ثم يتوجه صوب الباب عازمًا على المغادرة.. لكنه – لسبب ما – لم يفعل.

Obeikan.com

حامد

أعلم أنك تسمعني جيدًا.. ليس الأمر محض خيال كما لابد أنك تفكر، وليس وهمًا أصابك. أرجو أن تنصت لي بكل ما بك من حواس، فلا أعرف إن كنت قد أحظى مرة أخرى بتلك الفرصة النادرة من الصفاء الذهني، مما يسمح لي بتذكّر كافة التفاصيل، لكل الوقائع التي مررت بها خلال فترة إقامتي بينكم في هذه الحياة البائسة.

ربما بدت كلماتي غريبة، توحي بكوني مخلوقًا فضائيًا هبطت مركبته على كوكبكم لظرف اضطراري، ويبدو أن الحقيقة قريبة من هذا إلى حد كبير. فلقد عشت عمري المنقضي أراقبكم وأشعر بأنني دخيل عليكم، وكأنني عبرت الباب الخطأ!

قرّب هذا المقعد واجلس في هدوء من فضلك، فليس ثمَّة داع لكل هذا التوتر. ركِّز انتباهك جيدًا إن كنت تبحث عن الحقيقة. إن قمت بضغط هذا الزر فسوف تأتي الممرضة الممتلئة، الجالسة بالخارج تثرثر مع زميلتها. يمكنك أن تطلب منها أوراقًا للكتابة إن أردت، وأتمنى أن تريد! لأنني ما

obeikan.com

رغبت في شيء قدر رغبتي الآن في التدوين. شيء بداخلي يرفض أن تموت التفاصيل، وتغيب عن ذاكرة التاريخ بمجرد رحيلي.. لكن خجلي الفطري الدائم، وميلي إلى الصمت، كانا دائما أقوى من رغبتي في أن ألقيها على مسامع الأستاذ محمود، أو الأسطى درويش، أو أي شخص آخر يعرف القراءة والكتابة.

مهلًا، فقد احتشدَتْ البدايات بداخل رأسي. يصعب عليّ استخلاص طرف خيط يصلح كبداية حقيقية لتلك الوقائع. ولكن، فيم الحاجة إلى افتتاحية وعقدة وحَل؟! لسنا بصدد مشروع درامي كي نهتم بهذه التفاصيل، وإن كانت تفاصيل تلك الرحلة الطويلة المضنية أشبه ما تكون بمشاهد من فيلم سينمائي، موضوعه الأساسي هو الاغتراب. غربة بداخل غربة بداخل غربة.. رحلة لا تنتهي من الضياع واليأس وعدم الاستقرار، لشخص لم تُنعم عليه الحياة بأهل ولا مستقر ولا وطن، وحكمت عليه بالتيه بين جنباتها وكأنما يؤدي عقوبة ما، جزاء إثم لم يقترفه. محمَّلاً بهديّة لم يسع إليها ولم ينتفع بها، بل ربما كان أكثر من تضرر جرّائها.

كانت لحظة ميلاد ذلك الهاجس بداخلي، وبداية انتباهي لتكرار الرحيل، هي تلك الليلة الأخيرة قبل انتقالي إلى الجيش، والتي قضيتها في حجرتي بفندق مدام ماريا. تلك الشقة القديمة الواسعة في أحد شوارع وسط العاصمة، والتي تؤجر أربع غرف منها، واحدة لكل ثلاثة نزلاء، وتقيم في أخرى، وتغلق الأخيرة على بعض الأغراض القديمة، لكنها تحب أن تطلق عليها (الأوتيل)!

obeikan.com

مدام ماريا هي عجوز طيبة إلى حد لا يصدَّق، لا يعرف أحد ممن أعرفهم معلومة مؤكدة حول نشأتها، لكن لكنتها الغربيّة – برغم طول إقامتها في مصر – لا تخفى على أحد. لم أر لها أقرباء، ولم أسمعها تتحدَّث عن طفولتها أو زوجها الراحل، لكنني سألتها ذات ليلة شتوية – بينما نلتفُّ حول قدحَي كاكاو أمام التلفاز – عن أخبار الماضي.. صمتَتْ طويلًا حتى ظننتها لن تجيب، لكنها قالت بالنهاية:

"إن الذين حكمَت عليهم الأيام بالاغتراب والوحدة، هم أولى الناس بالرعاية، وأحوجهم إلى الاعتناء النفسي، وأقلهم احتياجًا إلى أسئلة من هذا النوع. لا أعني أنني لا أرحب بسؤالك، لكنك لم تزل شابًا صغيرًا.. غدًا تعلم أن الماضي ليس هو المقياس الوحيد للحكم على الناس، بل ربما كان هو الكفّة التالفة في الميزان.."

بالرغم من كوني قد تخطيت السابعة عشرة بالفعل وقتها، وبرغم علمي أن تاريخ المرء يعد جزءًا لا يتجزَّأ من شخصيته، وأنه في معظمه من صنع يديه، إلا إن تجربتي الشخصية جعلتني على القدر الكافي من التفهّم لكلماتها.

"أنا لم أنشئ هذا *الأوتيل* فقط من أجل البحث عن الصحبة البشرية في آخر أيامي.. ألم تلاحظ أن كل جيرانك – من الباحثين عن وطن – يشبهونني تمامًا؟ ربما لو وافقتُ على أن يسكن عندي كل طالب للسكن، لما استطعت تكوين هذه الأسرة المتماسكة!"

استعرضتُ في رأسي كل من يقيمون معنا، وكل من اعتاد المرور بنا من وقت إلى آخر..

العجوز شوقي الدمنهوري، رجل الأعمال الشهير سابقًا، والمقامر الفقير حاليًا.. وكمال، ذلك الطفل الذي تركه أبواه منذ أعوام وهاجرا سويًا إلى كندا، ومنذ ذلك الحين لم يرسلا خطابًا واحدًا ولم يجريا حتى اتصالًا للاطمئنان عليه، حتى إنني حسبتهما قد ماتا، ووحدها ماريا تعلم، لكنها لا تريد البوح بهذا. فقط قررَتْ رعاية الصبي ريثما يعود آله. ويقضي هو وقته في محاولات لا تنتهي لأن يصبح بطلًا خارقًا.. تتركه مدام ماريا يحلم ما دام يتابع دروسه جيدًا، وما دام لم يجرب بعد أن يطير!

وأستاذ محمود، الكاتب السكندري المهذب الصموت، الذي يقضي أسبوعًا كل شهرين على فراش مجاور لي، ويظل يكتب على الكومبيوتر الخاص به طيلة الوقت. أحيانًا يرفع رأسه وينزع نظارته ليفرك عينيه المرهقتين، ويوزع بسمات صامتة هنا أو هناك..

وأخيرًا الآنسة عزة، التي يعتبرها البعض مجنونة، لكن الجميع يعاملها بعطف ومحبة. في الثلاثينات هي، ربما كانت جميلة، لكنها لا تهتم بالنظر إلى المرآة، ولا تضع مساحيق التجميل، تميل إلى النحول، عابسة ذاهلة على الدوام. مات خطيبها منذ زمن بعيد في حادث سير مروع، وبعد قصة حب ملتهبة دامت طويلًا؛ فكان أن حملت حقيبة ملابسها وغادرت بلدتها في عتمة الليل، نائحة سائحة بين جنبات الدنيا حتى استقرَّتْ هنا. وهي تبكي معظم الوقت حين تنفرد بنفسها، ولا أحد يعلم من أين ترتزِق. ربما في لحظات نادرة كانت تُشرق وتبتسم، أو تَصدر عنها إيماءة تلقائية، تفضح الأنثى الكامنة وراء هذا الجلد المتوتر، والملامح الحادة، والعينين الذاهلتين

أو الدامعتين، فتجذبني إليها جذبًا، موقدة بداخل روحي المراهقة التوَّاقة، خيالات شديدة الحرارة. وبرغم فارق السن فيما بيننا، وبرغم تلك الحالة العدائية التي تعتريها أحيانًا، فقد قمتُ بضبط نفسي أتخيلها بجانبي في الفراش مرة أو اثنتين.

حين انتهيت من استعراض الجميع بما فيهم ذلك الشخص الذي لم تشر إليه المدام: أنا! حاولت تخيل أسرة واحدة *متماسكة* يمكنها أن تجمع كل هذا الشتات الإنساني الفريد، فلم أجد إجابة سوى فندق مدام ماريا. وسرَت بداخلي رغبة عنيفة في أن أنهض لأحتضنها بقوة، وألثم شعرها الأبيض الذي تعطره الحناء، لولا أن خجلت فاكتفيتُ برشفة من الكاكاو، وتابعتُ الفيلم دون تعليق.

*****

برغم تحذيرهم لي بأنه من الوارد أن أتعرض لاختبار مواد مخدِّرة، إلا أنني لم آبه بذلك، ولم يهتم الأسطى بركة وهو يلف لنا سيجارة جديدة. كان الحشيش من يديه يحمل نكهة تختلف عن كل ما عرفتُ، وكأنه يفعل ما لا نفعل. أقسم إنني دخنت نصف تلك القطعة التي انتهك بقيتها فوق تبغ سجائره المحلية التي أدخّنها أنا أيضًا، ولم تؤت تلك الثمرة من قبل!

كنت أعرف أنها لحظات قصار وأختفي مجددًا.. أنتقل إلى حياة جديدة ووجوه جديدة في مكان جديد. لم تكن الفكرة غريبة عليّ، فقد عايشت الغُربة مرارًا ومرارًا، وقضيت كل ما مضى من عمري غائبًا. وبرغم أنها صارت بمرور الوقت، طقسًا موسميًا من طقوس استمراريتي في الحياة، إلا إنها –

الغربة – لا زالت تترك في نفسي ذلك الأثر الممضّ القديم في كل مرة، وكأنها الأولى. لم تكن فترة تجنيدي الإجباري هي أولى تجاربي في الابتعاد الاضطراري، ولن تكون الأخيرة على أي حال.

وحتى الساعات الأولى من الصباح، ظللنا ندخّن ونضحك، أو نحاول أن نضحك. وأصر الأسطى بركة ليلتها أن يوصلني بنفسه إلى موقف الميكروباص، فقد خشي أن تدهمني سيارة وأنا أقطع الطريق بخطوات زجزاجية، وكشّافَي رؤية أعماهما ضباب أزرق مغلَّف بدموع الدخان، والإفراط في الضحك. ضحك ماسخ صاحب كانت مهمته الوحيدة هي تبرير سبب تلك الدموع.. لكنني أبَيتُ فلم أكن أطيق الوداع.

أسعدني أن مدام ماريا تعرف أن ليلتي استثنائية، وهي الأخيرة هنا إلى أن يشاء الله، فلم تتشدَّد تجاه *احتفالي* الدخاني، بداخل الحجرة المغلقة ذات الأسرّة الثلاثة الخالية من الشركاء في هذه الأيام.

نمت في حوالي الثالثة صباحًا، بعد أن أصرَّ بركة على الرحيل في هذا الوقت المتأخّر، وفارقني مودعًا، قائلًا إنه ليس من داعٍ للبقاء، ما دام لن يكون معي في الصباح.

كنت قد أعددتُ المنبّه للرنين في تمام الخامسة، عامدًا ألا أنام عددًا كافيًا من الساعات. كنا في بدايات يناير، وبرغم ذلك اخترتُ قميصًا خفيفًا قصير الأكمام، ولم أحمل معي أي متاع، ولم أحمل من المال إلا ما يكفي لعدة أيام بحسب ما كنت أتصور، إلا أنني أنفقت كل ما كان معي في ذات اليوم، قبل أن أعرف أين سوف يتركوننا ننام. لا أعلم الهدف من وراء

تعمُّدي إيلام نفسي، وتحميلها ما لا تطيق إذا تأزَّمت الأوضاع، وكأنني بهذا أستعجل النهايات.

كنت طيلة الوقت أفكِّر في الجميع.. أمي التي لم أعرف أين دفَنها ذلك السكير ذو الكرش العملاق.. أبي الذي لم أره ولم أعرفه إلا من خلال الصور القديمة.. شقيقي الأكبر، الذي سافر إلى الكويت إبان هبوب *العاصفة*، فلم يعد، فيحمل بعضًا مما حملَتْ أمي.. ولم يبلغنا خبر وفاته بعد غياب قارب الخمسة عشر عامًا، فيتم إعفائي من التجنيد! والأسطى بركة، ذلك الرجل الكريم الذي استضافني في بيته شهرًا، صار هو واحتي الوحيدة بين ذكريات زمني المتصحّر الأجدب..

و.. نانا!

يا الله، يا ولي الصابرين..كم اشتقت إليك أيتها الصغيرة. كم ليلة قضيتها أضم الهواء البارد بذراعي، وأغمض عيني محدثًا إياك همسًا، لا أحب أن أرى أحدًا ولا أن يسمعني أحد.. أريد أن أنتقل إليك أو إلى عالم موازٍ لا أحد فيه سواي.. وتستتبع كلماتي دمعات حارة حرَّاقة مُلهِبة. كنت أعلم يقينًا أنك بشكل ما تسمعين ما أهمس به إليك عبر الأثير، وكنت أختار الساعات المتأخرة من الليل لحديثنا، كي أضمن أنك قد رُحت في غفوة، قد تتمكنين معها من استقبال رسائلي اللاسلكية في صيغة حلم، لن تتذكري منه شيئًا في الصباح. وفي كل مرة لا يتبقّى لي من آثار ليلتنا معًا غير الجفون المنتفخة والأحداق الملتهبة من أثر الملح. لولا فكرة جنونية كهذه لما ظللتُ حيًا ليوم إضافي بعد رحيلي عن أرضك الدافئة.

كانت أسود أيام عشتها على الإطلاق هي أسبوعي الأول في مركز التدريب، خاصة وأن آخر خبر نقله لي بركة قبل أن يشعل لي سيجارتي الأولى، جالسًا على بساط الحجرة، برغم الثلج المنبعث من الجدران، أن فرح ناهد سيكون الخميس القادم..

"ليت تجنيدك كان ليتأخر أسبوعًا واحدًا كي تتمكن من الحضور.. سوف يفتقدك الجميع حقًا"

أطرقت لدقيقة أو أكثر مصدومًا، وقد تغيّر لون وجهي فيما بدا، لأنه قال مربتًا كتفي في مواساة:

"لا تحزن إلى هذا الحد.. أعلم أنه من غير المنصف أن يتزوج الناس، ويسافرون، ويموتون، ويشاهدون مباريات الكرة بينما أنت غير موجود، لكنها فترة قصيرة ولسوف تمرّ سريعًا.."

كان يهذي قبل أن أشعل سيجارتي حتى. إن ثلاث سنوات هي فترة تكفي لموت كل من أحببتهم، فقد ماتت أمي في ثلاث ثوان. رمقته بعينين ملتهبتين بلا دموع وقلت في سخرية:

"ألن نشعل تلك الهِبابة على الأقل؟!"

ناولني القدَّاحة صامتًا، فقد كان فيما يبدو يحاول استنتاج فكرة عما يدور بداخل رأسي. لكنه مهما أضنى خلايا مخه في البحث والترتيب والتحليل، فلم يكن ليتوقع حجم الاشتياق اليائس، الذي يفعم قلبي حتى

الحافة، ويفيض على جوانب أيامي مع كل حركة، مغرقًا إياها في الهم والحزن والحرمان الموجع.

كم أعشقها تلك الحورية البيضاء، التي أهدتها زوجته إلى الحياة، في محاولتها الأولى للولادة، قبل أن تتعلم الطريقة المثلى لإنجاب البشر، فتأتي لنا بشقيقها الأصغر.

*****

كانت الأجواء والمشاهد من حولي غريبة مختلفة عن كل ما عشت، وكنت أشرد لدقائق أو ربما لساعات، ثم أفيق فأشعر وكأنني قد نمت واستيقظت في عالم آخر تمامًا. لم أسع إلى تكوين أي صداقات هنا، وقد أيقنتُ من أنني خُلقتُ وحيدًا وعشت غريبًا، ولا مناص من هذه الحقيقة، ولا جدوى من محاولة تغييرها.

لم أحاول بحث سبل استرضاء القادة الغاضبين على الدوام. فقدتُ أكثر من نصف وزني في أول شهر برغم نحولي البالغ من الأصل، والذي تضافر مع طولي الفارع، وبشرتي الداكنة، في منحي سمت أقرب إلى العفاريت.

كنت أتلقَّى الأوامر وأنفذها كالآلة، ليس اتقاءً للعقاب، بقدر ما هو اختصارًا لعدد الكلمات التي أتلقاها، وبالتالي ضغطًا لحجم التواصل بيني وكل ما يحيط بي هنا في هذه البقعة الصحراوية النائية.

وكان دائمًا ما يقول لي الصول فريد الذي كان يفضّل أن نناديه بعم *فريد*:

"إن الحزن لن ينتهي من العالم. اقض فترتك ودعها تمر، ثم احزن بالخارج حين تنتهي، حيث يمكنك الفرح إن مللت من الحزن يومًا!"

كان كهلًا مزعجًا عالي الصوت سريع الغضب، يعشق الميري ويقدِّس النظام بشكل يدعو إلى الانتحار، ولا أظن أحدًا قد رآه من قبل على غير ما تنصّ قواعد الانضباط، لكنه كان طيب القلب برغم كل هذا. وفكَّرتُ في كلماته بالفعل، لأكتشف اعترافًا ضمنيًا منه بأنه لا يسعني الفرح هنا، فكيف أؤجل الحزن لما بعد؟!

على أن كل ما مر بي بعدها من مسارٍ ومضارٍ، لم يخفف من حدة شعوري بالغربة ولا بالوحشة ولا بالحزن، ولم يصرفني إلى أحزان جديدة، أو يشغلني بمشكلات تخص عالَم لا يخصني، ولم يُنسني أنني لم يبق لي في الحياة سوى مدام ماريا وقاطني فندقها الظرفاء.

*****

في ليلة صيفية شديدة الرطوبة، كانت نوبة خدمتي على سيارات الحملة. الجنديان الآخران نائمان كالقتلى أسفل إحدى السيارات العملاقة، ولا يبدو من أثر للحياة على الكوكب بأسره، إلا ذلك الضوء المنبعث من خلف نافذة استراحة المساعدين، وصوت الضحك الهستيري القادم من هناك. علام تضحكون أيها القرود؟ هل حلَّ بكم الرضا وهبطت على رؤوسكم السعادة؟

تخطت الساعة الربع الأول بعد الثانية صباحًا ولمّا يفارق جفوني أثر النعاس بعد. لم أتناول شيئًا تقريبًا طيلة اليوم الماضي، حرارة الجو تقتلني، ويُعجزني ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء، عن التنفس بصورة سليمة. دوخة بسيطة بدأت تدير رأسي، ومن الواضح أنني سأعاني بعض الهبوط خلال الساعات التالية.

إن بلغ مسمع قائد السرية أصواتهم الماجنة لهدَم اللواء فوق رأس الجميع. تنتابني رغبة حرّاقة في تناول كوب من الشاي، لكنني لا أستطيع التحرك قيد أنملة وقد استلمتُ نوبتي منذ دقائق. تناولت علبة التبغ الجديدة، وقمت كعادتي بانتزاع السيجارة الأولى، وقلبتها رأسًا على عقب، ثم أعدتها إلى مكانها بالعلبة على أن أرجئها للنهاية. أشعلتُ أخرى وجلست أترنم بأغنية قديمة، بصوت خجلت من أن يرتفع فيبلغ مسامعي، واحتضنتُ سلاحي موجِّهًا وجهي نحو السيارات القابعة كالوحوش الساكنة. كان القمر بدرًا في تلك الليلة، وأنا بعكس كل الناس أخاف القمر المكتمل، ولا أعرف لماذا يُشعرني بوَحشة فوق وحشتي، ويؤجِّج شعوري بالانفصال عن الحياة، كأنه انفرد بي وحدي أخيرًا وقرر التهامي.

رفعتُ صوتي قليلًا كي أقهر هذا الشعور بنوعٍ من الرعب أقل وطأة، وظللتُ أناجي حوريتي الصغيرة نانا. كيف تراها الآن نائمة، وفي أي ثوب مسائي صيفي تستتر.. أعيد استرجاع صورتها، أستحضرها.. وأتأملها غير مصدِّق. أدعوها للجلوس إلى جواري، فتتقدم على استحياء بينما صوت نبضها يكاد يخرِق طبلة أذني.. جلسَتْ ملتصقة بي عن غير عمد في

obeikan.com

مقعدي الفردي، مسستُ خدّها مسًّا رقيقًا وأدرت وجهها نحوي. صدرَتْ عنها رجفة، أخذتْ بي وأطلقتْ الشيطان الساكن تحت جلدي.. كانت في قميصها الساتان الأسود القصير، تشبه دفقة نور قادمة من السماء.. تشبه شيئًا لا أقدر على وصفه بكلمات. كانت كل خلية منها تنبض بالرغبة الممتزجة بالخوف، وكانت تفوح من شعرها رائحة ما عطرية مُسْكِرة..

"كم هو رائع هذا القميص، إنها المرة الأولى التي أراك فيها بثياب النوم.."

يعلو نهداها المكتنزان في انفعال مكتوم بالكاد، وكأنها عاجزة عن التنفس..

"لم أكن أعلم أنك هنا.."

قالتها في ارتباك لذيذ.. يدفع صوتها الناعم المتهدج الدم في عروقي دفعًا، فتغدو نبضات قلبي كمحرك القطار البخاري في سرعته، وأغدو في مثل حرارته واندفاعه.. أنوثتها آتية من عالم ديزني، كأميرات الأفلام الكرتونية التي تدمن عزة مشاهدتها. أسطورة حية، أستطيع تذوقها والشعور بحرارتها ونبضها، وسماع صوت تحرك الدم بداخل عروقها. أحاول احتوائها بالكامل في نظرة واحدة، لا أصدق كل هذا البهاء. تنسحب أناملي لتلتف برفق حول خصرها، وأجيب همسًا بينما أقترب:

"إنني هنا، وقد اشتقت إليك كثيرًا.."

ألثم وجنتها وأطيل التماس الهادئ، فتغمض عينيها ويزداد معدل خفقان قلبها.. تطلق تنهيدة تشعل الهواء من حولنا..

"يجب أن أعود، لقد أوشكت أمي على العودة من السوق.."

"ابقي قليلا، فقط لدقيقة أخرى.. إن الحياة هنا شديدة القسوة، وأنت بعيدة جدًا.."

تضع رأسها فوق صدري، فأضمها أكثر. لا أستطيع منع دموع اشتياقي الحارة من حَفْر أخاديدها القاسية فوق وجهي وروحي وجدران عالمي..

"وحشتيني.."

لم أعرف هل غبتُ في غفوة قصيرة، أم أن شرود ذهني قطعني عن العالم لدقائق، لكنني أفقت على الملح إذ يحرق وجنتي، وصوتٌ تصاعَدَ كالرَّعد في قلب الليل، لضحكات صاخبة بشكل أشنع من ذي قبل، وباب الاستراحة يفتح بعنف، قبل أن يتبدَّى من خلال فرجته الصول فريد، في مشهد سلويت مخيف، يضرب ضوء الحجرة الأصفر الباهت ظهره. يبدو في بنطلونه الميري وفانلته الداخلية قابضًا على سترته. تحرَّك عن فرجة الباب فبدا وجهه محمرًا من فرط الضحك. يمسك ببطنه ويهتف بأعلى ما لديه من صوت بين ضحكاته، في مشهد لم يمكنني استيعابه:

"ك(...) أم الميري يا خال!"

خرج الجميع في إثره يضحكون بدورهم، لكنهم أكثر تماسكًا، وحاولوا منعه من الركض بهذا الشكل المزري، واندفع أحدهم يكتم فمه بيده،

فتملص منهم جميعًا وهو يخلع فردة بيادته، ويلقيها على طول ذراعه إلى الفراغ، قبل أن يسحبوه إلى الداخل ويعيدوا إغلاق الباب من جديد. تسمرتُ في ذهول غير مصدِّق لما حدث، وبعدها بنحو خمس دقائق انسحَبَ كل من كان بالاستراحة إلى مكانه الأصلي، فكان أن رأيت بعضًا من ضباط صف السرايا المجاورة لنا ضمن الخارجين، وتأكدَ آخرهم من غلق الباب من خلفه، قبل أن يتحركوا في صمت، بخطوات تشبه الزحف.

"خدمة.. أنت يا عسكري الخدمة!"

كان الصوت آتيًا من جهة استراحة المساعدين، فنهضت في تكاسل حاملًا سلاحي إلى الباب المغلق.

"افتح وادخل.."

لابد وأنه يراني من حيث لا أستطيع أن أراه، أدرتُ المقبض ودخلت فلم أرَ شيئا من الظلام..

"كم الساعة الآن؟"

"الثانية والثلث.."

كان هذا صوت الصول فريد، وقد تبيّنتُ بشيء من العسر أنه يرقد فوق فراشه على ما رأيته آخر مرة بالضبط، فانلة داخلية وبنطلون وفردة حذاء وحيدة. أخبرته بالوقت، فكان رده أن انطلق في الشخير، بصوت جعل الأتربة تتساقط من سقف الاستراحة.

obeikan.com

استدرتُ عائدًا، قبل أن تقع عينيَّ على السخان التنجستين، وفوقه كنكة كبيرة ممتلئة حتى منتصفها بالماء، وبأعلى المنضدة المجاورة ارتصّت برطمانات الشاي والسكر، بجانب الأكواب الدافئة، لا أظنه يمانع، هذا لو كان على قيد الحياة من الأساس.

غسلت أحد الأكواب، وحاولت ألا أصدر صوتًا أثناء انتظاري غليان الماء كي لا يستيقظ، ثم حملت (الكوب/الحلم) الساخن وخرجت شاعرًا بأنني قد استعدت جزءًا من إنسانيتي قبل حتى أن أتذوقه..

*****

يا الله، يا سميع يا بصير..

أنت تراني، أعلم ذلك يقينًا. لا أعني أنك تراني الآن في هذه الجلسة المقيّدة، بل أعني أنك تراني عادة، وتعرف ما خفِيَ من أمري، وما كان من أمر الدنيا معي..

رشفة ساخنة تُلهب لساني، أشعل بعدها سيجارة كي أدعم شعوري باستعادة الحياة!

إن كان هذا عقابًا على ذنب اقترفته، وأنسانيه الشيطان، فذكرّني، فإن هذا كفيل بتخفيف نصف ألمي.. وأما إن كان هذا ابتلاء منك، فلا أبالي ما دمت راضٍ عني..

وضعت كوب الشاي بعد أن فرغ، واحتضنتُ سلاحي متأملًا السماء من جديد. لا أشعر برغبة في التفكير، ولا في الكلام، ولا أستطيع رفع عيني

obeikan.com

عن مشهد البدر. أشعر وكأنه يتحرك.. يفتح فمه المبتسم عن آخره! أكلبِش في سلاحي كأن هناك من يزمع أن ينتشله من بين أصابعي، وأحاول أن أخلّص ذهني من الشوائب كي أتمكن من استعادة الملامح الملائكية لوجهها بصفاء، وتفاصيل ذلك الجسد الغض الذي قضى على صبري، وحملني على أن أحادث نفسي، وأسمع اسمي فلا أنتبه.. أحاول فلا أستطيع.

صوت صفير مجهول المصدر يرتفع من حولي ولا أقدر على تحديد اتجاهه.. لماذا لم يستيقظ أحد الحمارين الراقدين كالموتى عند قدميّ؟ ألم يبلغ مسامعهما أصوات الضحك الماجن والصراخ منذ قليل، أم إنهما مهيآن للحياة في بيئات مماثلة؟ بدا جزء من وجه أحدهما من تحت البطانية الصوف، ورمقت أذنه في دهشة وقد خُيل إليّ أنها تستطيل ببطء.. ربما سيبدأ تحوله، أم أنه سيعود إلى طبيعته؟!

نوبة جنونية من السعال اجتاحت صدري فجأة، وازداد معها معدل خفقان قلبي بشكل غريب، وكأنني موشك على الإصابة بأزمة قلبية. صوت الصفير يتصاعد أكثر.. القمر يباعد فكيه أكثر.. السيارات النائمة تتحرك في شكل مَوجي، وكأنها تستقر فوق وسادة هوائية على سطح البحر. نانا تطلق ضحكتها السحريّة، وتبتعد عن متناول يدي وهي تطقطق بشفتيها وتهز كتفها. رأسي يدور، ولا أشعر بشيء. أحكم أصابعي حول ماسورة السلاح.. لا أشعر بـ...

*****

مرة أخرى يعود صوت الصفير المتصل.. أشعر بالموجات الصوتية الخارقة تُخلخِل الوجود من حولي، وتقتحمني بقوة، مهددة بتحويلي إلى تراب. المحطة خالية من البشر فيمن عداي.. الضباب يكتنف السماء ويكتنف رأسي، فيزداد الدوار وتتعسَّر الرؤية أمامي.. صغيرًا كنت، وحيدًا للغاية، أكثر من أي وقت مضى.. يدخل القطار الخالي ويتوقف أمامي.. الباب المواجه لي تمامًا هو الوحيد الذي ينفتح تلقائيًا كأبواب المترو.. هل هناك من ينتظرني بداخل القطار الخالي، أم أن القطار هو ما ينتظر...؟!

*****

"حامد، لأ.. ماما هاتموّتني!"

*****

في صباح تال فتحت عيني بصعوبة، ثمَّة دوار يكتنف رأسي، وضباب يتزاحم أمام حدقتي. نمت مرة أخرى، وأفقت أشد غيبوبة مما كنت. طالعَني وجه باسم لم أتبين ملامح صاحبه، ذلك الذي راح يحرك أصابعه أمام عيني. نمت مجددًا وأفقتُ في ساعة تلي العصر، وعرفت لاحقًا أنني نمت ليومين كاملين.

حرَّكتُ أطرافي بعسر لكنها استجابت. بعد أن خرج الطبيب الشاب من الحجرة ليحضر لي شيئا من الصيدلية الصغيرة بحجرة مكتبه – وقد تبيّنتُ أننا في عيادة الوحدة – حاولت الاعتدال جالسًا، لأجد الصول فريد فوق رأسي..

"حمدًا لله على السلامة يا بني.. كيف الحال، هل راق لك الموت؟!"

كان متباسطًا أكثر من المعتاد، وبرغم ما أعرفه عن طيبته، إلا أنني لم أتوقع حضوره لعيادتي. وضع على منضدة مجاورة لفافة صغيرة كانت معه، وقال همسًا:

"أنت عسكري جدع ياله، وأنا أحب الجدعان وأشيلهم في عينيا.. دي حاجة بسيطة ليك انت والدكتور أسعد.. ولما تخرج لك عندي حاجة حلوة بجد."

وربت فوق كتفي بمودة حقيقية، ثم انصرف تاركًا إياي لحيرتي. سمعتُ صوته إذ يخاطب الطبيب بالخارج ولم أفهم محتوى الحديث، فاستدرت بفضول نحو اللفافة لأفتحها.. فطائر منزلية الصنع.

"إنه يحبك، لقد أتى لزيارتك أكثر من مرة خلال اليومين الماضيين. تناول بعض الفطائر.. زمانك جعان يا دفعة"

"اسمي حامد."

"وأنا أسعد عبد الصمد من المنصورة، طبيب طازج، أحيانًا ينادونني حضرة الضابط، لكنك هنا في العيادة وبإمكانك أن تناديني دكتور أسعد.. من أين أتيت؟"

أغمضتُ عيني متظاهرًا بالإرهاق كي لا أجيب، فما كان أصعب عليّ من إجابة سؤال كهذا.

كان أسعد شابًا صغيرًا، شديد الوسامة والدماثة، حتى إنك في وجوده لتشعر وكأنك في حضرة ملاك رحمة حقيقي. ومما زاد من ارتياحي، كونه يرتدي المعطف الأبيض لا السترة الرسمية. ذكّرني إلى حد كبير بناهد، وكأنه معادل ذكوري لها.

منحني قرصًا دوائيًا وجرعة ماء، فسألته بعد أن ابتلعتُ القرص عما حدث. توجه نحو الباب ليغلقه، ثم قرَّب مقعدًا من الفراش، وجلس هامسًا وهو يضحك في استمتاع:

"هؤلاء الشياطين.. لقد أحضر أحدهم من بلدته نبتة خضراء مجهولة، تنبت في أرضهم، يطلقون عليها "سَطَلانة"، قرر أحدهم أن يختبر مفعولها عن طريق غليها في الماء، واستخدام هذا الماء في صنع الشاي. كما أن أحدهم قد تطوَّع بإلقاء قرص مخدر في الكنكة، زيادة في الرفاهية. أولاد حرام، سيحاكَمون جميعًا ذات يوم، يمكنني أن أقسم على هذا.. وأنت قد صنعتَ لنفسك شايًا من هذا الماء، هه؟!"

وجمت للحظات، ثم انفجرت في الضحك فجأة، فضحك أسعد وطرق فوق كفي وهو يقول:

"حاولتُ أن أفهم منك حقيقة ما حدث، فأخبرتَني بكلمات نصف واعية، بأن هبوطًا مفاجئًا قد ألمّ بك. ونقيب سَريتكم أتى إلى هنا وسألك عن مصدر أصوات الضحكات الصاخبة، لكنك أجبته بأنها أتت من خارج السلك.. لولا أن أخبرني الصول فريد، فلم أكن لأعرف الحقيقة.."

لا أذكر شيئًا عن هذا. ربما كنت *جدَعًا* في داخلي بالفعل، وربما كنت قوادًا، لا أعلم. أكان هذا الاتقاد الذهني، في غير وعي منيّ؛ من أثر امتزاج أبو صليبة مع *السَطَلانة*؟!

مرت بي الأيام كالأسابيع، والشهور كالأعوام.. لم أحب الإعلان عن حرفتي بالداخل، برغم متابعتي للجنود من أصحاب المهن وهم ينالون ضعف نصيبي من الإجازات، ويجنون أموالًا، ويكتسبون صداقات وعلاقات طيبة بالضباط هنا. لم أكن أحب أن أفعل كما يفعلون، حتى لا أتصف بما يتصفون به بيني وبين نفسي..

كنت أعتبر أن نداء (جُندي حامد عبد الله) موجَّه إليّ بطريق الخطأ، فأنا لست بدمية ولا عبد ولا رقم، بل أنا شخص استدعوه من بيته وألبسوه مثلهم، وأجبروه على أن يبقى بينهم لفترة ما، وكأنه يؤدي دورًا في مسرحية، أو يعوّض غياب أحدهم بشكل مؤقت!

حتى اضُطررت إلى الانخراط في مكاتب محو الأمية بالوحدة، فقد كنت مهددًا بأنني لن أنال شهادتي ما لم أحصل على شهادة محو أميتي أولًا. لا أنكر أنها كانت تجربة محببة في البداية، فقد كانت تضمن لي الراحة، حيث تصرفني لساعة يوميًا عن أعمال الحفر، وحمل أجولة الرمل فوق ظهري طيلة الوقت كالبغال. إلا إن الضابط المكلف بتعليمنا لم يكن متحمسًا مَثَله كمثلنا جميعًا، ويعلم الله أنه لولا وساطة عم فريد، وخدماته التي تضع أعين الجميع في الأرض، لما تمكنت من اختراق هذه الأسوار المنيعة.

واندهشتُ من قدرته الفذة على التصرّف هنا، فلم يقض بالداخل أكثر من دقيقتين حتى خرج يحمل لي شهادة تحمل اسمي وتفيد بأنني أعرف القراءة والكتابة، وهو يقطب في ازدراء:

"لهف ورقة بميّة ابن البيادة، يحرق أبو الميري اللي لمّ أمثاله!"

"الظابط؟!"

"إلهي يظبطوه في كمين وهو نازل بزفت من اللي بيستعطاه، عشان نخلص من اللي جايبينه!"

وددتُ لو أستطيع الابتسام فرحة بالإنجاز لكن ملامحي لم تسعفني، ووددتُ لو أحطت كتفيّ الرجل بذراعي لكنني لم أجرؤ:

"ربنا يكرمك يا عم فريد ويسترها معاك.. ماتزعّلش نفسك، أنا هادفع لك المبلغ"

"إمتى إن شاء الله، لما تعلّق الدبورة؟!"

ابتسمت برغمي وقلت وأنا أدفع به نحو العنابر:

"لأ، دلوقت!"

"يا سلام، ولما انت حلو وبتعرف تدفع كدا، ما رحتش خلَّصت الورقة بنفسك ليه، ولاّ لازم تعطلوا أشغالنا وخلاص؟!"

"انت بتهزر يا عم فريد؟! عايزني أروح لرتبة بنفسي وأقدم له رشوة، وأنا كل اللي فاضل لي هنا خمسين يوم وأغور؟! دول كانوا تلات سنين يابا، ربنا وحده هو اللي عالم عدّوا إزاي.. شكل فراقي صعبان عليك ولّا إيه؟!"

لم يقبل بتاتًا أن يأخذ المال، وقال إنه كان مقررًا أن تكون تلك هي هديته المنتظرة منذ تلك الواقعة.

وحين حملتُ شهادتي مغادرًا تلك البقعة من الأرض لآخر مرة، سألتُ عنه في البوابة فعلمت أنه قد خرج بالأمس في مأمورية، وربما يعود خلال ساعة.. قررت أن أنصرف الآن وفورًا قبل أن يعود، فقد كنت في أشد الغنى عن كلمات الوداع.

خرجتُ ولم ألتفت جهة صوت ما كان يناديني من داخل الأسوار، لم أستطع توقع هوية صاحبه. ويبدو أنه ملّ النداء بعد المرة الرابعة أو الخامسة، فقرر الاستسلام، وانسحب عائدًا إلى حيث كنت منذ قليل.

obeikan.com

محمود

القاهرة.. إنها حقًا عاصمة العالم، تلك المدينة القديمة الساحرة، القاسية على الوافد الغريب بقدر قسوتها على أطفالها التعساء. وبعكس معظم أبناء الإسكندرية، كانت القاهرة بالنسبة لي هي الموطن البديل، حين كانت تستبد بي الرغبة في الارتحال، سواء كان هذا لغرض معنوي أو أدبي بحت، حتى إنني لا أذكر من مَشاهدي ما كان أفضل مما كتبتُ في القاهرة.

اعتدت منذ زمن التنقل بين المحافظات، أقضي في كل بلد أسبوعًا أو اثنين، وكانت هذه هي طريقتي في تحفيز آلات الإبداع بداخلي حين كانت تعلن إضرابًا عن العمل، وغالبًا ما نجحت هذه الحيلة. لكن القاهرة كانت ولم تزل هي الأقرب إلى قلبي، ربما لسرعة إيقاعها، وازدحام شوارعها وحاراتها وأزقتها، وسرعة جريان أحداثها بشكل محموم، قد يفوق طاقتي على الرصد والمتابعة أحيانًا.

من المدهش للبعض أن أتم العقد الرابع وحيدًا، دون أسرة أو أهل أو بيت؛ برغم حالي الميسور، وبرغم ما ينتشر بين قارئاتي العزيزات من

obeikan.com

أحاديث حول جاذبيتي ووسامتي، إلى آخر هذه الهمسات الخافتة الضحوك، وما يستتبعها عادة من تبادل لقرَصَات مغتاظة أو للكمات خفيفة مرحة. لكن الحقيقة أنني أحب اعتبار نفسي راهبًا في محراب الأدب، كما تخيلت العظماء من وزن الحكيم وسواه حين كنت لم أزل صغيرًا. ربما كان لقب *الرّحالة* أقرب إلى الدقة؟ رحالة مثل السندباد أو ما إلى ذلك.

لا أعرف حقيقةً كيف ومتى أدركتُ أنني سوف أصبح كاتبًا ذائع الشهرة، لكنني ومنذ شبابي الأول، سعيت إلى وضع حجر الأساس لهذا الحلم، وكأنني أنتظر مولودًا حق له أن يأتي في موعد معلوم. ظللت أنهل من كل روافد الأدب بلا توقف، وما امتلأ لي جوف قط. لم يبخل عليّ جدِّي بكل ما كنت أشير إليه من كتب فوق أرفف المكتبات أو مناضد الباعة، وما رفض لي مطلبًا يتعلق بأوراق أو أقلام.

كان موظفًا حكوميًا تابعًا لوزارة الأوقاف، يشبه في دورة حياته اليومية الصارمة إشارات ضبط الوقت. يأكل ويخلد إلى النوم ويدخل الحمام بمواعيد، كأنه آلة ألمانية يخطئ صانعوها ولا تعرف هي للخطأ سبيلا. وكان يتصرّف وكأن السيد المدير العام يراقب تصرفاته على مائدة السفرة، ويعلم بما يحلم، وعلى أي جانب يضطجع.

وبالطبع كل هذه الأمور لم تكن تناقَش ولا تُكتب في التقرير السنوي، لكنها تؤثر على تقييمه العام بشكل غير مباشر! لذلك لم يكن يقرأ إلا جريدة الأهرام خوفًا من أن يُتهم بأنه يحمل فكرًا أو يميل إلى توجُّه أيًا كان.

وبرغم أنه لم يفتح كتابًا في حياته إلا أنه لم يرفض عشقي للقراءة، أو يعترض على طريقتي في إنفاق ميراثي عن أبي رحمه الله.

وعرفت أن جدي كان في شبابه فتيًا، متوسط الطول معتدل القوام، تلتهم عيناه الرماديتان نصف وجهه، وينسدل شعره الناعم القصير على جبهته بشكل تلقائي، يفيض حيوية وفحولة. حكى لي أبي حين كنت لم أزل طفلا.. ورأيت الصور القديمة الباهتة المصفرة، حين مات أبي ولم يعد هناك من يهتم بمبادلتي الحديث. وحين كنت أقارن بين مظهر هذا الكهل الأشيب الجاد، وما بلغ وعيي من أخبار الماضي حوله، وحول ما كان من أمره؛ لم أكن لأجد رابطًا سوى بقايا الرماد الذي لم تذره السنون بعد عن عينيه الكليلتين، فكَمُن على استحياء خلف زجاج النظارة السميك. ذات مرة قال لي جدي إنني أشبهه تمامًا حين كان في مثل عمري، غير أنه حينها لم يكن يضع النظَّارة الطبية.

لم تكن شقتنا الصغيرة القديمة، في ذلك الشارع الفرعي بحي المعمورة "البلد"، تشي بما كان يمكننا أن نكونه إن أردنا، وبرغم نشأتي بها وقضاء كل ما مضى من حياتي بين جدرانها، إلا أنها لم تكن تمثِّل لي قيمة ما على الصعيد المعنوي. لكنها – ككل شيء في حياة جدّي – كانت من أساسيات الحياة التي لا تستقيم الأمور باستبدالها والاستغناء عنها، لذلك حين رجعتُ من الجامعة عصر ذلك اليوم، لأفاجأ بكل قاطني البيت تقريبًا بداخل صالة شقتنا مفتوحة الباب، وفي مركزهم تمدد جثمان جدي بمنامته الكستور المقلمة دون حياء، وقد بلغ به النقم حد أن قرر ألا يتحرك مجددًا

ولا يتنفس أو ينطق.. حينها لم يكن من الغريب أن أول ما جال بذهني وقتها هو أن أجد مشتريًا لهذه الشقة بأقصى سرعة!

قضيت الشهور الأخيرة من دراستي الجامعية وحيدًا، بين تلك الجدران الكئيبة الموحشة، ولكن جيراننا – والحق يقال – لم يتخلوا عني، فقد تولوا الأمر بالكامل حين مات جدي، ورفضوا بشكل بات تقاضي جنيه واحد مما أنفقوا. لم أبك ولم أفعل ما انتظروا مني أن أفعله، لكنني عجزت عن النطق، وكنت أجيب المعزين بهزّات من رأسي بلا معنى. وأدركتُ فجأة أنني صرت الأخير في هذه العائلة، إن لم أتزوج سريعًا وآت بولد إلى الدنيا قبل رحيلي، فلن يذكر أحد أبدًا اسم (القاضي) بخير أو شر.. أدركت هذا بالفعل لكنه لم يمثل لي خطورة ملموسة، بل بدا وكأنه نهاية حتمية لرحلة طويلة من الغياب لم تتوقف منذ ابتدأتْ، وقد حق لها الوصول إلى نقطة منتهى في القريب.

تطوَّعَت الخالة (أمّ نادي) ساكنة الشقة المقابلة بإعداد طعامي، والإشراف على نظافة الشقة بشكل شبه يومي، حيث كنت أترك لها المفتاح فوق العدَّاد، لدى نزولي في الصباح، وأعود من الجامعة لأجدها قد وضعَتْ طعامي فوق المائدة وغطته بورقة جريدة. وكانت تطلب مني أن أشتري اللحم والخضر بنفسي إن أردت، كي لا أعيب على ما تشتريه، لكنني كنت أترك لها مصروفًا أسبوعيًا وأدعها تفعل ما تراه صوابًا، فقط البُن والشطّة كنت أبتاعهما بنفسي، لأنني لم أكن على استعداد للتجريب.

لم أحاول الاتصال بأمي في لندن.. فقد كانت أبعد ما تكون عني منذ أن نالت الطلاق، وسافرت تاركة إياي لأبي وجدّي دون أن تفكر مرتين. لم تتصل بي يوم مات أبي ولا أعلم إن كان بلغها الخبر أم لا، لم أرها ولم أتلق منها اتصالًا واحدًا منذ رحلَتْ. لست ناقمًا عليها ولا أكرهها، والسبب هو أنني ببساطة لا أتذكر ملامحها..

قررتُ بعد حصولي على ليسانس الآداب أن أنتقل إلى القاهرة، طاويًا صفحتي القديمة، مؤجلًا حلم الماجستير إلى أن تستقر قدمي في عمل مناسب، وكان العمل الوحيد الذي يمكنني اعتباره مناسبًا هو الالتحاق بصحيفة جيدة التوزيع، والفوز بوظيفة محرر، كخطوة أولى في طريق رحلتي العمليّة التي رسمتها منذ قديم الأزل.

*****

بعض الأيام – برغم بداياتها التقليدية، وتفاصيلها الاعتيادية حد الإملال أحيانًا – تكون مختلفة. في كل يوم نسلك طرقًا ونصادف أناسًا ونتخذ قرارات، ولكن كم منها يظل عاديًا؛ يقودنا إلى المزيد من الاعتيادية، وكم يتضح لنا فيما بعد أنه كان مؤثرًا على مسار حياتنا بشكل غير متوقَّع؟

يوم معتاد من أيام الشقاء، بدأ بالاستيقاظ على صوت منبه شريكي في الحجرة، موقظًا إياي قبل موعدي بساعتين كاملتين كالعادة.

مبيت حقير وفَّرته لنا الجريدة مأجورة غير مشكورة، يقع على مسافة معقولة من مقرها، تقتطع في مقابله من راتبنا الهزيل ما يزيد عن النصف. كان بإمكاني بالطبع الحصول على مكان أفضل في حي أقل ازدحامًا، لا

يصعد صوت باعته الجوّالين طيلة الليل والنهار إلى الطابق الرابع، ولا يفتح المرء عينيه ويغمضهما على معارك الجارات، وصياح الطيور القادم من فوق سطوح البيوت، وسباب الأطفال الأشنع من بؤس حالهم وحال آبائهم.. حي تختلف شوارعه عن حارات الشرابية بالتأكيد. لكنني قبلت ذلك وتحملته عن طيب خاطر، بل وبشغف عظيم، في سبيل رحلة انسرابي بداخل كل شق، وتحت كل حجر، في قلب العاصمة العجوز، كآلية بنائية لأصالة الروائي المُزمع تحريره من بين مسام جلدي في القريب.

اعتدتُ المشوار اليومي إلى مقر الجرنال الكائن أعلى بناية متهالكة بالعباسية، وارتحت لقطعه مرتين يوميًا على قدمي، مارًا بكل ما تمنيت أن أراه وأسمعه، واستعذت من أن يقع معي البعض منه.

استيقظتُ قبل زميلي بالطبع وأيقظته بشق الأنفس، ثم عجزت عن مواصلة النوم برغم عدم حصولي على حصّتي الكافية. كان يعمل في إدارة التوزيع، لذا كان يتعيَّن عليه أن يتواجد على مكتبه في تمام السادسة، كي يستطيع زميله المناوب الانصراف، حالِمًا بالهجرة إلى عالم أفضل، بين ضفتي ذات الفراش الذي كان يحتله هو منذ دقائق.

صنعت قهوتي بعينين مغلقتين، واستمتعتُ بدقائقي النادرة وحيدًا في السكن، أو بصحبة مذياعي السانيو العتيق، الذي لا يلتقط سوى موجات البرنامج العام، وحاسوبي المحمول العزيز الذي وردني خصيصًا من الولايات المتحدة، حين لم يكن هذا متاحًا هنا بالكثافة التي نعرفها اليوم.

حين وصلتُ، كان رئيس القسم بنفسه على مكتبي، ينتظر وصولي، ويضع أمامه ملفًا غامضًا غير معنوَن؛ استنتجت من خلال التعبير المرتسم على ملامحه أنه نسي أن يكتب فوقه بقلم فلوماستر أحمر عريض: (مصيبة اليوم)!

كم أنت متجدد ميال إلى الابتكار يا صديقي، فقط فيما يخص المشكلات بكل أسف!

قضيت النهار في محاولات لاسترضائه، وإقناعه بأن الأمور رهن السيطرة، وهكذا لم أجد الفرصة كي أكتب كلمة.

منذ أيام أيضًا لم أخط حرفًا في روايتي، برغم حماسي الدائم لها، وشعوري بأنها تستحق جرعة أكبر من الاهتمام، وبرغم الدفع المستمر الذي أتلقاه يوميًا من زميلتي في صفحة الأدب، بعد أن طالعَتْ من مسوَّدتها الأولى بضع صفحات. لكن ماكينة العمل التي لا ترحم، لم تترك لي المساحة الكافية للتنفس فضلًا عن الإبداع.

خرجتُ بعد أذان العشاء قاصدًا السكن كالمحكوم عليه بالسجن المؤبد. كم كنت أتوق إلى جلسة صافية على أي مقهى قريب، بصحبة زميل أو جار أو حتى عابر سبيل. ما أشبه حياتي بحياة كوازيمودو، بطل رواية أحدب نوتردام. أعلم أنه من المفترض أن أكون قد اعتدت حياة الوحدة منذ زمن، ولكن شتان بين ما يُنتظر منا وما يسعنا تقديمه بالفعل.

ثم كيف أستمر في الحياة بينما أكبر تواصل بشري مسموح لي بممارسته، هو إنصاتي الليلي إلى صوت تقلّب شريك حجرتي، ومحاولة النوم على خلفية من أصداء نغمات جيوبه الأنفية؟!

ولأنه لم يكن لي أصدقاء حتى الآن، فقد قررت مضطرًا الجلوس بمفردي في ذلك المقهى الصاخب، حتى تعتريني الرغبة في النعاس، فلا أصعد إلى *الجُحر* إلا لكي اختفي عن الوجود.

ربما كان هذا هو أفضل قرار اتخذته منذ أن نزحتُ إلى القاهرة، وربما كان أكثر قراراتي جنونًا خلال حياتي بأكملها.. ولكن لا يسعني إنكار الفارق الذي طرأ على شكل حياتي من بعد هذه الليلة.

*****

زيزي، هكذا أخبرتني عن اسمها وهي تحاول أن تتزن واقفة.

تأملتها جيدًا في دهشة، وأنا أسندها بكفي خشية أن تقع، وأمعنتُ النظر إلى بدنها النحيل نسبيًا، وإلى ملامحها الهادئة التي تشي بأصل طيب. كانت ملابسها المحتشمة لا تنم عن مهنتها، لكن رائحة الكحول الخانقة التي فاحت من ملابسها وفيها وشعرها، كان لها رأي آخر.

"خذني معك.. لديك بيت، ألستَ كذلك؟!"

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة صباحًا، ولم أكن على قدر من الوعي يفوق ما كانت عليه هي. لا أعرف ما الذي جعلني أمر من هنا، مقررًا سلوك

الطريق الأطول من القهوة إلى السكن. حين استوقفَتني، تصورتُ أنها بحاجة للسؤال عن عنوان ما، أو لطلب المساعدة، ولكن ليس في هذا الصدد!

سألتها أين تسكن، وإن كانت تحب أن أقودها إلى بيتها، فقالت بغضب متآكل الكلمات، إنها تركت كل عالمها من أجلي، فكيف أبخل عليها بمأوى؟!

استنتجتُ أنها واقعة تحت تأثير الخمر، وربما ساقت إليّ مصيبة، فآثرت الابتعاد عنها بهدوء خشية أن تتسبب لي في مشكلة ما، ولكن لم أكد أتجاوزها بخطوات قليلة حتى بلغ مسامعي صوت النشيج، كانت قد جلستْ فوق الرصيف، وغطت وجهها بكفيها، وانخرطت في وصلة من البكاء الحار المفاجئ. في ساعة كهذه لا يكون هذا الشارِع مزدحمًا، لكن الرجلين اللذين مرا مصادفة في هذا الوقت بدَءا في الاقتراب منها بحذر وريبة، وظل أحدهما يرمقني متحفزًا بطرف عينه. ها قد وقعت الفضيحة والحمد لله! اضطُرِرت إلى العودة إليها قبل أن يسوء الوضع أكثر، فقد كنت حسبما استشعرتُ مهددًا بالضرب أو ما هو أسوأ، وبالطبع قبل أن يُسمح لي بالتفوّه بكلمة!

سألها أضخمهما جثة عما فعل بها هذا الشاب، فواصلَتْ البكاء للحظات، وأنا واقف مستسلمًا لمصيري الذي تعلق بلسان مومس أذهب الخمر وعيها..

"وانت مالك ومالنا يا عم انت.. الله؟!"

تغيّر وجه الرجل، وتسمَّر للحظات وكأنه يفكر في قتلها، لكنه بسط كفه بالنهاية، واستدار دون أن ينظر إليّ أو ينبس بحرف، ومن خلفه تحرك الآخر منصرفا بدوره، وهو يتمتم بسباب خافت لم أتبينه.. قلت غاضبًا:

"مبسوطة دلوقت؟ عاجبك الفضايح دي؟ ما تروحي تسكري في بيتك، أو في أي مكان بعيد عنّي.."

"استنى!"

توقفتُ دون أن أستدير، فقالت بصوت متهدج من أثر البكاء:

"أنا آسفة على اللي حصل دا، والله ما كنت أعرف إنها خمرة لما شربت.. تسمح توصلني؟!"

اتسعتْ عيناي دهشة وذهولًا، وأرتج عليّ، فعجزت عن إبداء أي رد فعل. قالت بلهجة تأكيدية:

"أوعدك مش هاعمل مشاكل.. أنا مش شايفة كويس، وبجد مش عارفة إيه اللي جابني هنا.. والله العظيم هامشي محترمة!"

تأملتُ وجهها المغسول بدموعها، وأنفها الذي صار أكثر احمرارًا الآن فعل الكحول والبرد والبكاء.

كانت ترتجف في جلستها اليائسة ولا تنظر نحوي، فأخذتني بها شفقة مفاجئة، حركَتْ الإنسان الذي ارتديتُ ثيابه وانتحلتُ اسمه، فتحركتُ نحوها ببطء ومددت إليها يدي.. قلت بهدوء:

"طب تعالي هاوصّلك.. عايزة فلوس؟ تاكلي؟"

التقطتْ كفي وهي تنهض هازة رأسها نفيًا، ربتّ كتفها كي تتوقف عن البكاء..

"خلاص بقى حقك عليا.. ساكنة فين؟"

علمت أنها تسكن في (بانسيون) في شارع طلعت حرب، تملكه امرأة يونانية طيبة لا تُكثر من الأسئلة. أصرّتْ على عدم ركوب تاكسي لأنها تركت نقودها بالبيت، وفضّلَت المشي كي تستفيق من غيبوبتها أثناء الرحلة. ولكن حين أخبرتها بأننا في العباسية، أطرقت واستسلمت لرأيي. لم تتفوه طيلة الطريق بكلمة، إلا في حدود الضرورة القصوى..

"هو ده طلعت حرب"

"أقف عند فلفلة.."

"فلفة فات.. استني لما أدور من عند الميدان بقى"

"خلاص مش مهم، هانزل هنا!"

بعد أن نزلنا من السيارة سألتها إن كانت تسكن في هذه البناية، فلم تُجب، واستمرَّتْ في المسير بخطوات هادئة وكأنها تتمشّى، لا ترفض وجودي لكنها لا تحب الفضول، أو ربما لم تكن في مزاج رائق يسمح بالحديث، برغم استعادتها لوعيها نسبيًا. وفكرتُ أنها غالبًا تكذب، إما أنها ليست مرّتها الأولى، وإما أن غيابها لم يكن بسبب الخمر فقط، لكنني لم أحاول أن أتحرى أكثر.

سألتْني كم أخذ مني السائق وأصرّت أن أكتب لها عنوان الجريدة على ظهر بطاقة مصفف شعر كانت تحملها في حقيبة يدها.

هبّتْ نسمة قوية مباغتة من جهتها، أطارت شعرها الذي لم يتوان عن لطم جانب وجهي بخصلة منه، فأعادت لملمته وقد احمرَّت وجنتاها. طاوعتها في الثانية، وأخبرتها أن الأولى لن تعرفها إلا إن اهتمّت وأتت بالفعل.

لا أعرف لماذا تصرفتُ بهذه الطريقة، فبرغم تعدد واختلاف ما اعتراني حيالها من مشاعر، منذ لحظة أن وقعَت عليها عيني وحتى الآن، ما بين دهشة وصدمة ثم خجل وغضب تبعه ندم وانتهى بشفقة، إلا أن الرغبة فيها على الصعيد *الفيزيائي* لم تداعب غرائز ذلك الراهب الصوّام الجالس فوق كتفي يؤرجح ساقيه في تململ..هل أردت رؤيتها مرة أخرى حقًا؟ الحقيقة أن الإجابة هي نعم، ولا أفهم – ولست مطالبًا بالتفسير – كيف استحالت الشفقة إلى ألفة أقرب لتآلف الأصدقاء. سألتني فرويت لها عني القليل، ولم أسألها ولم ترو الكثير. تبسّمَت في مودة حقيقية وتوقفت مستديرة نحوي تضم سترتها حول جسدها اتقاء للهواء الذي بدأ يشتد، فعرفت أن هذه هي محطتي..

"الوقت اتأخر قوي، لولايا كان زمانك نايم بقى لك كام ساعة.."

"لازم الواحد يغيّر نظام حياته من وقت للتاني، وإلا ممكن يتجنن.. يعني أنا مثلا مش رايح الجرنال بكرة الصبح، عشان مش هانام قبل ما النهار يطلع"

"آه، عشان بكرة الصبح يطلع قرار بفصلك من الجرنال، تقوم خطيبتك ترمي لك الدبلة وتتجوّز رئيس التحرير، طبعا انت زي الباشا هاتروح تشتغل سواق تاكسي وتسرح على باب الله. وفي ليلة ما طلعتلهاش شمس وانت سايق في شارع ضلمة، تلاقي ربنا بعت لك اتنين ستات مش مع بعض، بيشاوروا لك في نفس الوقت.. طبعا انت هاتستغرب عشان من الصبح ما دخلش جيبك ربع جنيه، وتدعي ربنا إن طريقهم يكون واحد.. ولما تقرّب من المزّتين دول تلاقيهم مين؟ أنا وخطيبتك! وطبعا هاتسيبنا احنا الاتنين وتفتح ع الرابع، وتروح لابس في عمود نور ولا في شجرة وش.. طب وعلى إيه يا عم دا كله، احنا عايزينك!"

لم أستطع مغالبة بسمتي، وسألتها عن مصدر ثقتها في هذه المعلومات، فأخبرتني أن القانون يسمح لها بإخفاء المصادر.

ضحكتُ، فقالت:

"صدقني، أنا متأكدة.. مش من أخلاقك تدوسنا يعني! روح نام لك ساعتين يا عم وبلاش تشيّلنا ذنبك.."

"لا اطمني، أنا بكرة أجازة أصلا!"

"طب قل لي، هاتكتب حكاية الليلة دي في الجرنال؟"

"ودا يفرق معاكي؟"

"آه طبعا يفرق.. بص، لو كتبت قول إن اسمي زيزي، ما تكتبش اسمي الحقيقي.. استنى كدا لما أشوف لك في شنطتي صورة، تنفع تنزل مع القصة!"

برغم كل ما يحيط بنا من هموم وأرق، وتوتر ناتج عن لمسات واحتكاكات عفوية سبّبها اختلال خطواتنا المرتعدة، استطعنا أن نقتنص ضحكة فائقة الصفاء، حتى دمعت منا الأعين واهتزت الخطوات أكثر، واستنتجتُ أنها فرصة نادرة لكلانا على السواء. قلت لها صادقًا:

"قبل ما أمشي لازم أقول لك شكرًا على الفرصة دي، أنا بجد كان نفسي في حد أرغي معاه شوية صغيرين بس"

"شيء جميل إنك تتمشّى في شوارع وسط البلد جنب بنت حلوة. أنا عارفة طبعا ومقدرة إحساسك!"

"أنا كنت بتكلم جد، يالاّ خلي بالك من نفسك، وما تتشاقيش.."

حين استدرت مفارقًا إياها بادلتني الابتسام ولوّحت لي مودعة دون كلمات. لم أعرف إن كنت سأراها مجددًا أم لا، ولم أندهش من اهتمامي بإجابة السؤال.. كانت الفكرة غريبة أن أقترب من امرأة إلى هذا الحد، أنا الذي لم أحظ بقُبلتي الأولى بعد وأنا في هذا العمر. لكنني عرفت الإجابة حين مر الغد وغده وغده ولم تأت. إلا أنني في اليوم الرابع اكتشفت أنها كانت إجابة خاطئة.

*****

منذ سنوات لم أقبل دعوة على فنجان قهوة، ليس لأنني لا أحبها، ولكن لأنها لم تأت أصلا. لذلك حين تلقيت منها ذلك العرض شديد الإغراء قبلته دون تردد، خاصة وأنني قد انتهيت من عملي بالفعل، قبل أن يطرق باب مكتبي عم عبد اللطيف الساعي، ليعلن عن وصول *قريبة* لي تنتظرني بالخارج.

وجدتها أكثر نضرة في ضوء النهار، الذي انعكس على ثوبها الأزرق الفاتح، وشعرها المنسدل في بساطة، فبدت كأنها آتية من أحد أفلام الثمانينات التي أحبها. كانت تبتسم في انطلاق وتؤرجح حقيبة يدها كطفلة بصحبة والدها خرجت لتنتقي ثوبًا للعيد.

طلبَتْ أن نشرب القهوة في البانسيون حيث تسكن، لأن السيدة صاحبة المكان أرادت التعرف بي، وكنت قد أخبرتُ زيزي ببعض الخطوط العريضة عن نظام حياتي ومكان إقامتي، فلابد أنها قد أخبَرت صديقتها اليونانية بدورها.

وجدتها فرصة طيبة للانخراط أكثر في مجتمع ثري، يخص بالضرورة أناسًا أثرياء. لدي أفكاري الخاصة عن سكّان الفنادق الصغيرة، أولئك الذين لا بيت لهم ولا وطن ولا تاريخ، لكنهم يملكون عالمًا كاملًا خلف أزرار قمصانهم المغلقة بعناية على صدور لا تنفتح إلا بكلمة سر. وهي أفكار كوّنتها من خلال مشاهداتي السينمائية وقراءاتي المتعددة، وكان ميزان المنطق بداخلي غالبًا ما يرجّح كفة ما ركنتُ إليه منها.

obeikan.com

كنت أعتقد أن كل شخص من هؤلاء يحمل بداخله صندوقًا مزينًا بأقفال قديمة ثقيلة، أَلقِيتْ مفاتيحها في الصحاري وقيعان المحيطات منذ زمن سحيق. وكنت بحكم مهنتي أحمل معي من الأدوات ما يلزم لكسر تلك الأقفال بكفاءة واقتدار، منافسًا أعتى الهجامين!

حتى وإن استعصت عليَّ بعض الأقفال أحيانًا، فإن قوة (الدافع) بداخلي كانت تمنحني القدرة على توصيل النقاط، واستخلاص صورة تبدو شبيهة بما يحدث في هذا العالم المذهل.

سارت إلى جواري تتواثب في حيوية، لا تكف عن الابتسام ولا الحديث المتواصل بلا معنى، وكنت أبتسم هازًا رأسي مع مقاطع كلماتها دون انتباه حقيقي، لكن بهجتي بظهورها – حيث كففتُ عن الاعتقاد في إمكانية حدوث ذلك – كانت حقيقية.

التقطَتْ كفّي بين أصابعها بشكل تلقائي بينما نعبر الطريق، وروَت الكثير والكثير عن لا شيء، وكأنها بصحبة صديق قديم، واستشعرتُ من طريقتها في قطع العبارات وافتتاح غيرها، كم هي حزينة ولكن لا تحب أن يبدو ذلك لي.

في شارعها، بالذات أسفل البناية حيث تسكن، لاحظتُ كمّ الأعين التي تعلّقتْ بنا، لكنني لم أبدُ كمن لاحَظ كي لا أضطرها للكذب.

ولأن المصعد كان معطلًا كما هو متوقع، صعدنا في الدرج الذي ظننته لن ينتهي، حتى استقبلنا باب مغلق كسائر الأبواب لا تعتليه لافتة، ولم أعرف أنه هو إلا عندما دقته بقبضتها:

"هي لا تحب أن يعلم الناس أنه *أوتيل*.. فهي تعتبرنا أسرتها، ولا غرباء بيننا."

للحظة، جال بخاطري إنني مقبل على وكر لممارسة البغاء، تديره عجوز متصابية، ويقدم فيه القهوة للضيوف شاب رقيع، يرتدي جلبابًا أبيض، ولا ينفك يردد في ميوعة: (حاضر يا أبلتي)!! وربما يتم تداول المخدرات علنًا بالداخل.

وفكرتُ كيف أتصرف إذا قامت الشرطة بمداهمة البيت، وحملوني في ملاءة برغم عدم نيتي خلع ملابسي؟! ثم هززت رأسي شاعرًا بالحُمق، لاعنًا حصيلتي السينمائية من فترة الثمانينات، حين فتحتْ لنا الباب مدام ماريا ورأيتها للمرة الأولى.

*****

عدة سنوات مرت بعد هذا اليوم، حدثَت خلالها العديد من الأشياء معظمها جيد، والقليل السيء منها لم يكن سيئًا بالقدر الكافي. ربما لأنها كانت السنوات الأهم في حياتي.

ترقيت في مهنتي، ثم انتقلتُ إلى جريدة أخرى أفضل انتشارًا، أستطيع أن آكل وأسدد فواتيري مما تدفعه لي. أنهيتُ روايتي ونشرتها وتبعتها بأخرى ثم بدأتُ في الإعداد للثالثة. أزعم أنني صرت ما تمنيته طويلًا خلال تلك الفترة، برغم تنازلي عن حلم الدراسات العليا لضيق الوقت. انتقلتُ إلى الإسكندرية لبعض الوقت، وأعدتُ فتح شقتي القديمة التي هجرتها لفترة، ثم اتخذتها محطة – أو لنقل نقطة ارتكاز – ضمن تنقّلاتي

المستمرة. أشياء كثيرة تغيرَت منذ دخلت إلى هذا المكان، ولكن من ضمن الأشياء القليلة التي ظلَّت على حالها، أنني لم أكف عن العودة إليه كل حين.

كانت الحياة بالداخل أكثر دفئًا مما ظننت، وأكثر ثراء مما حلمت. قابلتُ العديد ممن اعتادوا الإقامة هنا وتحدثنا كثيرًا. استطعت إيجاد مفاتيح بعض الأقفال، وتمكنتُ من اختراق بعضها بنعومة، واضطررتُ إلى كسر البعض الآخر، لكن البعض الذي ظل عصيًا على الاختراق كان ينحصر في صندوقَي شخصين: زيزي، تلك التي لم أعرف عنها سوى أن لديها ماض لا تحب الخوض فيه، ولديها عمل لا تجرؤ على مصارحتي بطبيعته، على الرغم من ثقتي بأنها تعلم أنني أعرفه.. وذلك الفتى الأسمر البائس، طويل القامة، الذي ينام في فراش مجاور لي حين أكون هنا، ويخرج قدميه الضخمتين من بين أعمدة حاجز الفراش.

يدعى حامد، ولا أظن أحدًا يعرف عنه أكثر مما أعرفه، يعمل خراطًا في ورشة ما بالسبتية، ويراقب الجميع بصمت، ولا تكاد أطول جملة له أن تجاوز حد الثلاث كلمات.

للحظات كان يبدو أفضل حالًا، فيبتسم أو يتبادل الكلمات مع زيزي أو ماريا. وربما كان أكبر نشاط اجتماعي رأيته يمارسه هنا، هو الخروج أحيانًا مع زيزي حين تريد أن تشتري بعض الأشياء، فقد كانت تفضِّل صحبته ولم يكن يمانع، أو حين يأتي بالمجلات المصوّرة الجديدة للصبي كمال، على سبيل الهدية كل حين وآخر.

طلب مني ذات مرة أن أعلّمه القراءة، فخجلت من مصارحته بأن مهنتي تختلف عما يتصور هو، وحاولت جعله يكتب اسمه كما كتبته له، جرَّب مرات ولم يفعل. حاولتُ كذلك التحدث معه عن بيته وعائلته وبلدته، فكان يتحول إلى سمكة في الحال. أستطيع تمييز الغرباء الوحيدين حين أراهم، وقد كان الفتى حامد على رأسهم.

نعم، كان صموتًا، غامضًا.. كان حزينًا، كئيبًا، غريب الأطوار..لكنه كان أضعف وأفقر وأقل ذكاء من أن يكون قاتلًا. أعرف أن كلامي انطباعي أكثر من اللازم، لكن هذا هو ما أراه وأؤمن به.. حتى إن كان لديك أي دليل على عكس ذلك.

Obeikan.com

obeikan.com

حامد

ربما أخطأتُ في اختيار بداية حكايتي؟ أعلم أنك تعذُر ارتباكي، وتقدِّر حالتي الاستثنائية. إن وجدتَ نفسك بحاجة إلى رواية حياتك كلها الآن ولآخر مرة، فلن تبدأ من حيث وجب البدء من المحاولة الأولى. هل يكتب القلم جيدًا؟ ألست بحاجة إلى استراحة قصيرة قبل أن نواصل؟ جيد، فلا أعرف كم بقي لي قبل النهاية، وأحب أن نستغل كل لحظة باقية، لا نعرف إن كانت الأخيرة أم لا.

أذكر جيدًا ذلك المشهد وكأنه كان بالأمس. أذكره ولا أستطيع التخلص من أثره المؤلم، المختوم على روحي كصفعة خماسية دامية. كنت أحيا مع أمي وحدنا، بعد أن مات أبي حين كنت لم أزل رضيعًا، ثم التحق أخي الأكبر بالتجنيد، وذهب فلم يعد. في ذلك البيت القديم الواقع في (الحِوز)، بحي شبرا البلد. شقة كبيرة شبه متهدمة تحتل الطابق الأرضي كانت هي مأوانا، تكاد تقارب مستوى البدروم، نظرًا لمجهودات البلدية المتوالية في رفع مستوى الشارع من الناحية الجيولوجية فقط! طبقات

obeikan.com

متراكمة من الإسفلت علت بعضها بعضًا على مر العقود منذ بُني البيت وما يجاوره من بيوت، فتعيَّنَ على الداخل إلينا أن يهبط بقدميه أربع درجات، محاذرًا أن يطأ ماء آسنًا أو يدهس رضيعًا يحبو على التراب في نصف ملابسه العلوي. جدران تغيَّر لونها بفعل الرطوبة، وتساقَط الجير السماوي الكالح في عدة مواضع متيحًا النظر إلى الجدران الإسمنتية السوداء، التي هددتها الشقوق الطوليّة وزحْف المياه، بالانهيار، لكنه طالما كان تلويحًا لا نية في تطبيقه على الأقل حتى الآن.

مدخل البيت يطل مباشرة على شارع السوق، ولم يكن هذا – برغم الحركة المستمرة، والزحام، والضوضاء، والفوضى العارمة المستديمة – يشكِّل لنا أزمة، والسبب أنني وأمي كنا نقضي في هذا الشارع أكثر مما نقضيه بالداخل.

كنت قد اعتدتُ استيقاظها مع انطلاق أذان الفجر، تضع الجلباب الأسود فوق بدنها في ظلام الحجرة، خشية أن توقظني، ولكني أكون قد استيقظت بالفعل مع حركتها حين تنهض من الفراش، حيث كانت ترقد إلى جواري. في تلك الأيام كنت لم أزل في الخامسة أو السادسة، لا أذكر تحديدًا لكنني لم أكن قد بلغت سن المدرسة بعد، وكنا ننام سويًا في فراش واحد.

اعتدت تأمُّل نظراتها البائسة الصموت إلى الفراغ، لا تبتسم ولا تقطب أو تبدي انفعالًا، وكأنها عروس خشبية تحركها خيوط تمتد إلى أعلى، حتى تخترق سقف البيت المرتفع، ثم تمتد أكثر وتختفي بين السُحب العالية..

Obeikan.com

ذابلة كزهرة قطفها طفل عابث، ثم ألقاها بعرض الطريق دون أن يحفل حتى بتذوُّق شذاها، وكأنه فعلها شاردًا أو دونما إرادة منه. فارعة القامة نحيلة للغاية كانت، سمراء الوجه، لا تعدم بقايا حُسن شبحي يلوح في قسماتها أحيانًا مع حركات الضوء والظلال، يشبه حُسنها بقايا الأطعمة التي كنا نتلقّاها من موائد ساكني الدور العلوي، نراها ونأكلها ونعرف بعض أسمائها، ولكن ليس كما يفعل الآخرون.

تضع فوق رأسها الشال الأسود وتُلحف به عنقها الطويل، ثم تجرجِر قدميها إلى الباب. بالخارج أمام الباب مباشرة ترقد عدة أقفاص خشبية فارغة يغطيها الخيش المبتل، الذي اختلطت فوق أليافه الخشنة، مياه رشّتها أمي بالأمس، مع قطرات من ندى الصباح الرطيب.

لا تفعل شيئًا سوى الجلوس في مواجهة البيت، ظهرها للجدار المقابل، تهش الذباب بعصا قصيرة تنتهي في طرف منها بشرائح قماشية ممزقة من عدة مصادر، ومن حين لآخر تقوم بنثر بعض قطرات المياه فوق عيدانها الخُضر خشية الذبول. وتظل هكذا إلى أن ينطلق أذان الظهر، فتعود إلى الداخل كي تحظى بساعة أو اثنتين من النوم، ثم تخرج من جديد لتواصِل. لم تكن تعبأ بمواعيد إعداد الطعام، وكانت تعتبر هذا ترفًا من الطراز الفاقع للمرارة. وقد اعتدنا أن نأكل حيث نجلس ومما يوجد حولنا، فنحن في سوق على أي حال.

بجانبنا مباشرة، اعتادت الست كريمة جارتنا أن تجلس خلف طبقها البلاستيكي الكبير الممتلئ بالمكرونة المسلوقة، وبجوارها على الجانب

الآخر وضعت مَوقِدًا صغيرًا يعمل بالكيروسين، مُوقَدٌ باستمرار تحت آنية تحتوي على صلصة الطماطم، التي يأتي الناس من المظلات وآخر كوبري عرابي خصيصًا من أجلها. كانت تلك المرأة – بلسانها الذي يفوقها طولا، وصوتها المرتفع، حتى أثناء رواياتها ونكاتها الخادشة للحياء – هي كل ما تعرف أمي من صنوف التواصل الاجتماعي بالعالم.

هكذا كنا وعلى هذا عشنا، حتى قررَتْ أمي أن تضعني في مدرسة الشيخ خالد. وهو رجل ملتح يرتدي الجلباب ولا ينفك يجلد الصبية بعصا رفيعة من الخيزران، ناعتًا إياهم بأقذع النعوت، لمجرد إصدارهم بعض الأصوات أثناء إلقائه المحاضرة، أو لأنهم نسوا كتابة درس أو تكاسلوا عن حفظ بعض الآيات. وهي معلومات أكّدها لي أحد أبناء الست كريمة.

توسلتُ لأمي كثيرًا ألا تفعل، وبكيتُ ومرّغتُ نفسي في التراب، حتى أنني ركلتُ موقد كريمة وأسلتُ الصلصة على الأرض، وركضتُ نحو طريق السيارات عازمًا على قتل نفسي تحت عجلات الحافلة، إلا أن بعض الرجال الذين تكدسوا في السوق، حملوني حملًا وألقوا بي في حجرها إلقاءً. وأيقنتُ من أنه لا مناص مما انتوَتْ أمي أن توقعني في حبائله إلا بموت أحدنا!

*****

ظلام.. ظلام.. ظلام.. صمت.. صمت.. صمت..

obeikan.com

(إنه يقترب مني.. أكاد أشم رائحة أنفاسه، وأشعر بمخالبه الصغيرة تطبق على كاحلي.. أسحب ساقي إلى الخلف بغتة، وأصرخ حين ينتابني شعور مفاجئ بأن هناك مخلوق ما يتسلقها.. أنا خائف.. أين أنت يا أمي؟!)

*****

فجأة أسمع صوت الباب ينفتح بقوة ويصطدم بالجدار، وصوت أمي بين بكائها وشهقات استعادتها لروحها إذ تقترب مني، بينما تنزع الإيشارب عن عيني، وتضمني إليها بمنتهى القوة. وبجانبها يقف الحارس البدين كالأبله، لا يدري ما يجب أن يفعل..

وأغيب من جديد عن الدنيا...

*****

فتحتُ عيني في الفراش بعدها بيومين، كانت أمي بجانبي تبكي وتمرر يدها على جبهتي وصدري وهي تتلو الفاتحة وتكررها مئة مرة، وقد كانت لا تحفظ من القرآن سواها. فقط من حين لآخر، حين يعتريها الملل وتقرر التغيير، كانت تهمس (من شر حاسد إذا حسد).

كنت أفضل حالاً عما وجدَتني في حجرة الفئران، في جلباب نظيف، بوجه مغسول، ويبدو أنها غسلَتْ بدني بينما كنت نائمًا، وغيرَت لي ثيابي،

لكنها كانت في حالة يرثى لها حقًا، وبدت كيائسة تجلس إلى قبر في انتظار استيقاظ ساكنه.

حين فتحتُ عيني، اختطفَتني وضمتني إلى صدرها في جنون، وقد انهمرت دموعها كالسيول، لتغمر وجهي وصدري وتبلل جلبابي، ولم تكف عن ترديد عبارات الحمد والشكر لله.

جلستُ وبدأت في الكلام، وتأكدَتْ أمي من أنني لم أزل على قيد الحياة، ثم ذهبَتْ إلى المطبخ وأحضرَت طبقًا من الحساء تسبح فيه قطعتان من اللحم، وأمرتني أن آكل قبل أن أروي أي شيء. فعلتُ كما طلبتَ منّي ثم رويت لها الحكاية التي لم أعد بعدها مثلما كنت.

*****

كانوا أربعة أصدقاء لا يفترقون، وكلهم كانوا من أبناء الشيوخ المدرسين، لذا كان وضعهم استثنائيًا عن بقية خلق الله. فلم أر شخصًا ينهرهم ذات مرة، ولم يحدث أن ارتفعت خيزرانة في وجه أحدهم، برغم كونهم المصدر الأساسي للشغب في هذا المجتمع الصغير.

كانوا يتكلمون عن حجرة الفئران الكائنة بآخر الطرقة، وكيف أن كل منهم قضى بها وقتًا، وكان على القدر الكافي من الشجاعة، فلم يبك ولم يصرخ مثل بقية الأطفال. حين مررت بهم استوقفني أحدهم موضحًا لي أنها الحجرة التي عادة ما يستخدمها الشيخ في معاقبة الأطفال سيئي الخُلق حين تتكرر أفعالهم الشيطانية، وكيف أنها ممتلئة بالفئران والثعابين، مما

سوف يدفع بطفل جبان ابن أمه مثلي، إلى أن يبلل ثيابه، ويولول كالبنات منذ أول دقيقة. ضحك في سخرية واشترك معه زملاؤه في الضحك مني، على الرغم من أنني لا أعرفهم ولم أتحدث مع أحدهم مطلقًا.

كنت أعلم تمام العلم أن أدنى إساءة قد أوجهها إلى أحدهم، سوف تحمل إليّ نهايتي بلا إبطاء، أولاً هم أربعة وأنا واحد، ثانيًا مهما كان خطأهم في حقي، فلن يغفر لي الشيخ والد الطفل جريمة أن آذيت طفله أو أهنته، وهكذا سوف ينالني أقصى وأشنع العقاب من شيوخ ومدرسي المكان، تضامنًا مع الطفل المسكين ابن زميلهم المحترم، وهو ما رأيته مرات ولم أحب تجربته بنفسي. وزنت الأمر في رأسي الصغير للحظة قصيرة قبل أن أقصر الشر ملتفتًا إلى الخلف، داعيًا للولد أن يسامحه الله. ازداد ضحكهم صخبًا، وتقدم أحدهم فاقترب مني هاتفًا في ابتذال إنه كان يظنني ذكرًا مثلهم. واقترح آخر أن يجروا لي كشفًا للتأكد من أن لدي مثلما لديهم تحت سروالي.. هكذا لم يكن ثمة بد من التفاوض معهم، وقد كانت طريقتهم في قبول التفاوض صعبة إلى حد ما.

سوف ننتظر انتهاء اليوم ثم يذهبون بي إلى حجرة الفئران، ويقيدونني إلى مقعد في وسط الحجرة كي لا تكون أمامي فرصة للهرب. مع وعد بأنهم سوف يعودون مع العصر لإطلاق سراحي بعد رحيل التلاميذ، مؤكدين إنهم يستطيعون الدخول والخروج من نوافذ المكان – كاللصوص – بمنتهى البراعة.

انصعتُ لأوامرهم مرغمًا، وأنا أقنع نفسي أن فترة ساعتين ليست طويلة للغاية، وأنه لا ضير ما داموا سيكونون معي بالداخل ولو لدقائق قليلة. كنت أغمض عيني وأتمنى أن تظهر أمي من العدم، وتنقذني من هؤلاء الشياطين. بالممر المؤدي إلى الحجرة المغلقة لم يكن هناك أي شخص على الإطلاق، وشبّك لي أحدهم أصابعه كي أعتليها قافزًا إلى الداخل عبر النافذة الزجاجية، فأبَيتُ في إصرار أن أكون الأول. تحرك أحدهم يسبقني كي أطمئن، فتبعته والخوف يصيبني بالدوار ويكاد يوقعني مغشيًا عليّ.

بالنهاية ألفيت نفسي معهم بداخل فصل مغلق بقفل من الخارج، لا يحتوي إلا على مقعد وحيد مصنوع من البامبو، مترب وموضوع في أحد الأركان، وبعض الأخشاب الناتجة عن مكاتب دراسية قديمة مفتتة، قد كُوِّمتْ فوق بعضها في نهاية المكان، وتكفّلت الأتربة مع خيوط العناكب في إضفاء اللمسة الأخيرة على المشهد..

"أين إذن الفئران والثعابين والأسود؟!"

قلتها متظاهرًا بالشجاعة، ومجيلًا بصري في المكان، فأجاب أحدهم بأنها لا تخرج في النهار ولا في وجود كل هذا العدد من الناس، وأنها كامنة في شقوق خفية بالجدران، لا تفارقها إلا حين يسود الهدوء، لذلك كان اقتراحهم أن يكمّموا فمي، ويقيدوا يديّ وقدميّ في المقعد حتى لا يفتضح أمري. كان أحدهم يحمل في حقيبته أدوات التعذيب، التي تمثَّلت في مجموعة من الإيشاربات الملونة، وهي بالضرورة مسروقة من خزانة ملابس أمه أو أخته. لقد كانوا يستعدون جيدًا للأمر، لم يكن ما يحدث من قبيل

الارتجال. ولكن برغم فطنتي إلى هذه الحقيقة، وبرغم أنهم قد عصبوا عينيّ على غير ما نَص الاتفاق، دون قدرة مني على الاعتراض بفم مكمم، لم أتوقع أنهم سوف يخرجون من هنا وقد انتووا ألا يعودوا قبل صباح الغد.

*****

ظللتُ أبكي وأرتجف في حضن أمي، وهي تربِّت ظهري وتردد أن كل هذا قد انتهى. في الصباح سوف تتصل بعمي ليأتي معها إلى الشيخ خالد ناظر وصاحب المدرسة، لترى ما يمكن عمله.

كانت المرة الأولى التي عرفتُ فيها غياب الوعي والحواس والأمن بهذا الشكل، أن أحاول الصراخ فلا يخرج صوتي.. أن أحاول الحركة فأستشعر مدى عجزي وضعفي.. أن أحاول اختراق حجب الظلام، والمرور بالضوء عبر الأنسجة المطوية عدة مرات، بلا جدوى.. بلا جدوى. إن المحكوم عليه بالإعدام يقضي فترتين طويلتين إلى أبعد مدى، الأولى في انتظاره لتنفيذ الحكم، والثانية تكون بعد التنفيذ. فترتين تتخللهما لحظة واحدة تنتهي أسرع مما ابتدأتْ.. أما أنا فقد عشت عمرًا كاملًا في أثناء هذه اللحظة بالذات، وشعرت أن الزمن قد توقف بي في نقطة أخطأ اختيارها بشكل لا يمكن تعويضه.

كانت روحي بحاجة إلى إطلاق أي نداء، ولم أكن أحتمل الخرَس الإجباري الذي يقيّدني بهذا الشكل، فكأنما امتلأ جوفي بالدخان والتراب.. كنت أتمنى الموت من أجل الخروج من هنا، فأقع في غيبوبة قصيرة لأعود

بعدها إلى ما كنت عليه. تصورت أنني لبثت عامًا في هذا الوضع، لكن أمي أخبرتني بأنني ظللت ما يقرب من خمس ساعات.

*****

كانت قد أعادت تغطية عيدان الخضرة بالخيش المرطب بالماء، ودلفَتْ إلى الفراش لدى انطلاق أذان الظهر كعادتها اليومية. حلّت رباط شعرها وفكت جدائله فصار طويلا، ثم تلثمت بمنشفة مغمورة في مياه الزير، ولو لم تفعل لما استطاعت النوم في هذا القيظ. برغم أن جارتنا ساكنة الشقة العلوية – طبيبة قصر العيني الصارمة – قد حذَّرتها كثيرا من خطورة تلك الأفعال على حالتها، حتى إنها في آخر مرة رفعَتْ صوتها، وهي تكاد تضع أصابعها في عيني أمي صارخة بأنها لا تفهم كالبهائم، وأنها مصابة بالربو ولابد أن تسير على منهج العلاج بدقة وإلا غارت في داهية، برغم هذا لم تكن تتذكر أمي كلمات الطبيبة حين تريد أن تنال ساعة من النوم، ولم تكن تتذكر أصلا أن لدينا في الدور العلوي شقة تسكنها طبيبة، إلا حين تشتد حالتها لدرجة ألا تستطيع الخروج إلى الشارع.

راحت في نومة هانئة مطمئنّة، إلى أن بلغها الصراخ الرهيب الذي حمل صوتي، فأيقظها مفزوعة، آمرًا إياها بأن تحررني من محبسي في حجرة الفئران!

حين قامت كانت تدرك أن هذا لم يكن حلمًا بالتأكيد، وحين ألقت نظرة إلى السماء، عرفَتْ أنها قد تأخرَتْ في النوم أكثر من اللازم مما يعني

أنني لم أعُد من المدرسة لأوقظها. ودون أن تضيع لحظة في التفكير أو البكاء أو القلق، وضعت فوق رأسها طرحة، وانطلقت إلى المدرسة بخطى طيّارة.

طرقَتْ الباب عدة مرات قبل أن يفتح لها الباب حارس المدرسة ذو الكرش والشارب الكبيرين؛ في كلسونه القطني، والصديري ذي الواحد وعشرين زرًا، فوق فانلة صوفية. كان يتثاءب ويتأملها متسائلًا، لأنه لم يعتد زيارات في مثل هذه الأوقات، لكنها لم تمنحه الوقت لطرح أسئلة..

"ماذا يفعل ولدي بالداخل حتى الآن، ولماذا لم ينصرف مع بقية الصبية؟"

"من تقصدين يا ست؟ لقد انصرف جميع الأطفال منذ ساعات!"

دفعَت الباب بقوة وأزاحته من طريقها داخلة، وهي تقول في تماسك ظاهري:

"إن ابني محبوس في حجرة الفئران.. تعال افتح له، يكفي هذا!"

كان الحارس لحسن الحظ على علم بأن الأطفال قد اصطلحوا على تسمية ذلك الفصل المغلق في نهاية الطرقة *بحجرة الفئران*، كما أنه لا تخفى عليه ألعاب الشياطين الصغار الذين دفعوا بي إلى هناك. وهو قد توقّع بالتأكيد أن أحد الأطفال قد ذهب إلى أمي واعترف لها بجريمته، فلم

يستغرق وقتًا ليفكر. دخل إلى حجرته المجاورة للباب، وعاد بعد لحظة يحمل حلقة بها بعض المفاتيح..

"تعالي يا ست"

*****

ليال سوداء قضيتها تحت وطأة الخوف. عشت بين أنياب الكوابيس التي أستيقِظ بسببها في قلب الظلام صارخًا، لأجد أمي المسكينة جالسة بجواري في الفراش، جاهزة بكوب الماء وآيات الفاتحة، بينما يدها على مفتاح الإضاءة المثبت في الجدار بجانب حاجز الفراش.

منذ ذلك اليوم عرفت كم أحب تلك المرأة، وعرفت ما قد يكون من أواصر عجيبة بين الأم وابنها. أواصر تختلف عن كل ما يمكن أن تتوافر في أي نوعِ آخر من العلاقات الإنسانية. وعرفَتْ هي أنني كنت محقًّا حين رفضت الذهاب إلى المدرسة! بالطبع كان هذا آخر عهدي بالمكان، حتى إنها لم تذهب لتشكو التلاميذ إلى الشيخ خالد، خوفًا من أن يقابلوني في الشارعِ ذات يوم ويتحرشوا بي.

كانت أمي تتأمل صمتي وتظل على حالها من الصمت وهي تتفقَّد ملامحي باحثة عن الاختلافات الخمسة. كنت أرى دهشتها وكأنها لا تصدِّق أنني تغيرتُ، لكنني حين كنت أعود طفلها من جديد، كانت تتكلم معي. وكانت عبارتها المفضلة هي أنها لن تتركني أبتعد عنها مجدَّدًا، رددتها كثيرًا وطويلًا حتى ظننتها تعنيها حقًّا.

بعدها بأقل من شهر كان عمي يدخل بيتنا، ويأمر أمي أن تعد لي حقيبة، وتضع بها بعضًا من ملابسي، لأنه سوف يأخذني معه إلى السبتيّة. رفضتُ وبكيتُ وجرّبتُ كل الوسائل التي أعرفها، بالنهاية لم أملك إلا الانصياع لرغبتهما، برغم أنني كنت أتمزق من الداخل، ولا أتصور كيف يمكنني البقاء بعيدًا عن أمي وعن بيتي أسبوعًا كاملًا، وكيف أستطيع الحياة مع أناس لا أعرفهم، وأمارس عملًا لا أحبه لمجرد أن شخصًا بدينًا منقلب السحنة لا يكاد يرفع قارورة الخمر عن فيه يريد ذلك؟! وعرفت أنني كنت ساذجًا للغاية حين تصورت أن أسبوعًا سيكون فترة طويلة، هذا لأنني لم أر أمي بعدها لمدة ثلاثة شهور.

*****

كانت الحياة هناك شديدة السرعة، تختلف عما ألفتُ. المكان ضيّق إلى حد أنك تجد صعوبة بالغة في إيجاد موطئ لقدميك. عدد كبير من ماكينات الخراطة وعدة آلات أخرى، مقشطة وماكينة تفريز ومثقاب صغير. على كل ماكينة وقف أحد الأسطوات يمارس ما يفعله منذ الصباح حتى مغرب الشمس، ومن خلف كل واحد تجد أحد الصغار واقفًا متأهبًا ينتظر الأمر.

منظومة متكاملة تسعى كخلية النحل، تعمل بلا توقف ودون تبادل كلمات إلا في أضيق الحدود، ويدور العمل على خلفية إيقاعية من أصوات الماكينات الهادرة. كم مهول من رايش الحديد والنحاس والألومونيوم يكسو الأرض، ويتطاير في الأجواء مهددًا الجميع. الكل يعرف ما يجب عليه فعله

ومتى وكيف يفعله، ويستعد جيدًا لتلقِّي العقاب الفوري السريع عند أقل هفوة، بحسب حجم الخطأ، والكل ينخرط في الأجواء حتى النخاع، إلا أنا. مجرد طفل كبير الحجم، حتى بين بقية الأطفال الذين يفوقني عمرًا أصغرهم، بأيام قليلة.

كان أبي نجَّارًا كما روَت أمي، وكان نحيل البدن رقيق الحاشية، فكيف صار شقيقه خرّاطا، وكيف اكتسب هذا الكرش العملاق، وأدمن الكحول، وصار عَبوسا يبتعد عن طريقه صبية الورشة، ويستعيذون بالله من نداءاته الغاضبة؟! كنت لا أعرفه بحكم انقطاعه عن زيارتنا إلا فيما ندر، وبالتالي كان بالنسبة لي ليس أكثر من صاحب الورشة التي صرت أحد أفرادها، ولم يعرف معظمهم أنني قريبه إلا بعد فترة طويلة.

هناك خمسة من الفنيين معظمهم من أبناء القاهرة إلا واحدًا. اعتاد هذا المبيت بأعلى الورشة، حيث كانت هناك *صندرة* مخصصة لهذا الغرض، ومن حول فراشه الأرضي التفّتْ عدة بطاطين مطوية، مخصصة للصبيان الخمسة، وعرفت أن مكان نومي قد تحدد، بالأسفل بين الماكينات.

وكانت مهمتي تتلخّص ببساطة في كل شيء يجب عمله هنا! من تنظيف المكان وإعداد الشاي للجميع بلا استثناء إلا أنا، لأنني الوحيد الذي لم يكن يشرب الشاي. والذهاب لابتياع طعام الإفطار..

وفهمت دون مجهود كبير أن أحدًا لا يرحب بي هنا، الكبار منشغلون بأعمالهم ومكتفون كل منهم بصبيّه الذي يتبعه كظلّه، يلبي طلباته ويناوله

العدد ويساعد على إخراج العمل. والصغار يكرهونني باعتباري الجديد الذي يجب قهره منذ اليوم الأول، والمسؤول عن كل شيء هنا، من النظافة وحتى ترتيب العدة وإحضارها، ورص الأشغال التامة حتى يأتي أصحابها لاستلامها.

وأظل أتنقَّل ما بين الجميع أمنح هذا *بُنطة*، وأبحث في حوض تلك الماكينة عن مفتاح ظرف، أو بُنَط انتهى العمل بها، وألقيَتْ بإهمال، كي أعيدها إلى مكانها..

أحمل في يدي فرشاة صغيرة وعلبة فارغة من علب الطلاء، وأظل أدور على كل مخرطة، ألملم نواتج المعادن من رايش أو قطع صغيرة باقية من الأشغال.

أضع الرايش في أجولة منفصلة، واحد لكل خامة، وأضع القطع الصغيرة في صناديق الخردة الخشبية الموضوعة بالخارج، ثم أعود في المساء فأحمل الصناديق الثقيلة لأضعها واحدًا فوق الآخر بداخل الورشة، كي لا يرفعها أحدهم بينما نحن نيام، وأعود في الصباح مجددًا بعد أن أفتح المكان لأعيد وضعهم بالخارج في ملحمة أبدية لا تنتهي.

تعلمتُ مع الوقت أن أراقب. وكانت متعتي هي مشاهدة العمل منذ بدايته كي أستطيع عقد المقارنات بين شكل الخامة الأوَّليّ ونتيجة العمل.

راقبت الجميع دون أن يلاحظني أحد، واستطعت تكوين صورة عامة عن كل فني هنا. بدأت اكتشاف كيف أن لكل واحد منهم أسلوبًا خاصًا في العمل وخطوات مختلفة عمن سواه، لكن النتيجة لا بد وأن تكون واحدة

في كل الأحوال، وكما أن كل واحد من الكبار كان يتميز في شيء ما عن بقية زملائه ويتقنه أكثر منهم، كان كذلك يفتقد لبعض الأساسيات أو يعجز عن أداء بعض الأشغال، ولم يكن ثمة اعتراف رسمي بهذه الأشياء، لكن طريقة سير العمل وحدها هي من أنبأتني بهذا.

لم أكن سعيدًا هنا، ولكن لم يكن لي حيلة في الأمر، وعرفت أنه قد كتب عليّ أن أحيا هكذا إلى أن تقوم الساعة. اعتدتُ أن أحظى براحة لمدة أسبوع كل ثلاثة أشهر كما كان نظام الورشة، بالرغم من أنني أقيم في شبرا البلد، وكانت المسافة ما بين بيتي والورشة لا تجاوز النصف ساعة بحال، إلا أن عمي رأى هذا.

لكن أكثر ما كان يكدّرني هنا أنني لن أتعلم، طالما كان الصبية بعدد الفنيين. من سيسمح لي بالاقتراب، ومن سيقبل أن يمنحني معلومة؟ كانت الماكينة الوحيدة الخالية بالمكان هي مخرطة روسية عتيقة، كانت ذات يوم خضراء اللون قبل دهانها بالأزرق، وقبل أن تفسد زرقتها بقع من الزيت الملوث، وتغطيها بطبقة من الأوساخ لا لون لها. وكانت تلك الماكينة هي الوحيدة التي يُسمح لي بالاقتراب منها أكثر من غيرها، فقط لأن معدات الشاي كانت تتراص فوقها!

كنت أسمعهم يتهامسون حول *الأسطى درويش*، ذلك الرجل الصارم، الذي لا يتعامل إلا بالسب والضرب، وهو الكفيل بجعل حياة أكثر الصبية برودًا للأعصاب؛ أشبه بالجحيم. طلباته لا تنتهي، ومعظمها متناقض، ينسى باستمرار ويطلب شيئًا وهو يريد غيره وفي كل مرة أنت المخطئ لا هو،

obeikan.com

عَبوس الوجه لا ينفك يضع سيرة أمك في كل جملة مفيدة بمناسبة وبلا مناسبة، يملك وجودًا قاتمًا ثقيلًا على القلوب كأنه الدخان..

"ومن يكون الأسطى درويش هذا، عفريتًا؟!"

ضحك ممدوح – أقرب الصبية إلي قلبي – وقال:

"لا، ليس إلى هذا الحد. إنه طيب القلب للغاية، فقط في حالة ما لم تعمل تحت إمرته! هل تعلم أنه صاحب الورشة أصلًا؟"

تركت ما بيدي واستدرت نحوه مبهوتًا..

"كيف هذا، وهو لم يأت مرة واحدة منذ جئت إلى هنا؟!"

"إنه شريك بالثلث مع عمك، وثالثهما الأسطى عرفان. لكنه لا يهتم كثيرًا.. يعيش وحيدًا في بيت كبير في بلدتهم لا يخرج منه تقريبًا. حتى امرأته الأخيرة تركته وذهبتْ إلى بيت أبيها منذ عام وأكثر، حين رفض أن يطلقها! إن عرفان يرسل إليه بعض القروش كل عدة أشهر، ولو أنه ليس في حاجة إليها، لكنه ماله على أي حال.. شخص ترك الصنعة منذ عدة أعوام، لابد وأنه صار عاجزًا عن التفرقة بين الحديد والخشب!"

وهز رأسه متأسفًا على الأحوال، قبل أن ينتفض مفزوعًا حينما بلغه صياح الأسطى عبده يطلب شيئًا ما، فانصرف وتركني أواصل ما كنت أفعله في يأس.

*****

obeikan.com

استمرّت حياتي على هذا المنوال لأكثر من عامين، استطعت خلالهما الإلمام ببعض فنون الحرفة دون توجيه من أحد، بل وفي ظل ظروف إقصائية شديدة العناد.

لم أكن أنادي ذلك الوغد عمّي إلا بلقبه المحبب إليه: *يا اسطى*، ولم أكن أميل لاتساع رقعة التعامل فيما بيننا خارج حدود هذا النطاق.

كانت الأيام متشابهة إلى حد لا يوصف، تشبه في دورتها المتتالية حركة بندول ساعة عتيقة مزعجة الدقات. وكان من فضل الله أن الورشة توفّر طعامًا لنا على حسابها، وإلا فقد كان مصيري المحتوم هو الموت جوعًا، والسبب أنه لم يكن يعطيني راتبًا، وكان يرسله بالكامل إلى أمي.

لم أكن بحاجة إلى المال، فأنا لا أدخن مثلما يفعل محمود وكرم، ولا حاجة بي إلى المال إلا عندما تحين إجازاتي البعيدة. وفي أوقات الإجازة كان يمنحني جنيها وبعض أكياس الفاكهة أحملها معي إلى البيت، وفي هذه النقطة فقط أظنه كان بَشرًا..

"قل لأمك إنك أنت من اشترى هذا، فهو من راتبك.. هكذا سوف تدرك أنك قد صرت رجلًا قادرًا على الكسب الحلال."

كان عزائي الوحيد أن علمت أن المسكينة أمي لم تعد تخرج إلى الشارع، أولًا لأنها لم تعد بحاجة إلى قروش البقدونس، وثانيًا لأن حالتها الصحية لم تعد تسمح للأسف.. فرحت على أي حال، فهي منذ البداية مريضة بائسة، ولم يجدّ على الأمر إلا خلودها إلى الراحة من بعد طول شقاء. هكذا ظللتُ أتردد عليها أسبوعًا بعد مرور كل ثلاثة أشهر، أنعم

خلالها بفراش حقيقي وحنان خِلْتُ أوردة الحياة قد خَلَتْ منه تماما، وآكل مثلما يفعل الناس، ربما مثلما لا تفعل أمي حين لا أكون هنا.

هكذا كانت حياتي تتأرجح في المسافة الواصلة ما بين شبرا البلد والسبتية، وهي مسافة إن قيست على المستوى الجغرافي لن تعادل واحدًا على ألف من طولها الحقيقي لديّ.

وكان أكثر ما يتردد هنا أني لابد وأن أحمد الله على غياب الأسطى درويش، لأن أول ما سيفعله إن أتى أن يلقي بي خارج الورشة! فكنت أبتسم قائلا إنهم يبالغون، فهو لن يلتهمني على أي حال، وفي سري أدعو الله أن يسارع بدفعه إلى العودة إن كانوا صادقين.

ربما كانت الفترة سنتين بالفعل منذ أن دخلتُ هنا للمرة الأولى وحتى ذلك اليوم، أو ربما كانت أطول قليلًا.

كانت ساعة أذان العصر وقد خرج الجميع للصلاة أو الغداء، وتركوني كالعادة أنظف الماكينات وأحرس الدكان ريثما يعودون جالبين معهم نصيبي من الطعام. انتهيت من العمل بسرعة خارقة كي أحظى ببعض الدقائق أقضيها في استرخاء مستمتعا بوحدتي، وأشعلت عودًا من البخور ليغيّر جو المكان الخانق، ثم قررتُ أن أصنع كوبًا من الشاي، فقد اعتدتُ منذ شهرين أن أشربه لأكون كما يكونون، لكنني لم أستطع استساغة طعم الدخان الحارق المنبعث من سجائر الفتى كرم.

كان هذا حين فوجئت به يقف أمامي مباشرة. طويل القامة عريضًا، خفيف الشعر قصيره، عريض الفك، وقد نما شعر ذقنه الفاتح بقدرٍ ضئيل.

obeikan.com

وقف حاجبًا ضوء الشمس بقامته الطويلة المحنيّة، مضيقًا عينيه، قائلًا بصوت يشبه الزئير المكتوم:

"انت مين يابني؟ وفين الاسطى عرفان؟"

وكان هذا هو أول لقاء بيني والأسطى درويش.

obeikan.com

محمود

لم تكن زيزي هي أغرب من قابلتُ في ذلك البيت، ولن تكون مهما بلغت بها غرابة الأطوار. ذلك أنني اكتشفتُ كنزًا شديد الثراء من الصناديق المغلقة جعلتني متحيّرًا بمن أبدأ وكيف.

صناديق تولّاني الحماس لاختراقها بشتى السبل التي توافرت لي، حتى غير المشروع منها.

استغرق مني هذا بعض الوقت، وبحكم عملي – كصحفي وروائي – كان الفضول أهم دوافعي، ومراعاة العامل النفسي والاجتماعي لكل حالة، أهم أدواتي. لكنني لم أكن أحب أن أبدو كمن يلهث وراء المعرفة، ويهتم بالتفتيش في حقائب الناس المغلقة، حتى وإن كنت كذلك.

ولهذا ابتكرت عدة ألعاب كانت شديدة العون، حتى إنها أحيانًا ما كانت تجعل المعرفة تأتي إليّ في هدوء ونعومة، فتتمسّح في ساقي كقطة صغيرة يعوزها الدفء.

obeikan.com

ظللت أراقب، وأدوّن، وأسأل، وأجمع وجهات النظر المختلفة عن كل شخصية، في محاولة لصنع صورة ثلاثية الأبعاد بالحجم الطبيعي لكل فرد من أفراد عائلة ماريا، التي ذكّرتني إلى حد بعيد بأجواء *ميرامار* محفوظ.

إلا عن ذلك العنصر الخامل، فلم يمدّني أحدهم إلا بكلمات مبهمة لا تدل على شيء بعينه..

ذلك الذي لا يعرفه أحد.. السائر خلف الصفوف.. أبو الهول..

وفي رواية أخرى، شوقي الدمنهوري.

*****

أول ما عرفت عن هذا العجوز الصامت الذي لا يكلف نفسه مشقة إلقاء تحية الصباح، والذي لا ينفك يداعب مفاتيح حاسوبه المحمول في اهتمام، والمسح على شاربه الفضي من حين لآخر، أنه لم يكن من أبناء دمنهور – لا البحيرة ولا القليوبية – ولم يزر أيهما قط.. فكان هذا مؤشرًا قويًا على صعوبة اختراق هذا القفل.

علمت منه ذات صباح رائق – من بين كلماته المهتزة، التي تؤيدها حركات عصبية من كفه المبقّع المرتجف، وهو يطالع الجريدة – إنه يهتم بمتابعة حركة البورصة، وهو سبب انشغاله المستديم بالإنترنت. وتقبّلتُ المعلومة في صمت، برغم عدم إعلانه عن مهنته أو مجال عمله.

كل ما بلغني من أخباره السابقة أنه كان ينتمي إلى عائلة بالغة الثراء بالأقصر، وكان أبوه من أكبر رجال الصناعة الوطنية، قبل أن يتم القضاء

المبرم على مشروعه الاقتصادي، بقيام ثورة يوليو؛ التي جاءت بمثابة ضربة قاصمة له ولمعظم ذويه، على الرغم من أن شريكه السابق قد استطاع المرور من تحت نصل سيف التأميم سالمًا دون خدش، وصار اسم جده علامة مسجلة تُتداول حتى اليوم، للتدليل على الجودة والثقة والتميّز، فقط لأنه اختار أصدقاءه جيدًا.

وبرغم ذلك إلا إن شوقي لم ييأس. سافر إلى روما – عند أقرباء والدته – مقررا عدم العودة إلا حينما يصير أفضل مما كان يتمنّى، وحين يصبح المناخ الاقتصادي في مصر أكثر مرونة وقدرة على احتواء الجميع. قرر البدء من القاع ولم يأنف أن يصنع حلمه بيديه العاريتين، فاشتغل حمّالًا لفترة بين جزيرتي صقلية وسردينيا، وانخرط فيما بعد في العديد من الأنشطة المتباينة، والتي لا يجمع بينها إلا خاصية شديدة الأهمية: أنها تدر مالًا.

نجح في جمع ثروة صغيرة من التجارة والتهريب، قبل أن يقرر العودة إلى وطنه وحيدًا – بعد وفاة أبيه في مصر، وقرار والدته بالبقاء إلى جوار عائلتها – مع أولى بشارات التغيير والانفتاح في عهد السادات. حينها تصوَّر أن الأيام القديمة قد عادت تبتسم مجددًا، فبدأ نشاطًا صغيرًا لم يلبث أن نما وتطور وتشعّب.

انطلق بكامل طاقته على طريق الاستيراد، بعد خفض الرسوم الجمركية على الواردات إلى الصفر تقريبا، وأغرق البلاد بمنتجات غذائية من أوروبا

وأمريكا، لم يتصور أحد أنها قد تصبح من أولويات مائدته بالفرض، أو بسياسة الأمر الواقع.

وكان يفخر بشدة، بأنه من أوائل من أقنعوا ربة المنزل المصرية بالكف عن صنع العصير المنزلي لأبنائها من الفراولة المخصصة للتصدير، لأن البديل السهل الجاهز قد صار في متناول كل يد، وفي عبوات مختلفة الأحجام، كما أنه خال تمامًا من البذور السخيفة التي تعطل عملية الهضم، وتحد من الاستمتاع بالحياة، بالإضافة إلى كونه مزودًا بأنبوب بلاستيكي ماص، لتحطيم كل حدود الرفاهية!

في البداية لم يشعر بأنه يشارك في تبديل وجه مجتمعه إلى الأبد، ويساهم بقوة في تحويل هذا الشعب البسيط، المنتج، ذي الساعد الفولاذي، إلى كيان استهلاكي رخو، ينتظر ممن هو أكبر منه أن يحدد له أولوياته، ويبحث هو عن أي وسيلة تتيح له الحصول على هذه الأولويات. يدير حياته بالريموت كنترول، ولا يستطيع السيطرة على معدل نمو حجم مؤخرته المتزايد باستمرار. ولكنه مع الوقت بدأ يفطن – شوقي – إلى حقيقة بالغة السوء، إن أحلامه القديمة بإعادة إحياء مشروعات أبيه، للإنتاج الصناعي القومي، لم تكن سوى مجرد أفكار للبحث عن المجد والثروة بشكل متاح يألفه، حتى مصطلح قومي نفسه، صار يحمل رائحة قديمة محمّلة بأتربة الزمن. أما وإنه قد صار ما طمح إليه منذ البداية، وكوّن ثروته من البولوبيف والكومبوت والصلصة الأمريكية المحلاة بالسكر؛ فما الحاجة إلى أي شيء؟! إلى الزواج مثلا، وقد بلغ منتصف العقد الخامس وحيدًا..

إلى طفل يرث كل الصناديق الكرتونية التي تملأ مخازن شركاته.. إلى صديق ليس أجنبيا، وليس تاجر جملة.

ربما في هذه الأثناء، وفي ظل حالة نفسية متردية، أدت إلى الملل من الشركات، والصفقات، والهاتف ذي الأزرار، الذي لا يكف عن صنع الضوضاء.. أقول ربما كانت هذه هي اللحظة التي ظهرت فيها رجاء.

*****

قد نتصور أن ثقافة *رجل الأعمال* الذي ينشغل بالاستيراد والتصدير، ثم يتزوج بسكرتيرته الحسناء؛ هي ثقافة نابعة من مسلسلات التليفزيون.

لكن الحقيقة أنه كما استشرت موضة التشارلستون، والسايكيديليك (psychedelic) في السبعينات، وإعلانات التوعية الخاصة بالبلهارسيا في التسعينات؛ كانت الثمانينات – فيما بين هذا وذاك – بيئة شديدة الخصوبة، لنمو تلك الظاهرة السخيفة في عالم الواقع، الأشد هزلية من كل ما عُرض على القناة الأولى في السابعة من كل مساء، وما كانت الدراما التليفزيونية إلا مجرد انعكاس لهذا الواقع، وبالطبع لم يكن شوقي بك بالاستثناء.

تفاصيل لقائه الأول بها لم أعرفها إلا متأخرًا، أما في هذه الأثناء فقد كثّفت كل طاقتي الإجرامية من أجل الحصول على نظرة خاطفة إلى شاشة الحاسوب الخاصة بهذا العجوز، ما دام يأبى الحديث.

كانت مدام ماريا في هذا الوقت تقف في المطبخ من أجل إعداد الطعام. وكان كمال لم يزل يطالع مجلات الفانوس الأخضر والشيطان

obeikan.com

الجريء، التي ابتاعها حامد من أجله قبل أن يسافر إلى وحدته، والتي صارت تشغل من وقته عشرات أضعاف الوقت الذي قد يقضيه أمام كتب المدرسة. ناديت الفتى وأجلسته إلى جواري، وطلبت منه أن ألقي نظرة على مجلاته. فرح بشدة لأن أحدهم قد أبدى حماسًا حيال ما يهتم به، وكان إعلاني عن هذه الرغبة، بمثابة شعلة من النار بالنسبة لعود بخور طال صبره، وتطلع طويلا إلى الإفصاح!

انطلق يتحدث بحماس وانفعال، عن أبطاله وشخصياته المفضّلة، دون أن يلتقط أنفاسه للحظة، حتى عادت ماريا من المطبخ تحمل أطباق الأرز..

"كمال، تعال لتأخذ مني الأطباق.لا تصدع أونكل!"

تنهد الفتى في إحباط، ونهض يعتذر لي بنظرة المجبر..

"بعد إذنك.."

"سألحق بك لأساعدكم.. هل صنعت لي سلاطة يا ماري؟"

"مُش عندنا خيار.."

قالتها في نظرة آسفة، وانكمشت ملامحها البريئة كطفلة تشرع في البكاء..

"حسنًا يا صغيرتي، سوف أتذكر غدًا أن أحضر بعضا منه.. لا تحزني"

وقرصتها من وجنتها برفق، فابتسمت في إشراق..

"أنا مُش زعلان!"

"ماذا لدينا؟"

واتجهت صوب المطبخ، حين سمعت صوت الحمّام إذ يفتح، وتناهى إلى مسامعنا صوت شوقي بك يسلك حنجرته. كعادته يستيقظ متأخرًا، ويغفو مع أولى لحظات الشروق.

"أشعلتَ السيجار في الحمام مجددًا، صح؟ كم مرّة أخبرتك بأن هذا (عيب)؟!"

"ماذا تريدين أيتها العجوز؟!"

"بل أنت هو العجوز.. هه!"

عدت أحمل طبقا من الحساء، وأبتسم لبوادر معركة جديدة أعلم جيدًا أنها انتهت قبل أن تبدأ. سوف تدخل ماريا إلى الحمام، وتظل تصطنع السعال بصوت مبالغ فيه، حتى بعد زوال رائحة الدخان الخانقة، وسوف يسمعها شوقي ويهز رأسه، دون أن يقرر تغيير عاداته الصباحية، لمجرد أنها ترغب.

"شوقي بك.. أريد منك خدمة"

ضيق عينيه وثبت نظره في وجهي دون رد..

"حاسوبي يحتاج إلى إعادة تنصيب للويندوز، وأحتاج إلى استخدام الإنترنت لأمر ملحّ. هل ستمارس عملك الآن؟"

"مم، أنت تحتاج إلى استخدام جهازي إذن.. ألن تتناول طعامك أولًا؟"

"لا بأس.."

obeikan.com

"يمكنك استخدامه، ولكن لا تُطل.. وحذار أن تقترب من الحافظة المكتوب عليها (أسرار). إن فعلت فسوف أعرف، ولن تكون العواقب محمودة. مفهوم؟!"

ضحك كمال وقال في سخرية:

"هل تضع أسرارك في فولدر اسمه أسرار في مكان واضح بهذه البساطة؟! لم يبق إلا أن ترويها لنا!"

رمقه الرجل بنظرة نارية، فجذبته ماريا من يده وعادت به إلى المطبخ وهي تقول لشوقي:

"أحسن، حتى لا تشعل السيجار في الحمام مرة أخرى!"

*****

استغرقَ منّي الأمر عدة دقائق، تمكنتُ خلالها من نسخ كل محتويات قرصه الصلب إلى الذاكرة النقّالة التي أحملها معي دومًا. كنت أعرف أن ما أفعله غير أخلاقي، لكن هذا لم يردّني، ولم يخفف من رغبتي في استكشاف قاع الصندوق الأسود. وبما إنني لم أكن أنتوي استخدام أسراره في الابتزاز، أو التشهير، أو أي غرض إلا المعرفة، فكان هذا يقلل من حدّة الفعل بداخلي، ولكنه لا يخفف من توتري.

كان قرصه الصلب خفيفا؛ يتضمن ثلاثة أقسام، يحمل الأول ملفات نظام التشغيل كالعادة، والثاني يمتلئ حتى الحافة بملفات بصيغة Doc مرقمة من ١ إلى ٦٥٠، أما القسم الأخير فكان يحتوي على العديد من المجلدات المتنوّعة، والتي لم أفكر في فتحها، لكن إجمالي حجمها لم

يكن يزيد عن ٦ جيجا إلا قليلًا، فنقلت كل شيء كما هو، وقررت تصفحها فيما بعد.

حين انتهيت نزعت نظارتي، وجففتها من العرق الناتج عن التوتر، ثم فتحت متصفح الإنترنت واخترت موقعًا لرفع الملفات، وضعت فيه ملفًا يحتوي على مقال الغد. بعدها استغرقت في الإبحار عبر الشبكة لدقيقتين، فتحت خلالهما كل ما استطعت من صفحات متنوعة، ما بين إخبارية وفنية، وفتحت حسابي على فيسبوك وأرسلت من خلاله رسالة إلى شخص ما، وفعلت كل ما يبرر انشغالي طيلة الدقائق الماضية، ثم – كأي لص محترم – قمت بمسح خط سيري على الحاسوب، كي لا يستنتج منه أنني عبثت بمحتويات جهازه، وتركت تاريخ تصفّح الإنترنت موجودًا، بعد أن تأكدتُ من عدم ترك أي كلمات مرور من خلفي، لم يبق إلا أن أمسح بصماتي من فوق المفاتيح، لولا أن هذا لم يكن ضروريا.

*****

عرفت الكثير مما لم تكن تهمني معرفته. عرفت على الأقل أن انشغاله شبه المستمر بتصفح الإنترنت لم يكن بغرض متابعة أعماله كما يزعم، بل كان لغرضين لا يقل أحدهما عن الآخر عارًا. الأول عرفته من خلال ملفات word العديدة التي احتوت كلها على محادثات كتابية منسوخة من برامج الدردشة، تدور كلها حول الجنس.. وكان الطرف الآخر هو دائمًا نفس العنوان البريدي، أي إنه لم يكن من هواة التنوّع. ولكن كان تاريخ

الرسالة الأخيرة يعود إلى أعوام مضت تقترب من الثلاثة. لا أعرف سر احتفاظه بأشياء كهذه طيلة الفترة الماضية.

أما الغرض الآخر الذي عرفته من نظرة واحدة على تاريخ متصفح الإنترنت، فهو اهتمامه المرَضي بنوادي القمار الإلكترونية، والتي ينفق فيها معظم ما تبقى لديه من وقت وربما من مال أيضًا، وهو ما لاحظت أنه يستمر في المداومة عليه حتى الأمس.

وفهمت مما رأيت أن هذا العجوز الصامت ليس إلا مجرد (لمبة جاز نمرة ٩). مصباح كيروسين، يبدو شفافًا براقًا، إلا إنه منتفخ أجوف هش، كف منذ زمن عن الإضاءة، لكنه لم يتخلص من رائحة الكيروسين الخانقة، وبحكم العادة فقط لم يزل يطلَق عليه (مصباح). أكره الشخص الذي تحركه غرائزه الدنيئة، دون وازع من عقل أو ضمير أو قلب، فلا يبقى إلا أن يسير على يديه وقدميه وينبح.. لكنني أكره أكثر أن يكون هذا الشخص كبيرًا في السن، خاصة وإن بدا على غير ذلك. ترى ما الغرض من الاحتفاظ بملفات على هذا القدر من الخصوصية والحرج، هل يستخدمها في ابتزاز شخص ما مثلًا؟ وقررت أن ألقي بهذا الصندوق إلى البحر، فهو لم يكن فارغًا حتى، بل كان محشوًا بالفضلات.

"منذ زمن لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب منّي إلى هذا الحد!"

أجفلت، واستدرت لأفاجأ بالعجوز يقف بجواري مباشرة، كيف لم أشعر بدخوله إلى غرفتي في هذه الساعة المتأخرة، حيث ساد الهدوء أرجاء الشقة بالخارج؟ من حسن الحظ أنني كنت قد أنهيت عمل الحاسوب قبل دخوله.

رأيت في عينيه نظرة أدهشتني أكثر مما اندهشت منذ قليل. أعتقد أنني تسرّعتُ في الحكم عليه، فهو كما يبدو ما زال يقدر على إثارة دهشتي، مما يدل – على الأقل – على أنه ليس عديم التأثير إلى هذا الحد، فما زال جزء منه يعمل. لقد كانت عيناه تحملان نظرة مذنبة ترغب في التطهّر، والتخلص من حمل ثقيل، وأظن أن بريق عينيه كان ينم عن رغبة في البكاء، كبحها بصعوبة..

"رويدك، لا تتوتر. أنت بالتأكيد تعتبرني ذلك العجوز الصموت، الذي يرسم من حوله هالة من الغموض، بينما هو أجوف في حقيقته، لا يستحق ربع هذا الاهتمام.."

كان يقف ضامًا كفيه أمامه كمن ينتظر إذنًا، فأفسحت له مكانًا للجلوس إلى جواري، في الحجرة التي خَلَت منذ سافر حامد، وجذبته من كفه المرتجف برفق..

"يمكنك الجلوس.."

تأملني مليًا، قبل أن يقرر الجلوس إلى جواري، مقلبًا جيوب منامته بحثًا عن ثقاب لإشعال السيجار، فنهضت إلى المنضدة الصغيرة بوسط الحجرة، وحملتها بما عليها من مطفأة كبيرة، وثقاب، وعدة قهوة كاملة، فقربتها من مجلس الرجل..

"هل أصنع لك بعض القهوة؟"

هز رأسه إيجابًا، فشرعت في إعدادها على الفور، تاركًا له الحرية الكاملة في اختيار نقطة البدء..

"ع الريحة!"

أجاب بها – في توتر واضح – نظرتي المتسائلة عن السكر، قبل أن ينطقها لساني. هززت رأسي، ثم ساد الصمت لدقيقة أو أكثر قبل أن يقرر الكلام أخيرًا وقد تخلص من بعض توتره:

"أعلم أنك لم تعد تحترمني، لكنني لست غاضبًا منك. أنت أيضًا لديك تجاوزاتك وأخطائك، ألستَ كذلك؟ منذ زمن أردت التحدث مع شخص ما. إن حاولتَ التذكر، لن تجدني قد تعمدتُ إخفاء أي شيء، لكنك لم تجرب السؤال. ربما حدث هذا ذات مرة، وكنت منهمكا حينها في إحدى مباريات *البورصة*!"

قالها وانطلق يضحك في صخب مفاجئ. أعرف هذه الضحكة جيدًا، لذلك ابتسمت ولم أجد ما أقوله، فقلت أول ما خطر ببالي:

"شوقي بك، لست وصيًا على تصرفاتك طبعا. و.."

"أعلم أنك لست كذلك. ولكن ربما لأنني أعلم كم أنت مهتم بالاطلاع على أسرار الناس، وربما أبعد بكثير مما قد يُسمح لك، تركت لك الحاسوب لتلعب به وتتلصص على أسراري. لم تكن رغبة منّي في تحقيق أمنيتك على حسابي بالطبع، ولكن يمكنك القول إنني كنت أرغب في أن

أتبادل حديثا قصيرا مع شخص ما يعرفني جيدا، شخص مختلف، مستعد لأن يسمع ويتفهّم قبل أن يصدر أحكاما بشأني."

أشعلت له السيجار، فربت كفّي ممتنًا وأطلق دفقة من الدخان، شفعها بسعلة خفيفة، وقال:

"ولسوف تسمع! لقد سعيتَ إلى المعرفة، وليس من العدل أن تنصرف قبل أن أشرح لك ما رأيت.."

قدمت له كوب القهوة، وجذبت من الجوار مقعدًا وضعته قبالته وبيننا المنضدة، ثم شرعت في إعداد الكوب الآخر..

"بالطبع أريد أن أستمع إلى كل ما لديك، حتى التفاصيل التي لا ترغب في البوح بها! لا تدع هذا يقلقك، ولتعلم أيضا إنني لا أسعى إلى المعرفة كي أفضح الناس، فأنا لا أكتب الأسماء والأماكن الحقيقية.."

"حتى إن كنت تفعل، فلم يعد هذا يصنع فارقا. أنا أعرف كيف تكتب، فقد قرأت لك عدة مرات. لم يعد هناك شخص يعرفني خارج جدران هذه الشقة، ولا أظن أحدا قد يتذكرني أو يهتم بالاطلاع على فضائحي. كان هذا منذ عقود يا مون شير. زمان، أيام المجد والعز. أيام كان اسم شوقي الدمنهوري لم يزل قادرًا على تحريك الأمور. اليوم كما ترى، أصبحت أنا ذاتي أتحرك بصعوبة. كومة من العظام تركها أحدهم ورحل ناسيا أن يودعها التراب!"

ابتسمت وربتّ ركبته قائلا: "لا تصدق كلام ماري.."

ابتسم وأخذ شهيقًا عميقًا، قال بعده في هدوء:

"أول ما يجب أن تعرفه، أن ما رأيت ليس بالضبط كما بدا لك، وليس كما فهمت. إنها قصة طويلة، وقد قررت – ولدَيّ أسبابي – أن أرويها لك منذ البداية... "

*****

قال شوقي بك:

"قابلتها في حفل أقامه أحد المستثمرين الكبار.

يومها كنت في الخامسة والأربعين تقريبا، وكانت هي كالوردة التي تحتفل بختام عقدها الثالث. رأيتها شديدة الرقة والجاذبية والأناقة، وعرفتُ من إحدى المدعوات المحبات للخير أنها تدعى رجاء.. قريبة لزوجة الرجل الكبير صاحب الحفل. درسَتْ إدارة الأعمال بالخارج، وتزوجَتْ ولم تُوفَّق، فعادت تبحث عن حياة حقيقية في وطنها الحقيقي.

تأمّلتها كثيرا في ثوبها الجريء، تتحرك وتقف وتتحدث وتبتسم، وكأنها أميرة من عهد مضى. كانت سمراء، طويلة القامة، متناسقة القوام، طويلة الشعر، تشبه شيئًا بحثت عنه كثيرا دون أن أعرف ما هو على وجه التحديد. وجدتني أقترب منها بلا مقدمات، وأقدّمني إليها. لا أعرف كيف اجتذبَتني إليها بهذا الشكل السحري، فأفقدتني اتزاني وثباتي في حضرة هؤلاء العمالقة، وكان من الأحرى أن أحتفظ بنفسي قويا شامخًا أمام الجميع، إلا أن هذا كان فوق احتمالي.

حظيت منها بابتسامة حلوة وكلمتين، ولم أعد إلى بيتي قبل أن أتحدث مع قريبتها، مضيفتي شديدة الكرم، وحصلت منها على كافة ما استطعت استخلاصه من معلومات تخصها، مع وعد بزيارة قريبة في نطاق أقل اتساعا من هذا. استشعرَتْ هي أنني وقعت في هواها من اللحظة الأولى، وأسعدتها هذه الحقيقة، فوافقت على الفور حين عرضت عليها وظيفة في مكتبي، ولم تُناقش. ومر من الزمن عام تقريبا، قبل أن أحصل عليها في بيتي.

علمت أنها كانت متخوّفة من هذه الخطوة بسبب تجربتها الأولى، لكنني كنت واضحًا كالماء العذب، وكانت تسعدها حقيقة أنني لم أعرف امرأة قبلها، وتملأها اطمئنانا.

عشنا معًا لسنوات في سعادة حقيقية، أحببتها وارتحت لوجودها في بيتي ومكتبي وفي كل تفاصيل حياتي، حتى بت لا أعرف كيف يمكن لي أن أتصرف دون وجودها إن اضطرتني الظروف. وهي كانت سعيدة بحق، أشياء كهذه لا تخفى وإن لم تقال، فقط كان انتظارنا الذي طال أكثر من اللازم لطفل يؤنسنا ويدفع بالدماء إلى مسارات حياتنا اليومية، هو الذي يعكر صفو هذه السعادة من حين لآخر. حتى علمتُ أنني لن أحصل على طفل، لأنني لا أستطيع الإنجاب. فكرت أن أطلقها لكنها رفضَت، وغضِبَت حين تحدثت معها حول الأمر. قررَت البقاء إلى جواري، لكنني كنت أقل من أن أستحق هذا.

بعد مرور العقد الأول على زواجنا، اكتشفت أنني لا أنتمي فعليا إلى أحد بخلاف رجاء، لا صديق ولا قريب ولا أي شخص. وكان الانشغال

الدائم الذي أدى إلى هذا، هو خطأي الأول. فلو كنت أحسب حساب يوم قد أضطر فيه إلى الهرب منها لبعض الوقت، لما اضطررت هنا إلى التعرف بشلّة ماهر شريف، وكان هذا هو خطأي الثاني.. مجموعة تقليدية من الأصدقاء تتخذ من الورق وسيلة للخروج من ضغوط العمل والبيت والزوجات. كانوا لطفاء شديدي البساطة من الداخل، يحبون النكتة ويميلون إلى الصفاء والهدوء، وما كان أحوجَني إلى هذا بالذات. رفضت مشاركتهم الويسكي، لكنني لم أرفض مجالستهم أثناء اللعب. راقني الأمر، وانخرطتُ فيه كل ليلة تقريبا، حتى إن رجاء تصورَت أنني أعرف نساء أخريات، ولم تواجهني بمخاوفها.. فقط حزنت واشتد بها الألم، فأصابها الهزال والاكتئاب، ولم أعد أراها إلا باكية أو ساهمة النظرات. تركَتْ العمل في المكتب وقررَتْ أن تعتكف في بيتها. كانت حالتها تمزقني، وكنت أتصور أن السبب بالطبع هو حاجتها إلى طفل، مثلها كمثل سائر النساء، لكن حزني لنفس السبب لم يترك لي مجالا كي أقدر على مساعدتها، ولم أكن أعرف ما ينبغي عليّ عمله سوى الصمت.

العمل يسير بشكل إلى حد كبير يبدو معقولا، لكن الحقيقة أنني بدأت أخسر. خسرت الكثير والكثير، وحاولت ألا يبدو هذا لمن يراقب. حتى في البيت، حرصت على ألا يطرأ أي اختلاف على شكل حياتنا أنا ورجاء، ربما باستثناء الأدوية المضادة للاكتئاب، التي وجدتها في درج الجوارب الخاص بها، ولم أعلق. لكن مساعديّ بالمكتب لاحظوا أنني صرت مختلفًا قبل أن ألاحظ أنا.. صرت مترددًا في عقد الصفقات وفي طلب الكميات كما

يقولون، وهو المصطلح المهذب للتعبير عن شخص صار *جبانًا* فجأة. أصبحت عصبيًا متوترًا على الدوام، أصرخ عند أقل هفوة، ولا أستطيع السيطرة على مفرداتي. أكسر كل ما يدخل في نطاق حركة يدي، حتى أتى اليوم الذي انفعلت فيه على سكرتيرتي الغلبانة مها، وصفعتها أمام الموظفين، لأنها أرسلت ذلك الفاكس إلى شركة أجنبية – كإجراء روتيني جدًا – دون أمر مباشر منّي.

يومها لم أذهب لملاقاة ماهر وأصحابه، لأن قيمة الشيكات التي وقّعتها بالأمس، على أن أجهّزها اليوم، لم تكن حاضرة.

ربما كان من الممكن إقناعهم بالصبر حتى أوزع شحنة الفواكه الأخيرة. فقد صار الوضع لا يحتمل، ومن الأفضل لي أن أكف عن استنزاف ما بقي في حسابي المصرفي إن أردت البقاء حيًا. فكرت في أنني إن عدت مباشرة إلى البيت وضممت رجاء إلى صدري وبكينا لدقائق، قد تنتهي كل مشكلاتنا، وكان تأخري في هذا القرار، مع سذاجتي حين توقعت إمكانية ذلك الآن، هو الخطأ الثالث.

حين عدت إلى البيت وجدتها قد جمعت ملابسها ومتعلقاتها في حقيبتين كبيرتين، وكانت تستعد للنزول.

"ما هذا، إلى أين أنت ذاهبة؟!"

أجابتني بنظرة طويلة باردة، عرفت منها إلى أي حد قد بدا لها سؤالي مثيرًا للسخرية. لم تكن هذه هي رجاء التي أحببتها وتمنيتها.. ليست ذلك

الشبح منكوش الشعر، متورّم العينين من البكاء.. لم تكن تلك الهالات السوداء تحت عينيها موجودة حين تزوجتها.. وكان هناك بعض اللحم تحت ثوبها.

تأملت خطوط الدمع السوداء بفعل الكحل، إذ ترسم على وجنتيها العظميتين بقعًا مخيفة، وقلت:

"ماذا حدث.. لماذا تتصرفين بهذا الطريقة؟"

حاولَت تجاوزي والخروج، فسددت الطريق عليها ووقفت أتأملها مذهولا..

"لا أستطيع تصديق ما وصل إليه حالك يا رجاء، لقد أخبرتك فور خروج نتيجة التحاليل، وعرضت عليك الطلاق.. لكنك رفضت. وماذا بعد؟.. هل ترين الموضوع يستحق أن تصل بنا الأمور إلى هذا الحد؟ ماذا أصابك، ولماذا تبدين مختلفة إلى هذا الحد.. لقد أصبح شكلك مخيفًا"

"عم تتحدث؟! ولماذا تصر على اتخاذ سمت الأبرياء على هذا النحو المستفز.. يا أخي حرام عليك، اتق الله!"

ارتفع صوتها على غير العادة. كان انفعالها زائدًا عن الحد، حتى إنها انخرطت في حالة من البكاء الهستيري، لم أملك معها إلا أن أهرع إليها وأحتضنها بقوة، وأشاركها البكاء. لم أشعر بالخوف في حياتي كلها مثلما شعرت به في تلك اللحظة. كان انفعالها حارقا لأعصابي، وخفت أن ينهار

أحدنا ويترك الآخر وحيدًا. دفعتني في صدري وابتعدت عني وهي تصرخ من بين دموعها:

"ابتعد عني. ألا يكفيك كل ما فعلته؟ كل ليلة سهر حتى الساعات الأولى من الصباح.. كل يوم مع امرأة مختلفة.. تدخل الفراش بجواري ببساطة، كأي زوجٍ مخلص تناول عشاءه وخلد إلى النوم هانئ البال.. وبعد كل هذا تجرؤ على الاقتراب مني وأن تلمسني، وتتصنع الاهتمام. أنت لست آدميًا!"

ارتج علي ولم أستوعب ما سمعت..

"ششش! اخرسي للحظات، ولتكفّي عن البكاء حتى أفهم ما تقولين. ماذا تعنين بكل يوم مع امرأة وكل هذا الهراء.. من أين أتيت بهذا الكلام الخائب؟!"

"كفاك كذبا، أحسن وحياة رحمة..."

"ولا كلمة، أيتها الغبية.. من قال لك هذا؟ إنني لم أمسّ امرأة في حياتي سواك، قبل أو بعد زواجنا، وأقسم على هذا.. ما دليلك على هذا التخريف؟! وكيف سمحت لنفسك بأن تصدقي كلامًا على هذا القدر من البشاعة؟!"

تسمرَتْ ترمقني في صمت مترقب، دون أن تتخلص من نظرتها الحادة، لكنها فقدت الكثير من ثقتها وثباتها..

Obeikan.com

"ها؟! قررتِ تركي دون أن تخبريني بالسبب على الأقل، لمجرد شك أحمق لا يستند إلى أي منطق؟ أنا أعلم أن لديك أقرباء، وإن كانوا من بعيد، ليسوا أصدقاء ولكن على الأقل أنت تملكين أناسًا غيري. ماذا أملك أنا من دونك؟! كيف فكرت أصلا؟!!"

صمتت مجددًا وتركت من يدها الحقيبة. طفقت تتأمل البساط من بين دموعها. لم تكن تقدر على رفع رأسها ومواجهتي. اقتربتُ منها وحاولت أن أضمها من جديد، فبكت مجددًا في حرارة..

"أستغفر الله العظيم.. أعرف أنني تغيرتُ كثيرا في الفترة الأخيرة، وصرت كثير الغياب، حقك عليّ يا روحِ قلبي، أنا السبب في كل هذا.. حقك عليّ.."

استكانت بين ذراعي للحظات قبل أن تعاود ارتجافها مجددًا. ضممتها أكثر وظللت أهدهدها كالطفلة كي تهدأ.. لكنها انسحبت برفق من داخلي، وقالت ولمّا تكف دموعها الحارة عن الانهمار:

"أنت لا تفهم يا شوقي.. ربما كان الأمر ليكون أفضل لو أنك خنتني. لابد أن أذهب الآن. نصحني الطبيب بأن أشرح لك الحقيقة، لكنني لا أقدر على التفوّه بكلمة.. لأجل خاطري دعني أذهب، وسوف أكلمك لاحقًا.. أعدك"

تأملتها بعين جديدة، وبدأت الاستنتاج. كانت الفكرة مرعبة أكثر مما يمكنني تصديقها، لكن كلماتها لم تترك لي مجالا للتفكير في احتمال آخر..

obeikan.com

"لن يحدث يا رجاء، ما حكايتك بالضبط؟!"

صمتت طويلا، بعدما أيقنَتْ من استحالة أن أسمح لها بالخروج. وبدت وكأنها تفكر في احتمالات ما يمكن أن يحدث فور إدلائها باعترافها الذي يبدو ثقيلًا.. بالنهاية استجمعَت شجاعتها وقالت في تصميم:

"حسنًا سأخبرك، ولكن قبلها يجب أن تجيب على سؤال شديد الأهمية، هو غريب ولكن احتملني.كيف تراك قد تتصرف لو علمت بأنني.. نمت مع رجل آخر؟!"

شعرت وكأن حجرًا ثقيلًا قد ألقي في معدتي، وهبط معدل ضغط الدم في عروقي فجأة، فلم أقدر على البقاء واقفا، لكنني تماسكت حتى لا يبدو عليّ التأثر بسؤالها الغريب. راحت تهز كفّيها أمامها وهي تقول:

"اطمئن، هذا لم يحدث.. لا تدع الأفكار الشيطانية تتسلل إليك. هو مجرد سؤال أهتم بسماع إجابته.. من الممكن مثلا أن تطلقني، أو تقتلني كما يفعل البعض.. قد تصنع فضيحة أو تضربني أو تبلغ الشرطة وتقاضيني مثلا.. هناك رجال يتسامحون، وهناك البعض ممن لا يشكل لديهم الأمر فارقًا. من أنت من بين كل هؤلاء؟!"

ساد الصمت للحظات، تأملت عينيها بقوة خلالها.. فقالت في هدوء:

"يا سيدي وحياة رحمة بابا هذا لم يحدث، ومستحيل أن أعرف غيرك أو أدع رجلا يقترب مني.. لكنني أحتاج بالفعل إلى رأيك في هذه النقطة لسبب يختلف تماما عما تفكر.."

استنشقت نفسًا عميقا من الهواء، وأشعلت سيجارًا أزجي بدخانه الوقت، وأستمد منه الهدوء..

"طيب يا رجاء.. أنا أعتقد إن قدر الله ووقعت هذه المصيبة، أنني لن أقتل أو أضرب أو أصنع فضائح.. لا أظنني من هذا النوع، سوف أطلّق في هدوء بعد أن أنال تنازلا خطيًا عن كل حقوقك بالكامل.. لن أحاول إبراز التنازل ولن يعلم أحد أبدًا بما حدث.. أعتقد والله أعلم أن هذا ما سيحدث حينها. هل استرحت الآن؟!"

هزت رأسها متفهّمة، قبل أن تقول:

"تمام.. أؤكد لك بدايةً أنني لم أفعل هذا، لكن البعض يتصرف حيال أزماته بشكل لا يتناسب مع حجم الموقف الحقيقي، فيزيد من حجم المشكلة.. يا إلهي! أنا واقعة في مشكلة كبيرة يا شوقي.. ومن الوارد أن تكون أنت أيضًا في مشكلة كبيرة.."

جلستُ تحسبًا للكارثة، فذهبَتْ كي تغلق الباب، ثم عادت وجلست إلى جواري وتنهدت في عمق.. كانت تبدو وكأنها لا تعرف كيف تروي ما لديها، ولا إن كان يجب عليها الحديث أم لا، لكنها بالنهاية قررت أن تتكلم:

"لقد أجرى لي الطبيب اختبارًا عدة مرات، وقد أتت الأخيرة بنتيجة إيجابية. لقد كنت شبه واثقة من النتيجة، لكنني لم أصدق حين أخبرني.."

رمقتها وقلت بكل ما أوتيت من ثبات انفعالي:

"أي اختبار هذا؟!"

ابتلعتْ ريقها بصوت مسموعٍ، وداعبت خيوط البساط بطرف حذائها دون رد..

"أي اختبار هذا؟.. يمكنني ترديدها مئات المرات إن كان هذا سوف يجعلك تجيبين في النهاية!.. اختبار حمل؟"

"لا يا شوقي، اسمه تحليل H.I.V.. لقد تأكدَتْ إصابتي بالإيدز..."

*****

عند هذه النقطة، لم يستطع شوقي بك أن يمنع دموعه من الانفجار. هالني منظره بشدة وودت لو ينتهي هذا الموقف بأي شكل. انتقلت إلى الجلوس بجواره وظللت أربّت كتفه، وأحاول تهدئته دون جدوى. كانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحًا، حين تناهى إلى مسامعنا صوت انغلاق باب الشقة الخارجي، فالتفت كلانا غريزيًا إلى باب الغرفة المغلق، وسكن بكاؤه. ثلاث طرقات خفيفات على باب الغرفة من الخارج تصاعد صوتها الرقيق، لأقول:

"حمدا لله على السلامة يا زيزي.."

"لاقيت مصباحك موقدا.. هل أنت بخير؟"

"أنا بخير يا حلوة.. وأنت؟"

"يقتلني التعب، لا أستطيع الصمود.. سوف أنام مباشرة، ألا تريد شيئًا لتأكله؟"

"سلامتك، استريحي وانعمي.."

obeikan.com

"طيب يا ميدو.. ليلتك فل!"

كان صوتها ولهجتها يفتقران إلى الاتزان كالعادة، لكنها بخير إن كان لي أن أصفها بهذا. ناولت شوقي كوبا من الماء، فأخذه بأصابع مرتجفة، وأوقع منه فوق ملابسه وفوق المنضدة، قبل أن تطال شفتاه حافة الكوب..

"أحسن؟"

قلتها همسًا، فجفف شاربه في كم منامته..

"الحمد لله على كل حال.. أنت طبعًا تحلم بالنوم لأن لديك عملًا في الصباح الباكر"

"لن أنام فلا تقلق بشأني، المهم هو أنت. لابد وأن تحظى ببعض النوم، فقد أرهِقتَ بشدة.."

وتناولت منه الكوب، هز رأسه ببطء وقال:

"أنا لا أنام قبل الشروق كما تعلم، لم يبق الكثير على أي حال. أخبرني الطبيب أن العدوى قد انتقلَت إليها من محقن مخدرات ملوث بالفيروس، وكان يجب أن تقيم لديه في المصحة.. أدمنَتْ المخدرات لأنني ابتعدتُ عنها، وأنا أدمنتُ القمار لأنها ابتعدَت عني! ظللتُ تحت الاختبار لمدة تقترب من العام، حتى تأكد لي أنني نظيف تماما، لم تنقل إليّ رجاء الفيروس، لكن هذا لم يضمن لي النجاة.. نجاتي كانت في نجاة هذه البائسة، وكان لابد أن تُعالج بأي ثمن. قمت بتصفية كل ممتلكاتي، ولم أترك شيئًا لم أبعه، وما بقي أصلا لم يكن بالكثير.

من ستر المولى أن ماهر وأصحابه قرروا أن يتخذوا موقفا رجوليا لن يمكنني نسيانه، لقد أرجعوا إليّ الشيكات.. بل وحاول ماهر أن يساعدني من جيبه الخاص لكنني أبيتُ. حين علم أهل رجاء قرروا التدخل وصمموا على المساهمة في علاج ابنتهم، فلم أستطع الرفض. ظلت في المصحة حتى تعافت من الإدمان، والمدهش أنها لم تَمُت لا من الإدمان ولا من المرض، لكن الأكثر إثارة للدهشة أن الفيروس لم يفارق جسدها. قال الطبيب إنه لم يزل في دمها لكنه على ما يبدو لن يؤذيها، هناك سبب جعلها لا تتأثر بالمرض بشكل مباشر، ولكن من الممكن جدًا أن تنقله إلى أي شخص يتصل بها.. لم أجد تفسيرا لهذا الأمر إلا رحمة الله. لو كنت قد رأيت وجهها حين تعافت من المخدرات وخرجت من المصحة، فلم تكن لتتعرّفها. كانت أخرى. لم يكن واردًا أن نعيش معا تحت سقف واحد، لأنني لم أكن لأحتمل أن أحرَم منها وهي ترقد بجواري على نفس الفراش. فكرتُ في العودة إلى أوروبا، والإقامة هناك، لكنني لم أرض بهذا الحل.. يجب أن أظل إلى جوارها، على الأقل حين يموت أحدنا سيستطيع الآخر أن يدفنه.

تركتُ لها المنزل تعيش فيه، وبحثت عن مقام جديد يسعني وألمي وحدنا. لم يمر بي يوم دون أن أطمئن عليها في الهاتف.. في بداية الأمر، أقمت في فندق صغير، فندق حقيقي لكنه صغير. بعدها أعطاني ماهر عنوان هذا *الأوتيل*، وأوصى بي ماريا، فهي أرملة صديق والده الراحل، وكانت تعرف أباه جيدًا. كما أنه رأى في هذا ضغطًا محببا لنفقات إقامتي، دون إخلال كبير بالمظهر الاجتماعي؛ هكذا قال لي.

ثم علمتُ إنه قد أودع في حسابي المصرفي المتداعي بعض الأموال، أستفيد من عائدها الشهري البسيط، وأقَسمَ بالطلاق إن هذا المال ليس دَينًا، بل هو بمثابة رد دَين. لأنها كانت نقودي التي استولى عليها أثناء اللعب.."

رمقت العدم، وشرد ذهني في حكاية الرجل العجيبة. فهززت رأسي متأملا، بينما هو يتابع حديثه، الذي بدا كخلفية صوتية مناسبة لما يرتسم في ذهني من صور ملونة متحركة، تعبر عن قصته..

"رجاء لم تمت برغم كل هذا، ولو كان الموت مرضًا كسائر الأمراض، وقد أودع الشافي دواء ذلك المرض في جسد بشري واحد، لكان جسد رجاء. لم تمت من الكوكايين ولم تمت من أعراض انسحابه، ولم يصبها الانهيار المُتوقَّع، ولم يقض عليها الاكتئاب الذي عولجت منه لأعوام، ولم يقتلها اليقين من عدم حصولها على طفل طالما وطالما ارتجته. ولكن الذي كان يقتل رجاء في كل يوم مرات عديدة، هو أنها لم تعد كما كانت.. لم تعد تشعر بكونها امرأة حقيقية تقدر على إسعادي.. صارت تشعر بأنها لم تعد فتاتي الصغيرة التي تقدر على منحي المتعة والابتهاج بين ذراعيها، ولا تفاحتي التي كانت تفور نوّات عسلها الفيّاضة، فتضرب صخور روحي الصماء، وتصنع وشيشًا مؤنسًا..

وعادة ما كانت تنقضي محادثاتنا الهاتفية في الشكوى من الهموم، وتبادل اليأس، وإنماء جبال وجع القلب عن طريق ردمها بالمزيد. وحين كانت تكف عن إجابة مكالماتي وتعزُف عن الاتصال بي، كانت تهون عليّ

الحياة، فأعزم على الذهاب إليها مباشرة، في بيتنا القديم، وأندفع نحوها، ضاما إياها بقوة، ومعتصرا عظامها حتى تصير فتاتا.. قبل أن آكل منها قطعة كبيرة، ولا أكف عن منحها كل ما لديّ من حب، حتى يبلغ صياحها وصوت تأوهاتها الشارعِ التالي!"

أفلتتْ مني ضحكة، لم أحاول كتمانها، فأجابني بأخرى وهو يقول:

"والله أخبرك صدقًا.. حتى وإن كنت سأموت بعدها فورًا، لم يكن هذا ليجعلني أهتمّ. لكنني حين كنت أفكر في مصير تلك الطفلة إن مت، وكيف ستزداد معاناتها أضعافا، كنت أتعقّل وأصير أكثر هدوءًا. أنت مندهش، لكنها الحقيقة. ذات مرة طفح كيلي، وصرت غير قادر على الصبر، أردتها كما لم أرِد شيئًا في حياتي، ولم يعد للعقل أدنى سيطرة عليّ. وشعرت في صوتها برغبة حارقة تمزقها، أو هكذا خيل إليّ. أردت أن أشعر بها ترغب فيّ كما أرغب فيها، وزاد من همي أن استشعرتُ بالفعل في صوتها رنة أبلغتني أن بها مثل ما بي.

حاوَلتْ أن تضحك وأن تتحدث بشكل طبيعي، لكن هاجسًا ملحًّا ما كان يشوّش على إدراكها لما تقول، ويبطئ من إيقاع كلماتها. وأنا لم أكن أمتلك ترف التظاهر بأنني بخير. قلت كل ما اختزنت لها من كلمات الحب والغزل. ذكّرتها بما كان بيننا وأسهبتُ في استرجاع تفاصيل ذكرياتنا الدافئة شديدة الخصوصية. توترَتْ قليلا وبدت على حافة الاستثارة، لكنها ردعتني بلطف، كي لا أحطم أعصابها وألهب مشاعرها بغير جدوى، إلا أنها في النهاية راحت تستجيب ببطء لجنوني ونزقي وانفلات زمام صبري.

obeikan.com

للمرة الأولى منذ زمن، أمرر يدي فوق جسدها، وأعيد استكشاف تفاصيلها بدقة وتركيز من جديد. وللمرة الأولى منذ زمن أشعر بها مثلما شعرت في هذه المرة. كان طعم شفتيها يشبه شيئًا لم أتذوقه من قبل، حارًا مسكّرًا، لكنه يحمل لسعة الكأس الأولى بعد انقطاع طال عن النبيذ. مدينة كاملة بشوارعها وضواحيها وعششها كانت محرومة من التيار الكهربي، وفجأة سرت طاقة مهولة في أطراف كابلاتها لثوان.

دلَّلتها كثيرا. أسمعتها كل ما كانت تحب من كلمات العشق. ثم مررتُ على كل شيء فيها من رأسها إلى أصابع قدميها، بقلبي وروحي وشفتي وكل خلية في بدني. كانت فكرة مجنونة، ولكن بعد أن فرغنا، عرفنا معًا كم كنا في أمسّ الحاجة إلى هذه التجربة..

شعرت بأنها سعيدة حقًا، وهو شعور لم أرها عليه منذ دهر. استعدتُ رجائي القديمة الراحلة، وامتلكتها من جديد.

أنهينا المكالمة، بينما لم تكن هي على غير العادة حزينة تفكر في الموت. بعدها صار الحب عن بُعد عادتنا اليومية، كان طعامنا وشرابنا والهواء الذي نَنشقه. في بعض الأحيان، كنت أناشدها أن توافق على قدومي إليها، وأؤكد لها كثيرًا أنني أريد هذا حقًا ولو لآخر مرة، لكنها كانت دائمًا ما تخفف من تعبي وتهدئ من روعي بكلماتها الطيبة الحانية. أتعرف؟.. لولا هذا الهاتف، لكانت قد وافقَتْ جنوني ذات يوم، وارتضت، وجابت أجَلي!"

تأملت ابتسامته المضيئة بين فيضان دمعِه الذي لا يتوقف، ولم أعرف ما ينبغي أن يقال، إن كان ينبغي عليّ أن أتحدث أصلا.. قال:

"أراد لها الله أن تعيش طويلًا، رغمًا عن كل المؤشرات، وحينما تم إدخال الإنترنت إلى مصر، سارعت باقتناء حاسوب لكل منا. واشتركت لها في الخدمة. كانت فرصة رائعة لأراها بعينيّ دون أن أضطر إلى زيارتها. لكن مظهرها كان مخيفًا، من قلة اهتمامها بالطعام، ومن انحدار حالتها النفسية إلى الأعماق. لم أظهِر لها أنني ألاحظ هذا، ونفيته كاذبًا بقوة حين سألتني. كنا سعداء لأقصى حد بالتجربة الجديدة، وأضحكتني كثيرًا وهي تتحدَّث مقلدة مذيعات التلفاز. طلبتُ منها أن تتعرَّى لأجلي وتدعني أراها، كانت محرَجة ومندهشة مما أطلبه، لكنها كانت مجنونة مثلي وربما أكثر، ولم تكن لترفض أو تقبل دون أن تجرّب بنفسها. ربما أتت علينا أوقات كنا نحنُّ فيها إلى الهاتف القديم، ومع مرور السنوات راحت أصواتنا تتغير، وبالأخص أنا. السيجار الذي أزهق أنفاسي وهرَّأ أحبالي الصوتية، كان يجعلها دوما تسأل عن صحتي وتطالبني بالحفاظ عليها، وأن أكف عن التدخين. وفهمتُ أنها بدأتْ تشعر بكوني أصبحت مسنًا. وصرنا فقط نستخدم الهواتف في الاطمئنان على صحة بعضنا البعض، لكننا كنا نفضِّل أن نمارس حبنا كتابة من خلال برامج الدردشة.. تخيَّل أن تعبُر مشاعرك كل هذه المسافات من خلال بعض الأزرار، دونما لمسة واحدة ولا صوت ولا نظرة.. دون حتى أن نضطر إلى الحديث؟ لكنني لم أندهش، فقد رأيت مع رجاء ما هو أغرب بكثير. لو كانت تلك الفتاة على كوكب، وأنا على آخر، لشعر أحدنا بالآخر كما لو كنا جالسين معًا على ذات المقعد. ربما بسبب دور الخيال في لحظاتنا معًا، أو ربما لأنني صرت عجوزًا بالفعل.. الله أعلم.

كنا نظل مستغرقين في حبنا بالساعات، ولم يحدث أن مللنا أو انشغل أحدنا عن الآخر، وبم ننشغل؟ ولكن يبدو أن لكل شيء نهاية بالفعل.. لم يكن الموت مرضًا. ماتت رجاء ولم أستطع حتى أن أقوم بدفنها.. لم يتجشّم أحدهم مشقة إبلاغي إلا بعد الدفن بأيام، حينما أجابوا أخيرًا على اتصالاتي التي لم تنقطع عن هاتفها.. قالوا لي "صحتك، ولم نرد إرهاقك"، ثم تعللوا بأن رقمي ليس معهم. حجة واهية لأن هاتف شقيقتهم المرحومة لم يكن يحمل سوى رقمي. أولاد حرام؟ لو لم تكن تنتمي إليهم لقلت هذا عن ثقة.

وعرفتُ أين قاموا بدفنها، وصرت أذهب إليها كلما استطعت. الآن فقط صار مسموحا لنا أن نقترب أكثر مما اعتدنا.. لم يزل بيتنا على حاله، لا أريد التخلص منه، ولا أقدر على الإقامة بين جدرانه وحيدًا من دونها. حينها كنت معرّضًا للوقوع بين براثن القمار مجددًا. لكن الدكتور الذي تابعها اتصل بي، حينما عرف ماهر وذهب إليه فأبلغه.. وقد عرف ماهر عنوان الطبيب لأنه جاء معي إلى المصحة ذات مرة، لكنني لم أخبره بالقصة كلها. وطلب الطبيب مقابلتي، وأتى إلى هنا، وقام بتعريفي ببعض مواقع اللعب.. هناك أناس يلعبون جيدًا، تعرفتُ إليهم، وصرنا نلعب في كل ليلة، ولكن ليس في مقابل أموال حقيقية، نقاط نبتاع بها الأشياء والبيوت في اللعبة.. وأخيرًا صار لي أصدقاء!"

وأطلق ضحكة لم أره يضحكها منذ أن قابلته أول مرة.. وجدته أخيرًا يشعر بسعادة جمة، من الواضح أنه حُرم منها لسنوات طالت، وأن مجرد

استرجاعه لذكرى زوجته الفقيدة، أعاد إليه هذه المشاعر الطيبة التي ظنّها لن تعاوده مجددًا..

وفكرتُ كيف أنهما لم يلتقيا مرة واحدة خلال تلك الفترة الزمنية الطويلة من بعد إصابتها بالمرض؟ هل هو الخوف الغامض الذي صاحب المرض منذ بداية ظهوره، واعتقاد البعض أن الفيروسات المسبِّبة له تسبح في الهواء وتلهو في كل مكان طيلة الوقت؟

أعتقد أن السبب الحقيقي، أنهما كبرا أكثر من اللازم، وأن تلك الرغبة المستعرة في أعماقهما لم تكن إلا نفسية أو روحية.. غالبا كانا يخافان أن تُفسد الصور مخزونهما من المشاعر، أو تتلف بعض ملفات النظام في علاقتهما الاستثنائية. هكذا فكرتُ، قبل أن ألوم ذهني على هذا الفاصل من الاستطراد في غير موضعه، وأعود لمتابعة حديث الرجل.

"كثيرًا ما تراودني الرغبة في الحديث عنها مع أي شخص، وأن أظل أتحدث بلا توقف، وأتذكر سيرتها وأحاديثنا، وكيف كانت تتصرّف وتتحرك وتضحك. فلا أجد من أتحدث معه بشأنها، ولا أعرف ماذا أقول وماذا أسكت عنه إذا ما وجدتُ هذا الشخص.

الليلة أخبرتك بكل شيء، وأنا لا أعلم إن كنا قد نتحدث ثانية، أم إن تلك الفرصة لن تسنح مرة أخرى، ولا إن كنا قد نحيا ليوم جديد أم لا. حتى وإن أصابك حديثي المتواصل بالصداع، وإن كنت قد أرهقتك وضيّعت

موعد نومك منذ ساعات، لا يهم! أنا فرحان لدرجة أنني لا أهتم بشيء واحد في الكون، حتى وإن مت حالا.."

استبدّت بي رغبة في البكاء، وإطلاق عفاريتي الخاصة، لكنني احترامًا لمشاعر الرجل قررت كتمانها بقدر ما أستطيع.

نهضتُ واحتضنته بقوة، ولثمت رأسه الأصلع ووجنته، فبدا كأي *جدو* آخر. ليس ذلك الجبل الجليدي الذي نناديه بشوقي بك. وليس ذلك الكائن شديد الغلاسة، الذي يحب أن يجر شَكّل ماريا كل يوم.

قال لي بابتسامة مغرية، كأنه يعقد صفقة جديدة:

"هل تود مشاهدة صورتها؟"

هززت رأسي في حماس..

"بالتأكيد يا عمنا، وهل يجوز هذا السؤال؟!"

"افتح جهازك إذن، وانظر أين نقلت أشيائي. ستجد مجلدًا بين المجلدات اسمه (أسرار)، فيه صورة وحيدة لها.. هي كل ما بقي لي منها......"

obeikan.com

حامد

هل ترغب في الخروج قليلًا قبل أن أكمل حكايتي؟ أشعر بتوترك في هذه الجلسة المتصلبة. وأشعر بتيبّس أصابعك من جرّاء الإمساك طويلًا بالقلم. موقف غير معتاد على الإطلاق، أعترف بهذا.

معجزة؟! ليس إلى هذا الحد. بالطبع تقع المعجزات كل يوم وربما دون أن نشعر بها. ولكن لو افترضنا أن كل ما هو غريب معجزة، فلن نكف عن الدهشة!

ليس بالضرورة أن تقع المعجزة في وضوح الشمس، كأن يهبط ملاك رحمة من السماء ليعطي طفلًا محرومًا قطعة من الخبز. ربما تحدث المعجزة بالفعل، ولكن نظرًا لكون إرهاصاتها كثيرة ومقدماتها طويلة، وربما احتوت على الكثير من المكاره الضرورية، التي لا نشعر بقيمتها على المدى القريب، كالموت أو ضياع فرصة هامة أو أمل كبير. نظرًا لكل ذلك؛ حين تقع المعجزة نعتبرها من المسلّمات بعد أن كانت من المستحيلات، ونعدّها مكافأة مستحَقة على صبرنا أو جهدنا أو روعة ابتسامتنا! وقد كانت معجزتي

obeikan.com

الكبيرة أن أعمل على ماكينة ما، وأتعلم من مشغّلها الصنعة، وأصير مساعدًا له. لم يكن حلمي في البداية أن أصير معلمًا، وإلا فمن الأولى أن أحلم بالسيطرة على سوق الحديد في العالم، ما دامت الأحلام ببلاش!

بالطبع ونظرا لانغلاق الدائرة على الرقم خمسة – خمس ماكينات، خمسة معلمين وخمسة صبية – لم يكن لي سوى الاكتفاء بدور صبي الورشة بتاع كله، أو *المرمطون* كما كنت أعتبر نفسي، ويعتبرني الجميع دون مصارحة. وقد وقعت المعجزة!

والحقيقة أن أول لقاء بيني والأسطى درويش كان مخيبًا للتوقعات وبشدة، فقد تصورت أنه فور أن يراني ويعرف أنني أعمل هنا، سوف يصفعني بلا مقدمات، ثم يطرحني أرضًا ويظل يوجه الركلات العنيفة إلى بطني حتى أقيء دمًا وأموت. لكنه كان في غاية اللطف معي..

جلس ووضع حقيبته في إرهاق وسألني عن أحوالي وأحوال الجميع ببسمة لطيفة، ورفض أن أذهب كي آتي له بزجاجة **7up** من الكشك الأخضر، أو كوب عناب من مقهى الشافعي، واكتفى بكوب من الشاي أصر أن يصنعه بنفسه لولا أن رفضتُ بشدة.

عرفَ أنني ابن أخي الأسطى زفت الطين، واندهش من عدم وجود أي تشابه بين ملامحنا ولا طباعنا، فاسترحت لذلك الرأي واستبشرت خيرًا. وعرفت في منتصف اليوم أنه أتى في زيارة قصيرة، بغرض الاطمئنان على أحوال المكان والناس، وتحصيل بعض المال، قبل أن يرحل على الفور؛ لأن لديه بعض الأمور الهامة قبل عودته إلى محافظته. تأمّل المخرطة الروسية

المهمَلة طويلًا في صمت، وبدأ وكأن الكثير من الأمور الجيدة والسيئة خلال فترة زمنية طويلة، قد جمعت بينهما.

"هذه المخرطة لي يا حامد، أتعرف هذا؟"

"أعرف يا أسطى.."

"ماذا تعرف؟"

"أعرف أنك شريك في الورشة.."

هز رأسه وقال بصوته الرنان الغريب:

"لا أعني هذا، أقول لك إنها المخرطة التي تعلَّمت عليها حين كنت لم أزل أصغر منك، وحين افتتحنا هذه الورشة، اشتريتها خصيصًا كي أعمل عليها.. أقول لك ولا تضحك؟ إنني أعتبرها كابنتي تماما! لا أطيق رؤيتها على هذا الحال..

أقول لك إيه؟ حضّر لي بعض الكيروسين، وأنا سأصعد لتبديل ثيابي ثم أعود إليك لنرى ماذا نحن فاعلان"

أصابه الحماس فجأة، وكأن الفكرة المفاجئة التي أشعلت هذا الحماس لم تنبع من داخله. كان صغيرًا نسبيًا، ربما في أواخر الثلاثينات.. لذلك لم أظنه إلا مجنونًا، ذلك الشاب الذي يصف الماكينة بأنها كابنته!

لكنني أطعته وأتيت بالكيروسين، ثم أزلت كل ما كان موضوعًا على المخرطة من أكواب وأشياء قذرة مهملة لا أعرف كنهها، وقضينا سويًا ساعات نحاول أن نعيدها إلى ما كانت عليه قبل أن يهجر درويش المكان.

obeikan.com

أدارها واختبرها جيدًا أكثر من مرة، وأجرى عدة قياسات بالغة الدقة، أفضتْ إلى أن كل ما كان بها قد أزيل وعادت كما ينبغي أن تكون. ناداني أكثر من شخص بينما أعمل معه، فكان يأمرني ألا أجيب، وإن تكرر النداء مرتين كان يرد هو في خشونة بأنني أعمل معه الآن.. فرحت بأنني قد صرت مسؤولا عن شيء ما، وصارت لي مهمة وإن كانت قصيرة الأجل، ولم ننته إلا مع انطلاق أذان العشاء.

لم يرحل الأسطى درويش كما قرر، والسبب على ما يبدو هو أنه منذ أن وطأ أرض الورشة، لم يكف الناس عن التوافد لافتقاده والاطمئنان عليه.

ربما كان هذا سببًا غير كاف لدى البعض، لكنني أعرف جيدًا أنه يفتقد هذا الشعور في أي مكان آخر.. رأيت هذا بمنتهى الوضوح على وجهه، وعرفت أنه كان يحتاج إلى هذا، بالضبط كما كنت أحتاج إليه.

ظللت معه أراقبه وأنفذ تعليماته وأنتظر فرصتي بلهفة. أحببت المكان إلى حد ما وبدأت في التعايش، وعرفت أنني سوف أحب الصنعة ذات يوم وربما أتقنها.

وظلَّتْ الأيام تدور على هذه الصورة الجديدة الواعدة إلى حد ما دون منغصات، حتى كان يوم أن صعد الفتى إبراهيم ليأتي بزجاجة مياه من الثلاجة، فسمعنا صوت تهشُّم الزجاج. كانت الثلاجة تمتلئ بالزجاجات، فلماذا ثار الخرتيت ذو الكرش، وانطلق كالرصاصة إلى أعلى؟ كان يعلم جيدًا صوت تهشم هذه الزجاجة دون سواها، كأنها تهشّمت أمامه عدة مرات من قبل.. لماذا كان توقعه صائبًا؟ لقد كان الفتى يسحب زجاجة

المياه من فوق الرف، دون أن ينتبه إلى أن فوقها كانت زجاجة أخرى صغيرة، ممتلئة بالويسكي المغشوش الذي يدمنه الوغد عمّي.

لا أستطيع أن أصف السرعة التي طار بها إلى أعلى، وكيف أن الفتى المسكين لم يستطع التفوه بكلمة، ولم يجد الفرصة للفرار.. فقط للصراخ والاستغاثة. وقد مرت لحظات طوال قبل أن يقرر كل من الأسطى عبده والأسطى فانوس أن ذلك الوغد قد تمادى، وأن صوت الفتى ينبئ بأنه على حافة الانهيار.. لكمات، وأصوات مكتومة لركلات، ومدوية لصفعات، وكل ما يقدِر خيالك على أن يدركه من صنوف الإيذاء، الممتزج بعبارات سباب من أقذع وأشنع ما يمكنك أن تسمع.. كان أشبه بثور هائج حقًا، ولا أعتقد أنك لو كسرت عنق أحد أطفاله لثار إلى هذه الدرجة.

وحين هبط الأسطى فانوس يحمل الفتى على كتفه، بعد أن استطاع بمساعدة عبده أن يخلصاه من يدي الوغد بصعوبة بالغة، لاحظتُ أن وجه الفتى قد تغيَّر عما كان، وعلمتُ أنه لن يعمل معنا مجددًا.

كان هذا هو سبب الخلاف لأول مرة بين الخرتيت من جهة، وعرفان ودرويش من جهة أخرى، وهو خلاف تصاعدت فيه الأصوات، وتبودلت فيه الاتهامات وعبارات اللوم التي تخللها السباب أكثر من مرة، وخرج على إثرها منفعلًا، يركل كل ما يقع في طريقه. وغاب عن الورشة عدة أيام، ثم بلغنا الخبر. إن والد الصبي قد تقدم ببلاغ إلى النيابة، مشفوعا بتقرير طبي، يتهم فيه الوغد بالتعدّي على ابنه بالضرب المبرح تحت تأثير الكحول، مما أدى إلى كسر أنفه وبعض أسنانه، وإلى بعض الأضرار في طحاله ناتجة عن

الركلات المتكررة. واقتيد بعدها إلى السجن لمدة ستة أشهر كما قضت المحكمة، زاره خلالها كل العاملين بالورشة إلاي.

حين خرج لم يلتفت إليّ ولم يبد اهتمامًا بكوني لم أزره، ظاهريًا على الأقل. لكنني حين كنت أقع تحت يديه في عمل ما، لم يكن يتورع عن تعذيبي قدر ما يستطيع. كان يعرف يقينًا كم أمقته وكم أتمنى موته، لكنه لم يكن يستطيع التصرُّف تجاه مجرد نوايا صامتة لطفل هو ابن أخيه المتوفى، فلا يجد إلا تحميلي المزيد من الأعباء، كعقاب على ذنب لا يسعه أن يصفه. استمر بالعمل لمدة شهر بعد العودة، يعتمد على كل صبية الورشة، فقد كان إبراهيم هو صبيه، حتى قرر أن يستقدم طفلًا ليعلمه ويستفيد من مساعدته. وانتشرت الشائعات بين الصبية، أن الفتى الجديد سوف يكون من نصيب الأسطى درويش، بينما أنتقل أنا إلى الوغد باعتباره عمي وأنا أولى به، لكنني كنت أسخر منهم جميعا، وأقرر سرًا أنه لو حدث هذا فلن أستمر بالعمل هنا.

كنت قد انتقلتُ للنوم بالأعلى، بعدما أضيفت حشيتان جديدتان، واحدة للأسطى درويش بجانب حشية الأسطى عرفان، والأخرى لي بجوار الصبية في الجانب الآخر من الصندرة، وكان موقعي قريبًا من النافذة التي تصل إلى أرضية المكان وتُفتح للخارج، فكنت أواربها قليلًا وأتأمل السماء من خلفها، كي أستطيع النوم بقلب مطمئن.

سماء كبيرة ممتدة، لها لون كحلي باعث على الانتعاش، تذكرني بالبطانية التي كنا نلتحف بها أنا وأمي معًا حين كنا لم نزل نحيا في ذات البيت. الآن

أنظر إلى السماء وأبتسم، متجنبًا النظر إلى القمر الذي يبدو أكبر من حجمه المعتاد لسبب ما. سعدتُ بفكرة أن جزءًا من هذه السماء يغطيني وجزءًا آخر يغطيها، فيصل فيما بيننا بشكل ما.

*****

في هذا اليوم من صيف ١٩٩٦ على حد ما أذكر، قررت الخروج مع الفتى ممدوح كي نشرب زجاجتي سبورت من الكُشك الخشبي الأخضر، فلم يمانع الأسطى فانوس الذي كان يجلس وحيدًا بالمكان، وقد خرج الجميع لعدم وجود أعمال لهذا اليوم، كعادة معظم أيام الصيف، ولا أعرف سبب العلاقة العكسية بين حجم العمل ومعدل درجة حرارة الطقس، لكن صيف تلك الأيام كان معقولا كثيرا مقارنة بأيامنا الآن. ولو كنا قد جرّبنا يوما واحدا من أيام صيفنا هذا حينها، لكنا قد أيقنّا من اقتراب قيام الساعة.

سِرتُ بجانبه متأملا جداران الشوارع المطلية بالجير الأصفر، المشغولة بالملصقات الورقية الدعائية، التي كان بعضها تجاريًا والبعض الآخر لأغراض سياسية كما قيل، تتوسطها دومًا رسومات للهلال تشبه علامة المستشفيات. مرورًا بعربات الفول، ومقاهي الرصيف، سرنا، حتى خرجَت بنا خطواتنا المرهقة إلى شارع عماد الدين.

"هل جربت دخول السينما من قبل؟"

لم أكن قد فعلت، ولكني لم أكن أملك ترف التعبير عن هذه الحقيقة. لابد أنه سوف يعتبر إجابتي إهانة تمس شرفي! هز رأسه في وله وهو يتأمل مدخل سينما كوزموس وقال:

"ولا أنا!"

رمقته في اندهاش وتساءلتُ في نفسي عما يجول بخاطره الآن، فالتفتَ نحوي فجأة وسألني عن رأيي في أن ندخل هذا الفيلم يوما؟! كان هناك أفيش متوسط الحجم، لفيلم بعنوان (استاكوزا).. تتصدره صورة للفنان أحمد زكي، وفوق كتفيه قفزت فتاة ثائرة الشعر والملامح، تحيط عنقه بذراعيها في حركة عنيفة، لم أتمكن من التعرف على حروف اسمها، والذي عرفت فيما بعد أنه رغدة.

وعرفت أن الفتاة في الأفيش بثوبها الأحمر المثير قد خلبت لب ممدوح تمامًا، لكنني كنت أتمنى دخول السينما لأجل هدف آخر. كنت أتمنى أن أرى أحمد زكي – نجمي المفضل – على الشاشة العملاقة التي يصفونها، والتي تختلف تمامًا عن شاشة التلفاز الصغيرة ثنائية الألوان، الموجودة في مقهى الشافعي.

وقد كان هناك أفيش آخر يجاور ذلك الذي تجمد أمامه الفتى يحاول استشفاف ما وراء الأنسجة الحمراء، وقد سال لعابه على ذقنه كالمجاذيب. أفيش يصوّر أحمد زكي مرة أخرى واقفا أمام ميكروفون كبير، يرتدي بدلة رسمية تختلف عن القميص الأخضر الصيفي الذي يرتديه في الأفيش الآخر، وقد بدا وكأنه نسخة من الزعيم جمال عبد الناصر. كانت أمي تدعو كثيرًا كلما أتت سيرة جمال، وتذكر الكثير من محاسنه، ولم تنس قط يوم أن مر من أمام الكورنيش، وكانت لم تزل صبية صغيرة تقف بين الحشد الكبير، فأشار إليها مبتسما.

هي تقسم أنه أشار إليها هي بالذات، فلا أحاول أن أغضبها بمزيد من الاستفسار.

قررتُ أن أدخل هذا الفيلم، لكن ممدوح أكد لي أن الفيلم يعرَض باللونين الأبيض والأسود فقط، ولم أصدق إلا حين سأل فتاة الشبّاك وأومأت إيجابًا، فانهارت كل خططي.

فلنعد؛ هكذا قررنا، وقد اكتفينا من المشاهدة عند هذا الحد. إننا حتى لم نشرب الـSport Cola..

"مش كفاية رحت السيما، عايز كمان تشرب حاجة ساقعة؟!"

"على رأيك.. يالّا يا ابن العبيطة، والنبي لا أقول للعيال إنك عاكست البت بتاعة التذاكر، وإنها لسعتك على قفا أمك!"

كانت أسعد لحظاتي – بخلاف الإجازات التي أقضيها في بيتنا – هي تلك اللحظات الحرة، التي لا يكون مطلوبًا مني عمل شيء ولا البقاء في مكان. هكذا يشعر المرء بإنسانيته بعض الشيء ويكف عن الاعتقاد أنه ترس.

حين عدنا كان فانوس نائمًا بالأعلى، يصل صوت غطيطه إلينا. وكان المكان ساكنًا إلا من حركة خافتة مجهولة المصدر خلف إحدى الماكينات.

تبادلنا النظرات في توجس أنا وممدوح، واقتربنا ببطء من مصدر الصوت، وقد تملّكتنا الهواجس. فأر.. لص.. أم مجرد حقيبة بلاستيكية تحركها الرياح؟.. رياح؟!!

obeikan.com

قمنا بمحاصرة المخرطة من الجانبين، وسددت المدخل بجسدي، بينما تقدم ممدوح وهو يرتجف، وفي نفس الوقت تصاعد صوت الصراخ من ثلاثة حناجر، أنا وممدوح، وذلك الطفل الذي جثا على الأرض يلملم قطع الرايش المتناثرة بأصابعه، ويضعها في علبة سردين صدئة صغيرة. كان أصغر منا بعدة أعوام – في السابعة ربما – أسمر البشرة ممتلئًا ذا كرش مستفز. قبض ممدوح على ياقة قميصه المهترئ ودفع به إلى الجدار بقسوة..

"انت مين ياد يابن المشمومة.." – صفعة مفاجئة – " .. انطق قبل ما أطلّع مَيتِين أمّك!"

هتف الطفل باكيًا في لهجة صعيدية:

"ماتضربنيش يا أبو العم! الاسطى هو اللي جال لي أشتغِل امعاكم!"

"الاسطى مين يابن الحرامية.. والنعمة لا ألم عليك الشارع وأخليهم يعملوك بفتيك!"

"سيبه ياد ماتضربوش، عمل لك إيه؟"

كنت قريبًا من مدخل الورشة، أراقب هذا المشهد المثير، حين دخل الخنزير البري ودفعني جانبا في غباء وإهمال، ليتقدم من قلب المشهد. فوددت لو كان في استطاعتي أن أطعن كرشه العملاق بأي مفك في متناول يدي..

"أنا اللي شغلّته هنا.. مالكشي دعوة بيه"

قال ممدوح في ارتباك وهو يطلق سراح الفتى:

"شغلّته إمتى يا اسطى؟!"

"من شوية يا روحِ أمك.. عندك مانع؟!"

هبط فانوس بسبب حالة الفوضى التي دبت في المكان، وهو يفرك عينيه في تذمر..

"مين دا؟!"

"دا واد كان عمال يدور على الدكاكين ويقول للناس "عايزينِش حد يشتِغِل عنديكم؟".. ماحدش رضي يعبّره، صعب عليّا.. جبته يسترزق مع العيال.."

" اسمك إيه يابني.."

"بدر.."

"منين يا بدر؟"

"من سمالوط يا عم الاسطى.."

"خلاص طيب، بطل عياط أمّال، أخوك وكان بيهزر معاك، ماحصلش حاجة.. أهلك فين؟"

"آني مالياش أهل يابوي.. أهل أمي في سمالوط، وأهل أبوي حطوني في الملجأ.. وخرجت من يومين!"

تأمله الأسطى فانوس، ثم توجه بنظره إلى الوغد غير المبالي..

"خرجت إزاي من الملجأ، هربت يعني؟"

هز الولد رأسه إيجابا، فاقترب فانوس من الوغد، قائلا فيما يشبه الهمس:

"جرى إيه يا اسطى، انت جبت لنا المصيبة دي منين؟ شايف الحكاية ناقصة قلق؟!"

"بقول لك إيه يا اسطى، دي ورشتي أنا عدم المؤاخذة، كل واحد هنا يهتم بأكل عيشه وبس!"

تراجع الأسطى فانوس، وقد بدا على ملامحه وكأن أحدًا قد ألقى في وجهه بكوب من الماء المثلَّج، خاصة وأن الكلام تم أمامنا نحن الصغار..

"حقك!"

أذكر أن عرفان قد اعترض على وجود الولد ومبيته في الورشة، لكن هذا أثار عناد الوغد أكثر وأكثر، وأوقد إصراره على رأيه، فما كان منهم إلا أن استسلموا لرغبته، وتركوه يفعل ما أراد. كان هذا على الأقل لصالحي، ولصالح بقية الصبية، فقد التزم كل منا بماكينته ومعلمه، وترك الوغد وصبيه معًا يلهوان في أمرهما، كلاهما معتوه ذو كرش كبير.

خلال الأسابيع التالية، تعلّمتُ بعض الأفكار والحيل من الأسطى درويش؛ أكد لي سرًا أن أحدًا من الصبية الآخرين لا يعلم عنها شيئًا، وبدأ يسمح لي بأن أقف بنفسي على المخرطة أرفع قياسات الأشغال، وأعيد ضبط وسَن أقلام القَطع المختلفة، وكان يتركني أحيانًا أدير الماكينة بنفسي وأمارس الإنتاج بشكل كامل، ريثما يتناول طعامه أو يجري اتصالًا هاتفيًا من

obeikan.com

المقهى القريب، مما كان يُشعل النيران في نفوس بقية الصبية، ويدفع بهم دفعًا إلى الثورة على معلميهم وطلب المزيد. وأظن درويش كان يفعل هذا فقط من باب إثبات أنه ليس ذلك الوحش المفترس الذي صوروه لي، كما أنه ليس بخيلًا أو سيء الطباع كي يحجب عني العلم.. أو ربما كان هذا ضربًا من ضروب المنافسة بينه وزملائه، مَن يستطيع إشعال الفتنة بين الآخر وصبيّه؟!

لم أكن أشغل ذهني كثيرًا بمثل هذه الأمور، فقط كنت أعمل وأتعلم، وأرحل في كل عام أربعة أسابيع متفرقة. أعيش بين بقية الصبيان، يغمرني حقدهم الصامت، غير قادرين على النطق بكلمة قد تبرز مدى الحسد الكامن بداخلهم، وتتضمن اعترافًا صريحًا بأنني أشطر منهم.

*****

مرّت الحياة على هذه الوتيرة لشهر تقريبًا، حتى تقرر ذهابنا إلى راس البر في رحلة على نفقة الورشة لمدة يوم واحد، نرى فيه البحر ونتقي حرارة الجو. وقد جاء القرار من الأسطوات مشمولًا بالنفاذ، وكأنها مهمة عمل، فلم يُستشر أحد الصبية إن كان يفضل المبيت في بيته أكثر أم لا. والحقيقة أن أحدًا لم يكن ليفكّر في الاعتراض إلا أنا، وقد كنت أقل من أن أبدي رأيًا، فاضطُرِرتُ للامتثال.

فقط الأسطى عبده هو من تخلّف عن الرحلة، لأن شقيقة زوجته قد اتصلت به لتخبره بأن زوجته تلد الآن ويجب أن يحضر. فكَّر في الذهاب إلى المصيف على أن يعود إليها مباشرة، ثم غيّر رأيه عندما شعر بأن هذا لا

يليق. فرح بهذا الصبي ممدوح، لأنه تصور أنه قد صار بمنأى عن أي أمر أو انتقاد أو توجيه قد يوجَّه إليه أثناء الرحلة، لكنه منذ لحظة ركوب السيارة أيقن أنه كان واهما!

بدأ اليوم بشكل لطيف، لكنه لم يتضمَّن النزول إلى الماء بالنسبة لي، لأنني كنت لا أعرف السباحة ولم أفكر حينها في التجربة. جلست بجانب الصبية الذين انشغلوا في بناء قوالب رملية، ثم قمتُ فوقفتُ وحدي عند اللسان، ألقي بقطع الخبز الطري إلى أسماك لم تأت، وظللتُ أراقب دورانها كثيرًا حول الدوامة، دون حساب للوقت. ثم بدأ الملل في التسلل إلى روحي تدريجيًا، حتى قررتُ العودة إليهم، فجلست مجددًا بجانب الصبية أراقب الفتيات ذوات الجلابيب المنزلية، وهن يخضن في الماء حتى الخصر، ثم يعدن خجلات أو متظاهرات بالخجل.

رضي المعلم فانوس أن يعيرني آلة التصوير الخاصة به، وأن يعدّها للالتقاط، فأخذت عدة لقطات للفنار. وبدأت أتحمس قليلًا حين انسلخ من بيننا الولد بدر. ضحكتُ منه للغاية وهو يركض نحو الماء بثيابه المكوّنة من شورت، وقميص أسود بأكمام قصيرة، مربوط عند الخصر فوق قمة كرشه بشكل مستفز، والتقطتُ له صورتين.. ذكّرتني طريقته في الركض بالفنان الراحل يونس شلبي في مسرحية العيال كبرت، وفكّرت أنه في لونه وحجمه وتكوينه الجسماني، يشبه ثمرة الباذنجان الرومي، فلم أستطع مقاومة الضحك، وقررتُ أن أطلق عليه *بتنجانة* فور عودتنا.

راقني للغاية مشهد المياه الممتدة إلى ما بعد الأفق، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها البحر. وتابعتُ بنظري مشهد الأسطى فانوس وهو يسبح في مهارة كالأبالسة، وبجانبه يتقافز بدر كأنه يزمع الغرق، فالتقطت له صورة أخرى، ورفض بقية المعلمين أن أصوّرهم.

لم يستمر المرح طويلًا لأنني مارسته وحدي، في النهاية تركت الكاميرا عند حقيبة المعلم، وجلست شاردًا أفكر في أمي وكيف هي الآن، وماذا تراها تفعل وحدها.

تحرَّك الجوع بداخلي، فتوجَّهتُ نحو حقيبة الطعام، معرِبا عن رغبة ملحّة في أن أفتحها الآن، ففوجئت بالكل يتجمعون فوق رأسي، وكأني ضغطتُ زر الجوع لديهم جميعًا. ولأنني الأقرب فقد أوكِلت إليّ مهمة توزيع الشطائر فلم أمانع، فقط افتقدت وجهين، ممدوح..

"أنا هنا ياله.."

منحته واحدًا، والآخر كان بدر.. وكانت لحظة أن انتبهت إلى هذا، هي لحظة صك مسمعي صوتٌ لرجل صارخ يأتي من جهة البحر، يهتف بأن ثمة غريق. تجمهر الخلق حول ذلك الشاب الذي خرج من الماء ركضًا وفوق ذراعيه انسدلتْ ثمرة باذنجان رومية ساكنة.

وضع الولد على الرمال ثم شرع في إجراء عملة تنفس صناعي بسرعة ومهارة، واستغرق الأمر عدة ثوان مرت كأنها الدهر، وأنا واقف وسط الناس أراقب مذهولًا ولا أصدق ما أرى، قبل أن ينتفض بدر ويخرج ما بجوفه من مياه، وسط تهليل وتكبير، وبكاء صدَرَ من بعض النسوة.

في هذه اللحظة بالذات، وبعد أن أفقنا من هول الكارثة، التي أوشكَتْ أن تحل بنا، وهدأ الموقف وانفض الجمع، شعرت بالكراهية تنمو وتتغلغل في قلبي تجاه هذا الولد! أعلم أنك لن تندهش حين تعلم السبب، أو كما سمعتهم يقولون، إذا عرف السبب بطل العجب. فبعد حساب أنه قد أوقفَ قلوبنا جميعا لبعض الوقت، وبعد حساب أنه بالنهاية نهض، وكأنه لم يمت منذ لحظات، وواصل الركض واللعب كأي قرد صغير، وتركني في مجلسي كما كنت، أدعو عليه بكل ما جادت به قريحة طفل في مثل حالتي، يحرق فؤادي ويزيد من تقلص أمعائي أنه بعد انتهاء الموقف وانفضاض الجمع، ذهبتُ كي أنال بعضًا من الطعام فلم أجد شيئًا.. والأدهى أن يتضح أنه من لهَف بقية الطعام كله!

أثناء الاستعداد للعودة، كان على الصغار التأكد من أن كل شيء في الحقائب، وأننا لم ننس شيئًا، وكان على الكبار مراقبة بدر الصغير خشية أن يتوه منا أو يعود إلى البحر، وعلى الرغم من ذلك، إلا أننا علمنا فيما بعد أن الصندل الخاص بالأسطى درويش غير موجود، لا هو ولا أحد مضربي التنس. وعلى الرغم من ذلك أيضًا إلا أن تلك السيارة التي مرّت بجانبنا في سرعة الصاروخ، ودون سابق إنذار، لم تختر من بيننا سوى بدر بالذات، كي تطأه بمنتهى العنف، ثم تختفي في الأفق البعيد، ومن خلفها تنقشع الغمامة الرمادية التي خلّفتها شيئًا فشيئًا.

*****

ركض شخص عابرًا الطريق إلى المطعم المقابل، واستخدم الهاتف. فأتت بعد نصف ساعة سيارة إسعاف، تولَّت نقل الجثة المغطاة، بعد إبعاد المحيطين بها في صعوبة لكثرتهم. وقال أحد المسعفين إنهم سيأخذون الولد إلى مستشفى راس البر المركزي. ولمّا كنا لا نعلم طريقه، فقد قرر المعلمون أن يذهبوا مع سيارة الإسعاف، إلا أن الرجل قال إنه ليس بوسعهم جميعا مرافقة السيارة، فليصطحبهم واحد فقط.

تخيّلت أن الوغد هو من سوف يتقدم باعتبار الفتى صبيه، ومسؤوليته، وبلوَته التي قد صدرها إلينا، لكنه تراجع كامرأة ساقطة إلى الخلف، ولم يستطع فانوس أن يثني درويش عن الذهاب، فتركه الجميع يفعل ما أراد. وقال إنه سوف يطمئننا فور أن تنتهي الإجراءات.

حاول اللقيط أن يجتذبني لأقف بجانبه، كأنه بهذا يحميني، فتملّصت منه بعنف وسارعت بالقفز داخل سيارة الإسعاف، هاتفًا للرجل إن الولد صديقي، فلم يتمكن من الرفض.

هناك وقفنا في الاستقبال، ننتظر خبرًا نعلم جيدًا أنه قد تقرر، أراح درويش ذراعه على كتفي، وظل يربتني بين دقيقة وأخرى، مرددًا عبارات من عينة (ماتخافشي – إن شاء الله خير – انت ايه بس اللي جابك؟)، فلم آبه بمحتوى الحديث كثيرًا، لعلمي أن كل هذا بلا طائل..

حتى أتى الخبر، وعلمنا أن المستشفى قد أبلغ الشرطة ويجب تحرير محضر. روى المعلم كل شيء لذلك الضابط المنقلب السحنة. تعبير طبيعي

على وجه أي شخص يتم انتزاعه من مشاهدة مباراة كرة قدم ممتعة، وتكليفه بدلًا من هذا بمشاهدة جثة طفل لا يعرفه ولا يهتم به. بالطبع لم يكن من الممكن تذكّر أرقام لوحات ومواصفات السيارة، وتوقَّع المعلم أن يقيّد المحضر في النهاية ضد مجهول. في النهاية سأل الضابط إن كان درويش يفضّل تسليم الجثة إلى المشرحة، أم يتسلمها ويتولى دفنها بنفسه، فأكد درويش أنه يرغب في استلام الولد وإعادته إلى الملجأ، لأن له أقارب على قيد الحياة. صلَّينا العشاء جماعة، وصليتُ لأول مرة صلاة الجنازة خلف صفوف الكبار، وارتبكتُ أكثر من مرة أنا وبقية الصبية، لكن أحدًا منا لم يكن يستطيع أن يضحك على زميله الذي ركع، لأن ضغطا ثقيلا كان يجثم على صدورنا، كأنها الروح إذ غادرت جسد الولد بدر، قد حاولَتْ إغراء أرواحنا بمصاحبتها.

لم أبك ولم يبك إلا الكبار. وأذكر أن الوغد السكير لم يذرف دمعة. كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها البحر والموت، وبرغم خوفي من البحر طيلة الرحلة إلا أن الخطر لم يأت من جهته، بل كان رحيمًا حين قرر مداعبتنا.. هل تقاعس البحر عن أداء مهمته الحتمية، رحمة بالطفل وشفقة به، فاضطرت يد القدر إلى التدخل الفوري؟ ترى ما عقاب البحر جزاء تخاذله، وكم سوف أتحمّل من العاقبة بسبب دعواتي وحقدي على الولد.. أنا لم أقبل باستمراره حيًا، ودعوت الله في حرارة ألا يمهله..

لقد قتلتُ بتنجانة.

*****

obeikan.com

عبئًا ثقيلًا من الصمت والكآبة والمهابة، جثم على أنفاس الجميع أثناء رحلة العودة الطويلة، وكأن شخصًا خفيًا يجلس بيننا، ونعرف ذلك يقينا ولكن لا نراه.

صوت الشيخ مصطفى إسماعيل يتصاعد من جهاز التسجيل بالسيارة، والكل صامت مترقب، وكأننا ننتظر من الصندوق الخشبي الموضوع في مؤخرة السيارة أن ينفتح في أي وقت.

حين وصلنا إلى مشارف القاهرة، قرر السائق أن يتوقف عند كشك سجائر ليبتاع شيئا، فاعتبرنا ذلك إذنا لنا بالخروج من السيارة كي نحرك أقدامنا لثوان، وانطلقنا بعدها من جديد إلى طريق كورنيش النيل، فلم أشعر ببعض الألفة إلا حين رأيتُ بعيني بداية الشارع الذي يحتضن دكاننا.

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين أنزلنا الحقائب والصندوق، وكان معظم الناس قد أغلقوا وغادروا، فلم نتعرّض لفضول لم يكن في وقته لحسن الحظ. قال درويش إن الصندوق سيظل بالداخل حتى الصباح، بعدها سوف يذهب إلى الملجأ ويسلمهم الأمانة. تململ الصبية كلهم، ولكن أحدًا لم يبد اعتراضًا ولم يجرؤ على التفوه. وحين فتح الأسطى فانوس الورشة لندخِل أغراضنا، فوجئنا بمشهد لم نتوقعه على الإطلاق.

كانت الماكينات هي الشيء الوحيد في مكانه، بينما لا شيء آخر موجود! العدد والأدوات بالكامل قد اختفت، والصناديق الخشبية التي

كانت تحتوي على الخردة، وجدناها مقلوبة كلها في منتصف المكان وفوقها أفرغت أجولة الرايش وألقيت فارغة!

تبادل الجميع النظرات الغاضبة المذهولة، وأفلتت بعض عبارات سباب ساخط.. وفي لحظة واحدة – ودون اتفاق – قرر كل من درويش وفانوس وعرفان أن يصعدوا لتفقد العلية، لكن فانوس كان الأسبق والأخف، ولم تمض لحظات حتى فوجئنا بصيحاته وسبابه الفاحش يطل علينا من النافذة العليا، بأعلى باب الورشة. خرج الجميع ليفهم، فرأيناه يطل علينا من نافذة كانت لها قضبان حديدية، والآن لم تعد كذلك. شخص ما قد قطعها بشكل احترافي عالي الدقة، باستخدام ماكينة لحام كهربائية. لقد تسلق بشكل ما إلى أعلى، وأزال القضبان الحديدية، ثم دخل وخرج من نفس الموضع. والأرجح أنه استخدم سلمًا، حمله ورحل بعد أن انتهى. وعلمنا أن الدُرج الذي توضع فيه نقود الورشة عادة كان مكسورًا، وأن من قام بهذا لم يترك حتى الملابس المعلقة على الجدران.

ظلت النظرات تقلّب في الخراب الذي حل بالمكان دون أن تملك القدرة على التلاقي، ومن حين لآخر كانت تقع على الصندوق الخشبي المغلق، فيتمتم أحدهم:

"يا لها من ليلة سوداء!"

*****

لا أذكر كيف انقضت تلك الليلة العصيبة، لكنني أذكر جيدًا أن ما كان ينتظرنا بالصباح لم يكن أقل إثارة للذهول مما لاقيناه بالفعل. لم يبت أحد

الموجودين ليلته خارج الجدران، انتظارًا لأولى خيوط الفجر. بعدها يقرر الكبار ما ينبغي عليهم القيام به من إجراءات كثيرة، ويرتبون الأوراق، ويوزعون المهام. وبرغم أن أحداث اليوم الفائت كانت كفيلة بجعل النوم يهرب مفارقًا الجميع، إلا أن إرهاق الرحلة والتوتر العصبي الذي لحق بنا، كانا عظيمي الفضل في حصولنا على غفوة لساعات قليلة، لكنها كافية لجعلنا نستطيع المواصلة في الصباح.

تركنا كل شيء على حاله، ولم نحرك ذرة تراب من مكانها، إلا ما وطأته أحذيتنا عفويًا. فقط أنزلنا الباب الحديدي، وصعد الجميع إلى أعلى، كي نرى كيف يمكن للمكان احتواؤنا جميعا في ظل هذه الظروف.

كان أول من استيقظ في السادسة صباحًا، إثر صوت طرقات مزعجة على الباب بالأسفل، تصاعدتْ بلهفة وإصرار، هو أنا.

نزلت في تذمّر ولم أشأ أن أوقظ أحدًا، إن كانت مصيبة جديدة فسوف أتلقاها وحدي. على باب الورشة، وجدت الحاج عبد التواب، صاحب المخرطة الكائنة بمنتصف شارعنا، واقفًا في تململ، ومن خلفه بعض صبيته يمسكون بشخص ذي بشرة داكنة، بدا متهالكًا من شدة الإرهاق، ومن معالم وجهه استنتجتُ أنه قد تعرَّض للضرب، وبدا كذلك أن جميعهم لم يحظ بقسط وافر من الراحة.

"من عندك فوق يا بني؟"

قلت بينما أفرك عيني:

"كلهم."

أتانا صوت عرفان الناعس من الأعلى، يهتف:

"من يا حامد؟"

"انزل يا اسطى عرفان، أنا عبد التواب.. أريدك في أمر هام"

"خير يا حاج؟ نازل لك حالا.."

هبط عرفان بعد دقائق بوجه مبلل بالماء، ومنشفة حول عنقه، ونظرات متذمرة..

"صباح الخير.."

"صباح الفل.. نحن – بالصلاة على حضرة النبي – استطعنا القبض على اللص الذي سرق ورشتكم بالأمس، وقد وجدنا كل المسروقات فلا تقلقوا.. ها هو الولد"

دفع أحد الشباب بالرجل المضروب تحت قدمي الأسطى عرفان. كان صامتًا يرتعد من الخوف، وقد سكنت عيناه نظرة قط تحاصره الأمواج. هنا بدأ الجميع في النزول تباعًا ليشاهدوا اللص، فلم يتعرّفه أحد الموجودين. قال الحاج عبد التواب:

"هو ليس من هذه الناحية، فأنا أعرف كل سكان المنطقة، ومن يعملون بها بلا استثناء.."

قال عرفان بهدوء، وهو يجذب اللص من ياقته، لينهضه واقفًا:

"كيف وجدتموه، وأين المسروقات؟"

obeikan.com

"يخبئها في الدكاكين الخلفية، التي يملكها عطوة السرجاني. وهي محال مغلقة منذ زمن. كسَر الأقفال واستبدل بها أقفالًا جديدة، ووضع أشياءكم في صناديق كرتونية هناك. كان يظن أنه سيأتي في الصباح ليحمّل الأشياء ويرحل في سلام.. ولكن يشاء المولى أن يمر كريم – الذي يعمل معي – من هناك، بينما هو عائد من صلاة الفجر بالمسجد، فيشاهد أضواء الدكاكين الخلفية موقدة. صوّر له الشيطان سببًا آخر لهذا، ولكن حين دخل وجد هذا اللص.. أخبره بأنه قد استأجر الدكاكين حديثًا، ولم يقم بفرش المكان بعد. كاد كريم أن يرحل، لولا أن لمح أشياء تخصكم، عِددًا وهدومًا كانت ملقاة في أرض المكان.. كريم جدع وناصح، وعرف كيف يتصرف. لم يشأ إقلاقكم وأنتم قادمون من سفر، فبادرني بالاتصال، ومن الجيد أن فعل هذا. أمرته أن يراقب من بعيد، حتى آتي وأفتح ورشتي بنفسي وأوقظ الجدعان.. ولكن حين مررت بكم لألقي نظرة على الأبواب و(النضّارة) العلوية، رأيت ضوءًا ينبعث من أسفل، فعلمت أن أحدكم يبيت هنا. الحمد لله، ربنا كريم. لقد وضعتُ أحد الصبية لحراسة المكان حتى نعود ونأخذها.. ولكن أسرعوا قبل أن يأتي الناس ليفتحوا محالهم، وتكثر الأسئلة، ماذا نفعل في دكاكين الناس، وماذا نأخذ؟"

تبادل الجميع النظرات التي تجمع ما بين الخلاص والدهشة من كل هذا، هناك شيء غير طبيعي يحدث ولا يمكن تفسيره. تحسس الوغد معدته في جشع، ومد يده قاصدًا أن يلحق سوءًا باللص، لكن عرفان أبعده عن متناول يده بنظرة لائمة.. قال بطريقته السوقية:

"ولماذا يفتح السرجاني محاله لمثل هذا الحرامي؟ هل كان ينوي أن يقاسمك ياله؟.. لماذا لا تنطق يا ابن الوسخة؟"

"حلمك يا اسطى! سرجاني من هذا الذي سيتقاسم مع اللص؟! قلت إنها محال مهمَلة ومغلقة منذ زمن، أولم تكن تعرف؟ ثم إن هذا الولد قام بالإعداد للعملية جيدًا ورتب كل شيء. لابد أنه قد درس الأمر طويلًا"

جاءت هذه العبارة اللائمة من الحاج عبد التواب، فتدخل المعلم درويش في الحديث متحمسًا:

"تلك هي النقطة! هو كان يعرفنا جيدًا، ويعرف كل شيء عن المكان. ومعنى هذا أنه كان يتعمد إيذاء واحد منا أو الورشة كلها. لقد عَلِم أننا مسافرون، و عَلِم أين نضع النقود. أريد أن أعرف حكايته كاملة، لأن ما حدث لا يمكن اعتباره مجرد عملية سرقة.."

هنا ازداد ارتجاف اللص بين أصابع عرفان، الذي شدَّد من قبضته حول ملابسه أكثر. ولاحظ الجميع أنه يحاول إلصاق ظهره بالجدار وكأنه يحتمي به، وبدا وكأنه قد قرر ترك الحديث بالكامل للحاج، واستسلم لمصيره أيًا كان. قال عبد التواب في أسف:

"لقد أخبرني بهذا. في الحقيقة ولا تؤاخذوني، أحد الصبية هنا يعرف اللص جيدًا، وهذا الصبي هو من أمدّه بكل أسرار الورشة، وهو من أخبره بميعاد سفركم وأين تضعون كل شيء.. هو أخبرني بهذا!"

قالها وأشاح بيديه، وكأنه قد تخلص من حمل بالغ الثقل. بينما سرَتْ الكهرباء في أطراف الجميع، وتوتر الجو بسرعة كبيرة. نظرات مختلفة تم تبادلها بين الجميع، كبارًا وصغارًا، في محاولة لاستشفاف الحقيقة. وعم الصمت القاتل أرجاء المكان. ولأكثر من دقيقة لم ينبس أحد الواقفين بحرف واحد.. ثم فجأة، هوى كف عرفان على صدغ اللص مرتين متتاليتين، قبل أن يدفعه بكل ما أوتي من عنف، ليلصقه بالجدار..

"هي كلمة واحدة فقط تنهي بها هذا الموّال، وتخرجك من هذا الموقف على قدميك.. كلمة واحدة، إن أزدت عليها فأقسم أن تكون نهايتك على يديّ.. مَن؟"

انطلق اللص يبكي كالولايا دون أن يتفوّه بحرف، وراح يشهق بصوت عال كالغريق، لكنني شعرت بأنه يستَهبِل لسبب ما. ويظهر أن عرفان قد شعر بما توصلت إليه، فاستخدم كفه عدة مرات مجددًا، قبل أن يقول مرة أخرى بذات الهدوء والتماسك الظاهرين:

"لآخر مرة سأكرر السؤال، بعدها لن أستخدم يدي.."

وضرب يدًا في جيب بنطلونه الخلفي، فأخرج مدية قرن غزال، فردها بشكل درامي، وقرّبها من عنق اللص، التي يقبض عليها باليد الأخرى..

"بعدها، هذه – يا روح أمك – هي من سوف تتكلم! والآن سوف أسألك مجددًا، وها هم كل صبية المكان أمامك، ابن شرموطة مين فيهم اللي قال لك على سرّ الدكان؟"

obeikan.com

لأول مرة منذ رأينا وجه ذلك اللص، نسمع صوته. تناول شهيقًا عميقًا عالي الصوت، متذبذِبًا، قبل أن يقول بأحرف مهتزّة، ولهجة بدت لي مألوفة إلى حد كبير:

"ليس واحدًا منهم يا معلم، إن ابني صغير السن ولونه يشبهني.. أتاكم منذ شهرين يشتغِل عنديكم.. واسمه بدر!"

Obeikan.com

أسعد

إن الدقهلية – حيث نشأتُ – محافظة تتمتع برحيق يختلف عن باقي محافظات الدلتا، والقُطر بأكمله. ليس تشيّعًا مني ولا عنصرية، لكنها فقط الحقيقة، ولا أعني بهذا أنها الأكثر امتيازًا عن سائر المحافظات الأخرى؛ لكن القصد أنه لا توجه محافظة تشبهها، مهما كان ترتيبها من حيث الامتياز. محافظة لها رائحة الحقول السوداء القديمة، المحمّلة بشذى زهر البرسيم. والتي يحفّ ثنايا السنابل الصفراء للأرز المغمور بأرضها، نسيم مشبّع بالأملاح بفعل حبيبات السماد. فحين تسنح لك الفرصة لخلوة ليلية، مع مذياع يعمل بالبطاريات، وتورموس شاي، ومقعد قابل للطي، تضعه في منتصف الممشى الترابي الجاف، وتجلس مقابلا السطح الرقراق لمياه أحواض الأرز، والتي يحد سواد الليل – بالتضامن مع نظرك الضعيف أصلًا – من قدرتك على تحديد نهاية الماء، وتطيِّر ياقتك نسائم ماء الري اليودي، فتخلع نظارتك، وتستمتع برحلتك البحرية المذهلة. حين تسنح لك هذه الفرصة، فأنت قد نلت بعض نعيم الدنيا وخير ما فيها.

يقول أهل مدينتي إنهم ينتمون إلى المنصورة، لكنني لا أحب اعتبار المنصورة – مدينتي الحبيبة – محافظة، ولا أن يُقصد تمييزها عن بقية مدن وقرى الدقهلية، برغم كونها العاصمة، وبرغم أن كثرة تنقلاتي وسفرياتي لم تعلّمني كيف أحب غيرها. ومع هذا فإنني كثيرًا ما أقع بحكم العادة في ذلك الإثم.

*****

وفاء، ذلك الكائن النوراني الشفاف، تركتني. وقررَت أنه لا يجب علينا اللقاء مرة أخرى، وأعادت إليّ دبلتي وخطاباتي ودباديبي. فغدَت وفاء بعدها كيانًا شيطانيًا مدلهم الظلمات!

حاولت ألا أفكر في الأمر، بينما يقودني ذلك التوكتوك، قاطعًا بي مسارات بالغة التعقيد. وضعتُ الكيبورد فوق ركبتيّ، مريحًا أصابعي القابضة عليه منذ خرجت من بيتنا، وظللت أوجّه قائد *المدكوك* الفضائي بلساني، وبأصابعي التي راحت تداعب أسهم لوحة المفاتيح في حنكة. سار على ما يرام، حتى قرر فجأة وبلا سبب واضح أن وقت المرح قد حان؛ فتحركت يده جهة أزرار مشغل الموسيقى، لتنطلق نغمات الأنشودة الأشهر في شوارع مصر في ذلك الحين: العبد والشيطان الجزء الثاني!

رحت أدق مفتاح Esc في هلع، حتى أوشكَتْ أعصابي على الانهيار، فقلت بأعلى ما لديّ من صوت، قبل أن أدخل في نوبة من البكاء الهستيري:

"كفاية! على يمينك يا ذوق، تسلم، ألف شكر!!"

ونزلت، مادًا إليه يدي بما جاد به الله، حامدًا له أن باب بيت صديقي صار على مسافة خطوات معدودة.

بالأمس حدثت بعض الحوادث المريبة لهذا الصديق، المعروف عنه منذ قديم الأزل حظه الأغبر، فقد تم قطع النت عنه – بلا مناسبة – بينما هو يصالح خطيبته، وأصاب لوحة المفاتيح خلل ما، قرر على إثره أن يجرب عبقريته الهندسية، التي أهملها منذ دهر، حتى غطاها التراب. فقام بفك لوحة المفاتيح، ولم يستطع إعادتها إلى ما كانت عليه. بالطبع وجد كل المفاتيح قد أبَت أن تستجيب، وصارت اللوحة كأنها ليست هنا. ثم جاءت الضربة القاصمة، بانهيار نظام التشغيل في الثانية صباحًا، مهددًا بضياع الملفات النادرة التي لم تصنّف بعد، والتي كانت تحتّل مجلد التحميلات، أو سطح المكتب.

على باب الشقّة، أخذتُ شهيقًا عميقًا، محاولا تهدئة انفعالي، ومرددًا في داخلي أنني لن أفتح الموضوع، ولن أسمح له بأن يفعل، فلن يتألم أحدنا اليوم. دخلت مباشرة – على طريقة رجال فرق الإنقاذ – إلى حجرته حيث يضع حاسوبه، وقمت بتشغيل الجهاز بعد أن أوصلت به قرصًا صلبًا جديدًا، يحتوي على نظام تشغيل احتياطي. ولكن حين عاد فاروق بصينية الشاي وجلس بجانبي في تطفّل مزعج، قرر افتتاح الحديث بسؤال عابر:

"شبْكة وفاء كانت أول أمس، ألم تعرف؟!"

"لا والله، ما ماقلتليش!"

"مم..؟!!"

أفقت من شرودي وانهماكي في نسخ الملفات التي يعتبرها هامة، وانتبهت لتعبير وجهي القاسي؛ ففردته قليلا، وقلت في لين متأملًا وجهه الأبله:

"ومن أين لي بهذه المعرفة يا ذكي؟ لا سعادتك دعوتني، ولا العريس كان زوجا لأمي!"

"آه، لقد نسيت أن أخبرك فعلا، سامحني.. أنت تعرف أختي جيدًا وتعرف دماغها الخشبي، اختارت لنفسها قاعة سخيفة، لا تسمح بدخول أحد من دون الدعوة، والهانم كانت طابعة دعوات قليلة جدًا.. لدرجة أنني عدت إلى البيت لأحضر دعوتي ودعوة ماما، وكنا قد نسيناهما هنا.. هل تتخيّل أن طنط كوثر لم تستطع الحضور، هي وزوجها؟!"

كان مرتبكًا بشدة، فقلت ببسمة لا معنى لها:

"هات لي ملعقة سكر، شايك ليس له طعم.. هل صرت تنسى أم أنني أخذت كوبك، أم ماذا؟"

"ماشي يا دكتور، الله يسامحك!"

"دكتور رغما عن عينك! دعك من الشهادة المرمية في الخزانة، ولكن بعد هذه العملية الجراحية الدقيقة لجهازك، كان يجب أن تعترف بأنني طبيب ماهر. هذا هو العدل!"

"ماشي.."

"طب يالا قوم هات السكر وبطل مناكفة في أسيادك يا رمة"

*****

obeikan.com

كانت راحة أخرى من راحات الجيش التبادلية، التي أقضي منها يومًا أو اثنين نائمًا كالأصنام، قبل أن أطفش في الثالث من بيتنا، وأقيم بشكل شبه مستديم لدى فاروق في شقته الخاصة بالدور الأخير من بيتهم، حتى يحين موعد السفر.

أيام تنتهي أسرع مما بدأَتْ، ولا يسمح خلالها بالتفوّه بعبارات من عيّنة، حضرة الظابط، أو يا دفعة، أو يا زفت. لكنها لم تكن راحة عادية على الإطلاق. لقد سافرتُ وأنا أعلم يقينًا أن وفاء لم تقرر فجأة إنهاء ارتباطنا بلا سبب، فهي ليست مجنونة لتفعل هذا. ولكن لأنه من المؤكد أن شخصًا ما قد ظهر فجأة من تحت الأرض، ليحول بيننا. ثم عدت لأعلم أنها قد خُطبت بالفعل! ألم يكن يجب عليها الانتظار ولو لشهر على الأقل، كي لا يبدو الأمر على هذا النحو المفضوح؟

لكنني لم أعلّق ولم أسمح لنفسي أن أبدي تأثرًا. ولأول مرة أشعر بالافتقاد للسَرية والعيادة ومرضاي وحياتي العسكرية، فهي كفيلة بإلهاء المرء عن ذاته. ربما أحببتُ ذلك الفتى النحيل الأسمر، لأنه يشبه شيئًا ما في داخلي، تلك الأشياء التي لا تبدو في المرآة، والتي نحبها أكثر مما سواها وإن كانت أسوأ أثرًا على النفس.

علمتُ منذ زمن أن مشكلاتي بالحياة تختلف عن كل من عداي، فهي لا تتعلَّق فقط بأحلام أجهضتها الظروف، ولا تتعلق بأسرة مفككة، أو إخفاقات مهنية، أو مادية، أو عاطفية؛ بقدر ما هي تتعلق بالتأقلم والانتماء. من أنا وماذا أفعل هنا؟! هل أنا ذلك الطبيب الشاب السَوي الوسيم الذي

يظنون؟! هل أنا ابن دكتور هاشم عبد الصمد، وضابط الاحتياط في الجيش المصري، وكل هذه الصفات؟ أشعر بأنني لست أيًا من كل هؤلاء، لكنهم فقط يؤمنون بهذا، ولا مجال لجعلهم يتراجعون عن هذا الإيمان الراسخ، الذي لا يدعمه دليل واحد، غير أنني أبدو كما يعتقدون وكفى.

وكان هذا هو التشابه الأول الذي لاحظته بمنتهى السهولة بيني وحامد عبد الله. هو أيضًا ينطبق عليه هذا، والذي لا يعني أننا سئمنا، بقدر ما يشير إلى جهلنا بطريقة إدارة ذلك الشيء، الذي ضاع كتيب إرشاداته، وتلف جهاز التشغيل الخاص به.. الحياة!

ذلك المكان الذي أتوا بنا إليه، دون أن يخبرونا ماذا يتعيّن علينا أن نفعل!

*****

الحياة هنا هادئة مسالمة محدودة الخيارات، وهو بالنسبة لشخصية تشبهني لا يمثل عيبًا خطيرًا. حين تعلم يقينًا أنك ستكون طبيبًا، لأن الطبيب محترم، ولأن والدك طبيب كبير، ولأن من شابه أباه فما ظلَم! حينما يختار لك الآخرون لأنهم أدرى منك بمصلحتك؛ فلماذا ترهق نفسك بينما أصلا لا شيء يهم؟

كنت متفوقا في دراستي، وكنت أعرف أن دراسة الطب ليست هينة، لكنني عرفت كذلك أنني لها. فأنا لم أنشغل بهواية في حياتي، ولم أضيع وقتي مع صديق، ولا أذكر أنني عدت ذات ليلة إلى البيت متأخرًا، فقط لأنه لا شيء لدي لأفعله بالخارج. كانت اهتماماتي كلها تتعلق بالمذاكرة أو

القراءة العامة، والقراءة لا يجوز في رأيي اعتبارها من الهوايات، لأن معنى هذا أن هناك من لن يهوى القراءة، وبالتالي لن يقرأ. وأنا كنت أعتبر القراءة موردًا هاما من موارد الحياة، مثل الطعام والهواء والحب، بدونها تقل الفرص في اكتسابك للمواهب النادرة التي تؤهلك للتعامل مع الأيام والمخلوقات.

حين كنت أصغر سنًا، كنت أتمتع بشخصية مسطحة باهتة، قليل الخبرات، لا أعرف كيف يجب التصرف، ولا على أي أسس يتم الاختيار. ومن خلال قراءاتي كنت أحاول اكتساب شخصيتي، وتحديد الطريقة التي تناسبني في ممارسة تواصلي الاضطراري بمن حولي. وصفني زملاء الصف بالتعالي، لأنني كنت طفلًا وسيما متفوقًا ومن عائلة طيبة السمعة، لكن الحقيقة لم تكن هكذا. كل ما في الأمر أنني كنت شديد الانطوائية، لا أعرف كيف أكسب ود الناس ولا أعرف لهذا أهمية. كنت خجولًا، ربما أكثر من بعض فتيات الصف، متحفظًا بشكل مستفز، لا أخالط أحدًا ولا أدلي برأي ولا أشترك في رحلة أو نشاط أو مباراة كرة قدم. وبهذا كله أعطيت الجميع كل الأسباب الكافية لأن يكرهونني بشدة.

وكان فاروق جارنا هو بوابتي الوحيدة إلى عالم البشَر، حتى في بيتنا لم أحظ بفرصة نقاش، ولم يُسمح لي بالتعليق على موقف عائلي، ولم يُطلب رأيي في أي شأن، كبيرًا كان أو صغيرًا. كنت بالنسبة لأبويّ طفلهما الذي يأكل ويشرب ويقرأ كتب المدرسة كي يصير طبيبًا، وهو طفل رائع لأنه هادئ مصفَف الشعر لا يصادق الأشقياء ولا يرفع صوته. لكن فاروق هو من استطاع أن يقترب أكثر.

كان زميلي في المدرسة الإعدادية ولا أعرفه، لأنه كان ينتمي إلى فصل آخر. وتصادف أن مر من أمام فصلنا ذات يوم، أثناء دقائق الاستراحة في منتصف اليوم الدراسي، وكنت كعادتي لا أنزل إلى الفناء ولا إلى المكتبة. كانت كتبي معي في حقيبتي، وكنت أحب الاستمتاع بدقائقي وحيدًا في الفصل أقرأ.

يومها لمح في يدي حلقة من حلقات المغامرون الخمسة، وكان من النادر أن نستطيع الحصول عليها في المنصورة. فوجدته يقتحم الفصل في حماس، وهو يخبرني بأن لديه بعض الأعداد، ولم يتخيل أن هناك من يهتم بهذه *الأشياء* في المدرسة سواه، ومد يده دون سؤال، وجذب الكتاب من بين أصابعي يتأمله في لهفة.

أصابني الذهول من تصرفه الجريء، أنا الذي لا أعرفه ولا يعرفني، ويتبادل معي الحديث هكذا ببساطة كأننا أصدقاء. لكنني لم أغضب، بل على العكس راقني هذا، وسعدت بتفصيلة صغيرة اهتم بها، حين تناول الكتاب من بين يديّ، وحرص على وضع إصبع من أصابعه بين الصفحات، كي لا يضيع عليّ نقطة توقفي. وجدته متحمسًا للغاية، لا يكف عن الحديث والابتسام، والأهم أنه لم يندهش أو يسخر مني بسبب اهتمامي كما اعتدت.

قبل أن ينصرف أخذ مني وعدًا أن أمنحه الكتاب فور انتهائي منه كي يقرأه. على أن يعيده حينما يفرغ منه. وأقسم وأغلظ في القسَم وهو يضحك أنه سريع للغاية في القراءة ولن يؤخر الكتاب، فمنحني هذا انطباعًا

بأنه يكذب، وإلا فلماذا يضحك؟! لكنني أعطيته ما أراد في نهاية اليوم، فعرض أن نذهب إلى بيته القريب من المدرسة كي يطلعني على ثروته الخاصة، التي لا يسمح لأي شخص بمشاهدتها.

كان من الغريب والمثير في نفس الوقت أن أذهب إلى بيت زميل لي، وكان الأكثر إدهاشًا وإثارة أن أتأخر عن موعد عودتي إلى البيت، فصار الاقتراح أقوى من أن يُرفَض. هكذا ذهبت معه وأنا أنوي ألا أقضي وقتًا طويلا لديه. رحبَت بي أمه واحتفت بي جيدًا، وقالت وهي تمزح:

"أنت إذن مهفوف بالقصص والقراءة مثل فاروق ابني! عليه العوض في هذا الجيل"

كانت تملك روحًا مرحة شديدة البساطة، عرفت أن فاروق قد ورثها عنها. ووجدت نفسي أشعر بألفة كبيرة بينهما وكأنني أعرف هذا البيت منذ زمن. بداخل غرفته وجدت فراشًا كبيرًا غير مرتب، هبط فاروق على ركبتيه وأزاح الملاءة، ثم مد يده وسحب صندوقًا كرتونيًا كبيرًا ممتلئًا حتى الحافة بقصص رجل المستحيل وما وراء الطبيعة وملف المستقبل والمكتب ١٩، ومغامرات الشياطين الـ١٣، وكتب من مكتبة الأسرة.. قال وهو يلهث:

"هناك واحدة أخرى في حجرة أمي!"

طالبته أن يصبر حتى أستطيع احتواء كل هذا الهول! قلبت الكرتونة على بساط الحجرة، وأخذت أقلب محتوياتها بين يدي غير مصدق، فلم أكن قد رأيت هذا الكم من الورق في أي مكان من قبل، ولا حتى في بيتي. وانهمك

هو في الزحف أسفل الفراش، يحاول لملمة بعض الكتب التي وقعت من الكرتونة وتبعثرت على الأرض..

"شاي أم بيبسي؟"

"ولا أي شيء. لا يمكنني، فقد تأخرت كثيرًا ويجب عليّ الذهاب"

"لن تذهب قبل أن نأكل سويًا، أمي لن تقبل بهذا.."

"ولن تقبل أن تقتلني أمي، فهي لن تأكل لقمة قبل أن أعود للأسف.. أعدك أن يكون هذا في يوم آخر"

أصر أن آخذ من كتبه ما أريد، وأصر كذلك أن يرافقني في رحلة العودة كي يعرف مكان بيتي، ولكن حين طالبته بالصعود كي أريه مقتنياتي أنا الآخر، اعتذر وقال إن موعد الغداء قد حان ويجب أن ينصرف. دون أن يخطط لهذا، منحني فاروق كل ما بوسعه كي لا أستطيع رفض وجوده في حياتي، هكذا صار لي صديق.

في المرحلة الثانوية بدأت أرى شقيقته الصغرى وفاء بشكل يختلف عن تلك الطفلة ذات السنّة المكسورة والضفيرتين. كانت عروسًا جميلة تضع حجابا ولا ترفع صوتها. ولم أعرف متى كبرتْ ولا كيف تحولَتْ إلى ما صارت إليه بهذه السرعة. وكان أول ما فعلتُه حين وجدتُني لا أكف عن استرجاع صورتها وكلماتها القليلة الرسمية، أن أخبرت أمي بأنني أرغب في خطبتها. ضحكت كعادتها وأخذت تدغدغني وتمازحني بصيغة الأنثى، ولم تأخذ الأمر على محمل الجد. وحين أخبرتُ أبي قال في جدية وبكلمات

سريعة متعجلة أن لا مانع، ولكن ليس قبل سنوات، على الأقل حين أتخرج وأصير طبيبًا. وجدت أن سنوات طويلة للغاية تفصلني عن هذه الخطوة، فأصابني الاكتئاب والحزن. لماذا نحن صغار إلى هذا الحد؟! قررت التوقف عن الحديث في هذا الموضوع مؤقتًا، على الأقل حتى تنتهي المرحلة الثانوية وأضمن مكاني في كلية الطب. وبالفعل، لم أكد أتلقى خطاب مكتب التنسيق، حتى اتصلت بفاروق وطلبت منه مقابلتي فورًا. كان سعيدًا للغاية لأن أوراقه ذهبت إلى كلية الهندسة على غير ما توقع، نظرًا لحظّه المعتاد. وسعد أكثر حينما أخبرته بأنني سأكون طبيبًا ذات يوم.

لم أطق صبرًا وحدثته عما يجول بخاطري منذ سنوات، وكيف أنني قررت تأجيل الحديث حول الموضوع إلى أن أضمن لنفسي مكانًا في الكلية. لكنني لم أستطع صبرًا أكثر من هذا، خشية أن تذهب وفاء دون أن أتمكن من نيلها. وجم قليلًا كأن الأمر لم يكن في حيز إدراكه على الإطلاق، وبدت كلماتي بمثابة مفاجأة ثقيلة. لكنه بالنهاية أخبرني أن الفكرة لا بأس بها! سوف يخبر أمه، لكنه يعرف مسبقًا أنها لن تعارض، كما أنها لن توافق على اتخاذ أي خطوة قبل التخرج، وكان هذا أكثر من كاف بالنسبة لي.

اليوم أفكر في أنني لو كنت أعرف إلام سوف ينتهي الأمر منذ البداية، ربما لم تكن قراراتي لتختلف، وكنت سأحب خوض الأمر واختباره بنفسي.. لذلك ربما كنت حزينًا، لكنني لست نادمًا على الإطلاق.

obeikan.com

وحين أتذكر أيام حامد في عيادة السَرية، برغم اختلافنا التام على كل الأوجه المرئية، كنت أرى بيننا تشابهًا كبيرًا تصعب ملاحظته بالعين المجردة. هو الآخر عاش وحيدًا غريبًا تواقًا إلى شيء لن يحصل عليه. بصرف النظر إن كان المرء بين الآخرين، أم وحده؛ هو فقط من يمكنه أن يؤكد إن كان وحيدًا أم لا.

*****

عرفت حامد قبل أن أراه، من خلال التقرير الذي أرسِل إليّ في ظرف مغلق، مع المندوب، الذي تولى ترحيل دفعة ذلك الفتى. كان التقرير صادرًا بشكل غير رسمي، من نظيري في مركز التدريب الذي قضى به حامد فترته الأولى. وكان محتواه شديد الخطورة..

*****

السيد الملازم، د. أسعد عبد الصمد.

السَرية الطبّيّة، ق. ل. (...) مش. ميكا. مقل.

تحية طيبة، وبعد،،،

يصل ضمن الدفعة رقم (...)، والمرسلة إلى ق. ل (...) بحسب دور الترحيل، الجندي مجند/ حامد عبد الله عابد.

نرجو من سيادتكم توليته عناية خاصة، إذ إننا لاحظنا عليه سلوكًا يميل إلى الانعزالية والانطواء، ولم نكن نتصور أن الأمر يحمل خطرًا ما، قبل أن يقدم على الانتحار، عن طريق قطع شريان معصمه الأيسر باستخدام شفرة

obeikan.com

حلاقة، ويتم إنقاذه بمعجزة. أعرف أن أمرًا على هذا الحد من الخطورة كان ينبغي أن يُصعّد إلى مستوى أعلى من هذا، لكن سيادة العميد قائد المركز فضّل إنهاء الأمر بشكل غير رسمي، وإلا فقد كان ينبغي أن تتم محاكمة الجندي المذكور أعلاه، هو ومساعدي التدريب المسؤولين عن حماية الجنود ومراقبتهم، وقد يتعرض قادة وضباط المركز للمساءلة أيضًا بسبب هذا، وهو ما قد يؤدي إلى إعدام الجندي،كعقوبة حتمية، على مخالفته القانون العسكري، وتعمُّد إثارة الذعر ونشر الروح الانهزامية بين الجنود. ينبغي هنا أن أشير إلى نقطتين هامتين، إن الجندي المذكور يتمتع بصحة جيدة فيما عدا مشكلة سوء تغذية بسيطة، كحال معظم الجنود المستجَدّين، الذين يفضّلون الجوع على تناول طعام الميري، لكنه يواجه من حين لآخر نوبات إغماء مجهولة السبب. كما أن بعض زملائه قد لاحظوا ظاهرة فائقة الغرابة، وقد تأكدْتُ منها بنفسي أثناء استضافتي له في عيادة المركز، وهي أن هذا الجندي يتمتع بموهبة شديدة الخصوصية، تجعله يقدر على إرسال رسائل صامتة إلى أي شخص يختاره. قد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، لكنني أؤكد أنني لا أمزح. هو يستطيع أن يجعل الآخرين يسمعون أفكاره كأنه يتحدث إليهم، وقد لاحظت أن هذه القدرة تتمثّل في أقوى صورها حين يكون نائمًا، أو غائبًا عن الوعي، كما أنني أجريت بنفسي عدة اختبارات أكدَت لي أن المتلقي حين يكون نائمًا هو الآخر فإن تلقي الأفكار يصير أوضح وأكثر نقاء. وهي ظاهرة نادرة قرأتُ عنها عدة مرات، وأعلم أنها موجودة، لكنها على المستوى الرسمي غير معتَرف بها، ولا

يمكن تضمينها في تقرير طبي. ولهذا فضّلت أن أبلغ سيادتك بهذا الأمر بصفة وديّة، عن أن أراسل قائد السرية الطبية لديكم بشكل رسمي. أغلب الظن أن الفتى لا يدري شيئًا عن هذه الموهبة، وأن مستواه التعليمي والفكري لا يسمحان له بتصوّر الأمر. قد يعتبره أمرًا طبيعيًا يقدِر عليه الجميع، وقد لا يكون ملاحِظًا لهذه الظاهرة من الأساس، وهو الأرجح. أعتقد أن قائد المركز لدينا قد اهتمّ بإبلاغ سيادة العميد قائد اللواء بالمشكلة الأولى، الخاصة بمحاولة الجندي الانتحار، ولكني اهتممتُ بإطلاعك شخصيًا على الأمر بأكمله تحسّبًا لأي طارئ. شكرًا لتفهمكم، وأقدّر بشدة مدى خطورة متابعة فرد يحمل كل هذا الكم من المشكلات، لكنني أؤكد أنه هادئ الطباع، أميَل إلى الانعزال والصمت، مطيع للأوامر، ولم يشْكُ منه أحد زملائه أو قادته، أي إنه في الغالب لن يمثل تهديدًا مباشرًا لأي شخص سوى نفسه. سأكون تحت أمرك في أي استفسار، وسوف أحترم رغبتك في تصعيد الأمر لقائدك إعفاءً لك من المسؤولية، إن رغبت. شكرًا، ولك مني فائق الاحترام.

*****

لم يُخفْني ما جاء في هذا التقرير، ولم يثر ذهولي، فقد كنت على اطلاع كاف حول القدرات الفائقة للحواس، كما أن عدد الجنود المستجدين الذين يقدمون على قتل أنفسهم، أكثر مما يمكن لك أن تتخيّل، ربما بمعدل واحد كل عام كما سمعت ذات مرة، ولم أعرف إن كان

ينطوي الحديث على بعض المبالغة أم لا، لكنه ساعد على تقبّلي للتقرير بشكل طبيعي.

لكن هذا لا يعني أن التقرير لم يثر فضولي واهتمامي بشدة كما لك أن تتوقّع. حاولت أن أكون حكيمًا، فلم أطلب مقابلته كي لا أثير لديه أي شكوك، فقط انتظرت مقدمِه، وكنت موقنًا من أن اللقاء لن يتأخر، إن لم يكن بسبب مشكلة سوء التغذية التي يعانيها، فبسبب حالات الإغماء المتكررة، التي أشار إليها الزميل.. وقد كان.

*****

ناهد. تكرر هذا الاسم أكثر من مرة، أثناء غيبوبة الفتى، بسبب جرعة الشاي الممتزج بالمخدر، لكن شفتيه لم تنطقا حرفًا منه.

علمت بسبب طول مكوثي بجانبه – أثناء فترة غيابه – بعض الأمور، التي لا أعلم إن كان قد قصد أن يعلمني بها، أم إنها مجرد تفريغ لشحنات عاطفية طال كبتها بداخل أعماقه، حتى اختمرت، وأسكرَت، وأضحكَت من شدة الهم.

أعلم أن التخاطر – Telepathy موهبة نادرة خاصة، تنشأ في ظروف هي بدورها بالغة الخصوصية والندرة. لابد أن هذا الفتى قد تعرّض في طفولته إلى تجربة غير سويّة، أجبرته على الصمت وهو في أشد احتياجه إلى الحديث أو الصراخ ربما، وقد أشعلَتْ هذه التجربة أحد المصابيح الغافية بداخله.. هكذا يبدأ الأمر في معظم الحالات.

وعلمت أن ناهد – أو (نانا) كما كان يحب أن يناديها، وكما لم يزل يحب أن يشير إليها حين يكون حزينًا – هي حبه الأول، وافتتاحية مرحلة هي الأهم بين مراحل حياته. إن هذه الفتاة – أيا من كانت – لم تكن مجرد أنثى عشقها، وتمنى الحصول عليها، بل كانت هي *الأنثى* كما تصوّرها طويلا وحلم بها. كانت كل تفصيلة فيها تحمل إليه بعدًا آخر من أبعاد تلك الصورة الجميلة، ذات الإطار المزخرف فائق الروعة، التي سمع عنها كثيرًا دون أن يصدّق وجود مثلها في الواقع: الحب. كانت مثالا حيًا لكل ما تمناه وحُرم منه، بل إن عيوبها كانت بالنسبة إليه هي منتهى الاكتمال.

وعلِمتُ أن هذا الفتى يحمل بداخله قلبًا، لا يستطيع مخلوق على وجه الأرض تقدير ثمنه، ولا حتى هو.. قلبًا يختلف عن لون بشرته الداكن، ونظراته الشاردة، وملامحه المهمومة، ونحوله المفرط، وأميّته، وطوله، وسذاجته، وكلماته القليلة التي لا تدل على شيء، وكل ما قد ينم عنه مظهره. قلبًا يعرف كيف يشعر دون شوائب، فهو يحب كما ينبغي الحب، ويخاف، كما لا تتمنى أن تخاف، ويجرؤ على ما لا يمكنك تصوره، أما حين يكره، فإنه يكره كما لا تتخيّل أن يشعر أحد تجاه أحد!

وكان صاحب النصيب، الفائز بكامل كراهية الفتى، هو عمّه. رجل لا أتخيل أنه على هذا القدر من الحقارة حقًا، وإلا فهو حيوان ناطق. وعلمت أيضا أنه يعمل خرّاطًا في ورشة ما يملكها هذا العم، قبل أن يرحل عنها ويتركها لشريكيه، فيقرر الفتى الاستمرار بالعمل بها، ويرفض الانتقال معه.

ولفترة طويلة نعِم الفتى بفكرة أن ذلك الشخص قد انصرف مغادرًا عالمه إلى الأبد، وظل يحيا بفرحته الزائفة قبل أن يتلقّى صدمة عمره. بعد مشكلة غريبة حلّت بالورشة، وكان هذا العم – في رأي حامد – هو المتسبب فيها، كان من الطبيعي أن يرحل العم إلى الأبد، مسويًا حسابه، ومقررًا عدم العودة، وقد كان. بعدها بدأت أولى بشارات الارتقاء الوظيفي، حيث سُمح له بالعمل كفنّي بأجر كامل لأول مرة. وتغيّر وضعه في المكان بشكل تام. وظل على هذا الحال إلى أن قرر الحصول على إجازة في غير موعدها، فكان محتمًا أن يكتشف ما غاب عنه لفترة طويلة.

تذكّر بعد أن استيقظ في فراشه بمستشفى النيل، بينما الصداع يطرق رأسه بألف مطرقة، أن آخر ما وقعت عليه عيناه من مشاهد ما قبل الغيبوبة، هو والدته، إذ كانت في فراش واحد مع ذلك العم، يصرخان في جنون، ولا يفصل بينهما فاصل.

بكى كثيرًا حتى أضحى لا يرى جيدًا، وأتت ممرضة ما لتعطيه قرصًا تظاهر بابتلاعه ولم يفعل. أدرك أنهما من أتيا به إلى هنا قبل أن ينصرفا. فلم يكن أيّهما يحب أن يبقى موجودًا حين يستيقظ، يمكن للمواجهة أن تتأخر قليلا.

ظل يحاول استجماع صورة أبيه الراحل، لكنه أخفق. أغمض عينيه وأخذ يعتصر ذهنه، متجاهلا ضوء الشمس المتطفل، الذي يغزو أرجاء الغرفة الواسعة متعددة الأسرَّة، وطفق يحاول تذكر تفاصيل ذلك الوجه، الذي لم يعرفه إلا من خلال صوَرِه القديمة، فلم يستطع. هز رأسه في إنهاك، ونهض

عازمًا على المغادرة قبل أن تأتي هي لزيارته، فلم يكن ليتصور رد فعله إزاء رؤية وجهها، لكنه كان يعلم جيدًا أن رؤيته لعمه لا تعني إلا جريمة قتل حتميّة. هكذا رحل عائدًا إلى الورشة مهدودًا، وطلب من معلمه درويش مساعدته على الرحيل من هنا، والاختفاء إلى الأبد عن هذا العالم الذي صار يعرفه إلى حد غير محتمل.

*****

بلغتني معظم هذه المعلومات، من خلال رسائله الصامتة، وعرفت أقل القليل منها عن طريق الأحاديث القصيرة المبتسرة، التي كانت تدور فيما بيننا كلما حانت فرصة ما. هذا هو كل ما أعرفه عن الفتى بالفعل ولم أخف شيئًا، حتى ما لم يكن ينبغي أن يقال في ظروف أخرى. وقد شهدت بالفعل بكل ما أعرفه أمام نيابة أمن الدولة، حين تم استدعائي. فلو كانت هذه الحقائق، تدل في رأيكم على تورط حامد بالفعل في العمالة لصالح دولة أجنبية، فاسمحوا لي..!

حامد

لولا ذلك الرجل، ربما لم أكن لأتعلّم شيئًا في الحياة. فلم يكن الأسطى درويش مجرد فنّي خراطة تولى تعليمي وتدريبي على التعامل مع الآلات والخامات والناس. بل لقد كان على النقيض مما تصورته، من خلال كلمات الصبية والمعلمين قبل أن ألقاه.

لقد اكتشفت بمرور الوقت كنزًا إنسانيًا مخبوءًا عن الأعين، لم يكن أحد قد التفت إليه من قبل، كنزًا من المعرفة والعطاء والمحبة والتجارب التي لا نهاية لها. لذلك أتت معظم تجاربي الأولى من خلاله.

أول سيجارة دخنتها كانت من علبته، وأول فتاة قبّلتني وسمحت لي أن ألمس نهداها كانت صديقته، وأول مرة نزلت إلى البحر كانت بصحبته، وأول مرة دخلت في مشاجرة وانتصرت كنا معًا، وأول مرة دخلت السينما واستمتعت بهذا السحر الخارق كان باقتراحه.. وأول مرة عرفت فيها أن أمي لم تخطئ إلى هذا الحد حين تزوجَتْ بعقد عرفي من الوغد، كانت في مناقشة معه.

obeikan.com

لقد كان والدي يعمل نجار مسلح في شركة المقاولون العرب، وكان زواج أمي بعقد رسمي هو الطريقة المضمونة لقطع معاش المرحوم عنها. ولم تكن الجنيهات القليلة التي تتلقاها أمي أول كل شهر هي الدافع وراء الإبقاء على هذه الميزة، وإنما البطاقة التي تدخل بها إلى مستشفيات الحكومة، لتتمتع بالخدمة والرعاية الطبية، وتتلقى علاج الربو مجانًا.

أخبرني أن المرأة لا تستطيع الحياة طويلًا بلا رجل، وإلا أصابها الجنون، وقد كان عمي هو الخيار الأقرب إلى المنطق، فهو على كل حال مازال أقرب شخص إلينا.

علمتُ أنها لن تنعم بصحبة ذلك الوغد، لكنها قد تستريح من عناء الحياة قليلًا. إن مجرد توقف العذاب – أو الحد منه على الأقل – قد يكون لدى البعض بمثابة النعيم الأبدي.

شيء في كلام درويش جعلني أشعر بأنني صرت أكبر، وأكثر نضجًا وقدرة على تقبل الأمور والتعامل معها. لكنني لم أغفر لهما كتمان الأمر عنّي. بالتأكيد زوجته الأولى لا تعلم، ولا أظنه ذلك الشهم الذي قرر انتشال أرملة أخيه من بين أنياب الحياة القاسية، ولا أمي هي المرأة التي يطمع فيها رجل مثل ذلك الحيوان، فأنا أعرف ذوقه في النساء جيدًا. أعلم تمام العلم أن الشقة الخربة كانت مطمعه الوحيد من وراء هذه الزيجة، وربما كانت أمي تعلم هي الأخرى، لكنها ارتضت لأسباب تخصها. وأنا لم أكن لأفكر في الزواج معها في نفس الشقة ذات يوم على أي حال. هكذا اتخذتُ قراري بالرحيل، ولم أجد من يمكنه معاونتي على هذا الأمر غير درويش. فكرت

يومها أنها كانت المرة الأولى التي أطلب فيها الرحيل بنفسي، دون أن يُفرض عليّ، لكنني اليوم أدرك أن هذه المرة بالذات كانت فوق إرادتي وفوق قدرتي على الاختيار وإن تأخرَتْ بعض الشيء عما كنت أخطط.

تسبَّب رحيل ذلك السكير عن الورشة – إثر مشكلة المرحوم بتنجانة – في الكثير من الارتباك، فقد اضطروا إلى التخلص من بعض الآلات كي يغطّوا حصته في الورشة، مما أدى إلى اضطرابات مالية كبيرة في المكان، معظمها ناشئ عن قلة الشغل الوارد، بعد بيع الفريزة والمقشطة، ضمن الماكينات التي اضطرت الورشة إلى الاستغناء عنها، وازدياد عدد الأفراد مقارنة بالماكينات الموجودة في المكان.

قرر العديد من الصبية الرحيل لأن أجورهم قد تأخرت، وكان من بينهم كرم وممدوح للأسف.

ثم انصرف الأسطى فانوس ذات يوم ولم يعد بعدها، حتى هاتفه لم يعد يجيب، ولحق به عبده ذات يوم، فلم يبق إلا درويش وعرفان والصبي عزوز وأنا. ظللنا على هذا الحال من الجفاف حينًا، ثم أمر الله بالفرج أخيرًا، فبدأنا نرى الناس يدخلون ويخرجون من الورشة مرة أخرى.

كنا أيامها نتبادل الأدوار فيما بيننا لتذكير بعضنا البعض بحادث بتنجانة وما تلاه، فنصاب بالاكتئاب، ونكف عن الحديث، حتى يُرفع أذان أو يدخل زبون أو يطلب أحد الأسطوات طلبًا. بعدها لم نعد نأتي على ذكره إلا كما يحادث المرء نفسه، ثم كعادة الأشياء التي لا تبقى طويلًا، نسيناه.

استمر الوضع على هذا الحال لسنوات قليلة، لم تحاول أمي خلالها الاتصال بي أو القدوم لرؤيتي، أو ربما حاولت لكن زوجها منعها. ومن الوارد أن تكون خائفة أو خجلى من مواجهتي بعد أن رأيتها في هذا الوضع الصادم.

تغيرتُ أنا أيضًا كثيرًا، ولم أعد ذلك الولد الصغير البريء الذي كنته. صرت أقيم في الدكان بصفة مستديمة، واعتدت تدخين الحشيش بصحبة الأسطى درويش في أمسيات يكون العمل بها قليلًا، ولا رغبة لنا في نوم أو خروج. تعلمت منه كيف أقوم بلف السجائر، وكيف أدخن الحشيش صافيًا في أحيان أخرى.

صار ارتباطي بالحياة لمجرد أن أجلي لم يحن بعد. عرفتُ بمرور الوقت أن لكل شيء وجه قبيح، قد يكون هو الوجه الافتراضي للأشياء وليس الاستثنائي. وصادقت لصوصا وقوادين وتجار صنف وبنات ليل. وانتبهت إلى أنني بلا هويّة؛ لا أعرف من أنا ولا إلى أي شيء أو شخص أو مكان أنتمي. لا أشجع ناديًا مثلما يفعل الناس، وأراهم يتحمسون إلى درجة تبادل قذف المقاعد في مقهى الحاج شافعي. فقدتُ ارتباطي بالدين إلى حد كبير ولم أعد أصلي ولا أهتم. حتى مباريات المنتخب التي كان يحرص الجميع على مشاهدتها، كنوع من التعبير عن انتماء ما بداخلهم، لم تكن تجتذبني، وكنت أراها شديدة الإملال، وأرى الناس حمقى، يحاولون التشبث بأشياء غير موجودة ولا قيمة حقيقية لها، فقط كي يقدروا على مواصلة الحياة ولا يتوقفوا عن التنفس.

وكان أكثر ما يدهشني في المشاجرات، حين يسب أحد الطرفين الآخر من خلال سب محافظته أو بلدته، فيحمرّ الآخر انفعالًا وغضبًا، وينطلق كي يفتك بالأول، وكأنه قد أهين في رجولته أو مهنيَّته. وأسخر في سرّي من كل شيء منصرفًا إلى عملي، ذلك الشيء الوحيد الذي يحمل قيمة ما، فقط لأنني من يقوم به ومن ينال عليه استحسان الجميع في النهاية.

ذات يوم قرر الأسطى عرفان أن هذا يكفي. بوسعه الحياة بين أسرته، وهو ليس مضطرًا إلى السفر والعودة والغياب والاغتراب. فلماذا يحتمل هذه الحياة لسنوات أخرى؟

لم يصر على تصفية الورشة، بل رحب باستمرار الأمور كما هي على أن يتولّى درويش إرسال بعض المال إليه كل حين، كما كان يفعل هو معه. لكن الفكرة المفاجئة أحبطت درويش، وأطفأت في داخله الحماسة للاستمرار.

هكذا كان القرار بأن يتم إغلاق المكان والعودة إلى محافظتهما أخيرًا. وكان هذا يعني أن أفقد نقطة ارتكازي الوحيدة، وتنقطع تلك الشعرة الدقيقة التي تربط بيني وآخر شيء يمثل لي قيمة في هذا الوجود.

قال لي درويش في الليلة الأخيرة له بالورشة قبل السفر:

"لقد طلبتَ مني ذات يوم أن أعينك على الرحيل، لأنك لم تعد تصبر على الإقامة هنا. ولم أفعل لأنني رأيت مستقبلًا لك هنا في مهنتك وفي ورشتك وفي الشارعِ الذي حفظت كل أركانه عن ظهر قلب. لم يكن من السهل عليك أن تبدأ من جديد في مكان جديد، وأنت في مثل هذا السن الصغير، وعلى هذا القدر الضئيل من الخبرة الحياتية والعملية.. كان هذا

Obeikan.com

كفيلًا بأن يصنع منك لا شيء. لكنك الآن رجل في السادسة عشرة من عمرك، لم تعد صغيرًا. كما أنك أسطى خراطة قد الدنيا.. بالإضافة إلى كل هذه الحقائق، أنت لم يبق لك أي شخص أو شيء هنا بخلاف بعض الذكريات.. وهي لا تطعم خبزًا"

انتهيت من لف السيجارة، ومنحته إياها كي يفتتح الجلسة، كنوع من التبجيل؛ فأعادها إليّ وأشعلها بنفسه في إصرار، قبل أن يتنهد قائلًا:

"ما رأيك أن نرحل معًا؟ ربما أعجبتك مدينتنا، فليس كل ما تسمعه عنها صحيحًا!"

ضحكنا معًا، وأشرت إلى أنني لم أر مدينته من قبل، لكنني عرفته وعرفت الأسطى عرفان جيدًا، وهما كل أهلي وأفضل من عرفت.

"أتحدث بجدية. ما رأيك أن تجرب الحياة في مكان مختلف؟ ما المانع؟ سأكون بجوارك على الأقل، وسأجد لك عملا مناسبا، وأساعدك في العثور على مكان جيد للإقامة..

من يعلم، ربما أحببت الحياة لدينا على بطء إيقاعها وقلة فرصها. وربما تزوجت إحدى فتياتنا فربطت مصيرك بتراب تلك الأرض إلى الأبد.. لدينا فتيات على ذوقك، لا تظننا أتينا من وراء الجاموسة!"

"ماذا تقول يا عم!.. أنتم خيار الناس والله"

"إذًا قم وأعد نفسك للرحيل، ولا تترك شيئًا خلفك لأننا لن نعود.."

*****

شبرا الخيمة...

لافتة خشبية بيضاء متهالكة، حفظتُ النقوش البالية فوقها عن ظهر قلب. تبدأ في التراجع إلى ما خلف مجال بصري. لا أكلف نفسي مشقة تحريك عنقي كي أحتفظ بآخر مشهد يربط بيني وهذه الأرض.

يقلقني أن أتراجع أو أستسلم لتخوّفي من الغد، وأكره حقيقة أنني بلا وطن. حاولت أن أغمض عيني وأغيب، فلم أستطع، برغم أن نومي في الليلة الماضية كان متقطّعًا قلقًا، تتخلله الكثير من الأحلام المزعجة. محطات قطار مقفَرة خالية إلا منّي.. كلاب سوداء هائلة الحجم تطاردني وتنبح بصوت له صدى مخيف.. والعديد من الأشياء لا أذكرها لكنها كانت مرعبة بما يكفي.

حاولت تزجية الوقت بمراقبة مَن حولي في عربة القطار، فقد كان درويش غائبًا في نوم عميق من قبل أن يتحرك القطار. حشد متباين الهيئة أحاط بي في كل مكان، على المقاعد وفي الطرقات، وعلى أرفف الحقائب فوق رؤوس الخلق.

عمامات وقلنسوات شبابية، وقمصان عادية، ما بين مشمرة الأكمام ومغلقة حتى الأعناق. بناطيل بناتي مطاطة، وجونلات طويلة فضفاضة، والكثير من الجلابيب.

مزيج فريد من الروائح المنفرة عبق جو العربة الخانق، اشتركت فيه العطور الرخيصة مع روائح العرق، مع التبغ المحترق، مع ما يحمل المسافرون من أمتعة، تتضمّن ملابس قديمة أو أطعمة ساخنة أو ثمار

طازجة. مزيج عجيب، أثار ضبابًا أمام عينيّ ودفع بالحمض إلى حلقي. وافتقدتُ تواجد عرفان معنا، فربما كنا نتحدث الآن عن أي شيء، أفضل من هذا الحال، لكنه فضّل أن يسافر بالميكروباص توفيرًا للوقت وكراهية للقطارات. الآن عرفت بم كان يشعر تجاه هذه الزنازين المتحركة.

تتوالى محطات غريبة، يتحرك فيها الناس رواحًا وغدوًا، وأندهش من أن أحدًا يسكن هنا في مكان لا أعرفه ويقع خارج نطاق اهتمامي..

وسواس عجيب ينطوي على بعض الجنون، يخالجني بلا سبب كلما ارتدت وسيلة مواصلات، وبالذات مترو الأنفاق.. والآن يطاردني هذا الوسواس العجيب بقوة أكبر في القطار.. كنت أظن أن المحطات هي أماكن لراحة القطار، تبرر طول المسافة فيما بين مكان انطلاقي ومكان وصولي. مجرد ديكورات ضرورية لجعل المشهد أكثر إقناعا، لا أن تكون عامرة بالناس إلى هذا الحد! وكأن العالم بالنسبة لي هو شارعي وما يحيط به من شوارع.

أرمق محطات تعتليها لافتات خشبية متآكلة أحيانًا، وفي أحيان كثيرة أخرى لا أجدها. وكأن المسؤولين عن المحطات يعتمدون على معرفة كل شخص بمحطته الخاصة بالتأكيد.

صعد باعة الشاي والسميط والجرائد، وأشخاص يحملون لوحات كبيرة عامرة بأشياء رخيصة صغيرة. وتبعتهم قافلة من المتسولين من مختلف الأعمار وبأكثر من أسلوب. كل هذا في نفس الوقت، مما أثار موجة من اليقظة والحركة بين جنبات العربة الخاملة. أناس يهبطون وغيرهم يصعد.

والمحصّل يدور على الجميع متفقدًا التذاكر. فتح درويش عينيه متضايقًا، وتثاءب في عمق..

"أين نحن؟"

أشعل سيجارة، فناديت بائع الشاي المغلي، وطلبت له كوبًا.

"لم نصل بعد، واصل نومك"

لكنه لم ينم. استفاق على رائحة الشاي الثقيل، وبدأ في تفقد المكان ببصره، فوجدتها فرصة طيبة لغفوة قصيرة، انتقامًا منه على تركي وحيدًا.

حين استيقظت كان غياب الشمس قد بدأ في أولى مراحله. توقف القطار مجددًا، وبالمثل صعدت دفعة أخرى من الباعة، وهبطت الأولى أو توارت في مكان ما. وعلمت من درويش أن محطتنا قد اقتربت..

*****

ظلام، ورائحة هواء مكتوم هبّت علينا فور أن فتح المعلم درويش الباب المغلق منذ شهور. النوافذ بالداخل جميعها مغلقة، والسلالم من تحتنا تمتد إلى أسفل مسافة أربعة طوابق، كلها مغطاة بالتراب.

كان البيت يبدو كمأوى للأشباح والعناكب، وأكاد أقسم أن درويش قد اهتز بينما يخطو إلى الداخل ببطء، بالرغم من أنه في بيته.

"ألا يقيم معك أي شخص؟"

قال في خفوت وهو يضغط زر الإضاءة، التي سمحَت لي باستكشاف أبعاد المكان من زاويتي الضيقة:

obeikan.com

"لا أحد في البناية سوانا.. لماذا لا تدخل؟!"

انتبهت لكوني لم أزل واقفًا أمام الباب، فدلفت في حذر. بينما انطلق هو إلى النافذة الكبيرة في صدر المكان وفتحها عن آخرها، سامحًا للهواء النقي، وضوضاء الشارع المسائية بأن يقتحما الصالة الواسعة، ويبعثا في أرجائها الحياة من جديد.

"أغلق الباب من خلفك، واجلس.. لماذا أنت متخشب هكذا؟"

كانت الصالة نظيفة، خالية من الأتربة، وبدأ الهواء ذو الرائحة العطنة في التبدل فور أن أدار درويش المروحة.

"أنت الآن في بيتك. سأنال حمامًا سريعًا ثم يحين دورك.. لا أذكر إن كان يوجد في الثلاجة شيء أم لا، لكنه إن وجد فهو لن يصلح للأكل بكل تأكيد!"

أشرت إليه أنني لست بجائع، فدخل إلى حجرة جانبية وسمعت صوته يغنّي. شعرت بشكل ما أنه لا يحب المكان ولا يألفه، برغم علمي أنه قد قضى فترة طويلة هنا وحده، وبرغم علمي أن المكان مكانه قبل كل شيء.

نزعت حذائي وجوربي، وانتقيت ثيابًا بسيطة من حقيبتي، قمت باستبدال ملابسي بها ريثما يخرج. كان هناك تليفزيون لكنني لم أفتحه.

أغمضت عيني وتذكرت أمي، بالرغم مني وجدت عينيّ تدمعان. لا أريد أن أكون متحاملًا عليها أكثر، ولكنني لا أستطيع في المقابل أن أفكر بطريقة أخرى، ولا أن أنسى شعوري في تلك اللحظة. فردتُ ساقي على

الكنبة البلدي في جانب المكان، ووضعت تحت رأسي مسندًا من مساندها، وصرت أرمق السقف وأفكر. تذكرت لحظات قديمة مما مر بي مع أمي، بينما كنت صغيرًا. وتذكرت فيما بين الحزن والسخرية يوم أن أتت كي تنقذني من حجرة الفئران. حينها كان كل شيء جديدًا برغم البؤس، سليمًا برغم المرض، جميلًا برغم كل ما كان يحيط بنا من قبح. كنت طفلًا نضرًا ذات يوم، كنت ساذجًا ضعيفًا لا أعرف سوى بيتي وأمي. وكانت هي جميلة حقا، برغم ضعف حالها وصحتها المتردية. الآن لا أنا عدت ذلك الطفل، ولا بقيت هي.

أتاني الخبر منذ عدة أشهر ولم أصدق، لكنني كذلك لم أحاول أن أتيقن بنفسي. كنت أخاف أن أعود إلى البيت لأجد أمي، لكنني كنت أخاف أكثر من ألا أجدها.

لقد عرفت من خلال درويش الذي أخبره الوغد، أن الرطوبة بعدما أتت على كومة التراب التي احتمت بها أمي لعقود، قد أخذت في الزحف حتى أفنت أمي ذات ليلة. فقد استيقظَتْ في قلب الليل تسعل وتشهق بعنف وهي تقبض على صدرها، غير قادرة على التنفس، ثم أسلمت الروح خلال ثوان. من رحمة الله أن كان الوغد بجانبها في هذه الليلة، برغم عدم اعتياده قضاء الليل لديها. فقام بما يجب وأبلغني عن طريق الأسطى درويش وأخلى ذمته. تلقيت الخبر يومها بحياد تام، فقد كنت أتوقع هذا الخبر مع كل طلعة شمس.

لم أتأثر يومها ولم أبك ولم أقبل بما اقترحه درويش؛ أن أذهب لأحضر الإجراءات بنفسي. كنت أعلم أن ما حدث قد حدث وانتهى الأمر، ولم أكن أفكر في التواصل مع هذا الخنزير مرة أخرى. لكنني في الليل بكيت كثيرا، حتى أقلقت نوم الجميع.

*****

أيام قليلة قضيتها في بيت درويش، لا نفعل شيئًا. وهو لم يكن ينوي البدء في عمل جديد قريبًا، ولكن كان يجب أن يبحث لي بنفسه عن واحد.

لم أخرج إلى المدينة ولم أحب مشاهدتها، فلم أعتقد أن بها ما يثير.. لكن درويش أجبرني على الخروج لنرى الناس ونغير عاداتنا كي لا نموت.

ذات يوم استيقظت مبكرا فلم أجد درويش بالمكان. قمت وأعددت شايًا ولففت سيجارتين وانتظرت عودته، لكنه تأخر كثيرًا.. لم يعد إلا مع انطلاق أذان العصر. وجدته يحمل ببعض الأكياس البلاستيكية الشفافة. رأيتها تحتوي على بعض الطماطم والخضر..

"سأطبخ لك اليوم. لقد جفت دمائي من الجبن والبسطرمة وخبز الفينو!"

وقفت معه سعيدًا في المطبخ الصغير، أعاونه كعادتي. كنت أعرف الطبخ جيدًا، وكنت أفْضَل من صَنَع حساء العدس بين كل من عرفتهم، لكنني أحببت أن أتركه يفعل ما يريد على أن أكون صبيه مثلما كنت صغيرًا.

"لماذا تأخرت؟"

"أحد الجيران رآني فأصر أن أجلس معه قليلا.. أعترف بأنني شديد التقصير مع من يحبونني.."

"وزوجتك؟!"

وجدتني أقولها في اندفاع ندمت عليه فور نطقي بالكلمة، لكنه قال مندهشا:

"أيهما تعني؟"

"الأخيرة.. تلك التي لم تزل على ذمتك!"

استدار نحوي بكامل كيانه، وتأملني متفحصًا..

"لقد طلقت كلتاهما. لم تعد على ذمتي بعد الآن.. من قال لك هذا؟"

اندهشت بالفعل، لأنني لم أهتم طيلة هذه السنوات بالسؤال عن حياته الخاصة، واعتبرت كلمات ممدوح الأبله مصدَّقة.. قلت:

"كنت أتصور هذا.."

هز رأسه وابتسم مندهشا دون رد.. قال وهو يقطع الطماطم ويضعها في الخلاط:

"أعرف أن عرفان كان يتحدث عني في غيابي، ولا أدري ما كان يقوله للصبيان ولك!"

"هذه المرة لم يكن الأسطى عرفان، بل كان الواد ممدوح!"

"ابن المرة!.. ماذا يعرف عني وعن حياتي، ومن أين له بمعرفتي أصلا؟!"

لم أرد، فلم أكن مهتما للغاية بهذا الموضوع.. قطعت له البصلة في صمت قطعًا صغيرة، ومنحته الطبق، ثم ذهبت إلى الحوض لأغسل وجهي وعينيّ.. سمعته يقول: "هناك فرح مساء اليوم.. هذا الرجل الذي قلت لك عليه، سوف يزوّج ابنه غدًا، والليلة هي الحِنَّة كما تجري العادة. ستكون ليلة واعدة، عامرة بالمرح.. ما رأيك؟"

ابتسمتُ وفكرت أنها الطريقة المثلى للتعرف بالخلق هنا، وربما كانت فرصة طيبة لإيجاد وظيفة لي في هذه المدينة. ثم تنبّهت إلى ما يفعل فقلت في استنكار:

"ماذا تفعل يا اسطى بالضبط!"

"مكرونة! ألا تحب المكرونة؟"

"هل هذا ما تدعوه طبخًا؟! ثم إن لدينا بعض المكرونة الباقية منذ الأمس في الثلاجة بالفعل!"

توقفت يده عن سكب حبات المكرونة في إناء الماء المغلي، ورمقني في اندهاش..

"يا راجل!"

"صباح الفل يا عم!"

"هل أضيف إليها قطع الدجاج إذن أم ماذا؟"

"افعل ما ترى، أنا سأكتفي بقطعة جبن قديمة ونقطتين زيت.. أرجوك، فلست قادرًا على احتمال هذه التقلصات المعوية مرة أخرى!"

obeikan.com

ظل متجمدًا للحظات قبل أن يواصل سكب المكرونة في الإناء، ويكمل ما بدأه وهو يتمتم:

"كيف لا يحب المكرونة؟!"

*****

كانت الليلة شديدة الصخب. موسيقى هادرة تصدر من كل مكان، وشباب يرقصون في بهجة. والعديد من المناضد العامرة بالمأكولات الخفيفة، وزجاجات ستلا وسقارة وبيبسي المثلجة، يحف جوانبها ويعتليها الدخان الأزرق في كثافة تنذر بقرب سقوط الأمطار. ومقاعد أحاطت بها، جلس فوقها الرجال والشباب من أهل العروسين مع الأصدقاء والجيران.

أتى مجلسي بين درويش وذلك الرجل الذي لا يكف عن الضحك، وإطلاق النكات الفاحشة والتلميحات ذات الطابع الجنسي. كان اسمه الأسطى بركة. وكان صديقًا قديمًا لدرويش كما علمت من أحاديثهما. وهو نجار موبيليا، ورث المهنة أبًا عن جد. كان لطيف المعشر، باعثًا على المرح، ولاحظت أن الجميع يحبونه ويناودنه بعم بركة أو أسطى بركة، كبارًا كانوا أم صغارًا.

على أنني لاحظت عليه عادة غريبة بعض الشيء في التصرّف مع علبة التبغ الجديدة. تابعته مرتين خلال السهرة وتيقنت من إصراره على تكرار الأمر.

فقد كان يقوم بنزع الورقة الشفافة عن العلبة، ويفتحها ببطء وتمهّل، ثم ينزع الغلاف الذهبي من مقدمة العلبة، بعدها يقوم بسحب السيجارة الأولى

ويقلبها رأسًا على عقب، قبل أن يعيدها إلى العلبة على هذا الوضع الغريب. وبعد إتمام الطقوس، كان يسحب سيجارة أخرى وأخرى دون أن يمسّ سيجارته المقلوبة إلا حينما تصبح الأخيرة، أو حين يستخدمها في خلط الحشيش!

ولاحظتُ كذلك أنه لا يسمح لأحد بأن يختارها إن قرر أن يتناول سيجارة من علبته، لدرجة أن الأمر قد تصاعد ذات مرة وأوشك أن يتحول إلى مشاجرة، حين كان منشغلًا في محادثة مع شخص ما، ثم انتبه فلم يجد السيجارة المقلوبة في العلبة. تحير بعض الشيء قبل أن يهتف أحد الشباب بأنه قد أخذ سيجارة من علبته.

كان من المدهش أن أجده يثور بسبب هذا، ويسب الفتى بصوت عال، حتى إنه كاد أن يضربه، لولا أنه لم يشأ إفساد الجو. واندهشتُ حين علمت أن سبب ثورته لم يكن بسبب أن الفتى قد أخذ من سجائره، ولا لأنه لم يستأذن منه قبل أن يفعل؛ بل لأنه اختار السيجارة المقلوبة! تشجعتُ وملت عليه سائلاً في فضول عن سرّ ما يفعل.. ابتسم وقال إنه سوف يخبرني لاحقا، فلم ألح. حين أخبره درويش بأنني كنت أعمل معه في القاهرة، وأن أمري يهمه بشكل شخصي، قال لي:

"إن الخراطة فن جميل، لكنه للأسف لا يطعم الخبز في هذه المدينة. يمكنك أن تعمل لدى أحدهم أو أن تفتتح ورشة لك. ربما تفضل التخصص في مجال ما كالسيارات مثلًا، أو تطلق لنفسك العنان، وتريهم كل ما لديك من حيَل.."

ثم هز رأسه نفيا في أسف، وهو يقدم لي سيجارة ويربت كتفي في تعاطف..

"لكن هذا لن يجدي.. قل لي، إن طلبت منك أن تصنع لي مسمارًا بهذا القطر تقريبا.." – وضم إبهامه وسبابته في شكل حلقة – ".. لنقل ٢٥مم، طول ٢٥ سنتيمترًا.. خطوة سن ١,٥، والسن بطول ١٠سم. تراه كم يتكلف إن أضفنا أن الخامة من عندك؟"

انتهى من السؤال العجيب المفاجئ، وطفق يتأملني في اهتمام كبير. ووجدت الجميع يفعلون كذلك.. قلت في جدية:

"نحاس أم ألومينيوم؟!"

هنا انفجر الجميع في الضحك الهستيري، بما فيهم درويش ذاته، لم أفهم سوى أن هناك خدعة ما في الأمر.. ابتسمت في بلاهة، فربت الرجل كتفي مجددًا وقال:

"يا بني، إن ما تجنيه من الخراطة في القاهرة، لن تستطيع تحقيق ربعه هنا، ليس لقلة العمل، ولكن لأنها مهنة غلبانة في هذا البلد، لا تحظى بما يليق بها.. هنا إن أردت أن تعيش، فعليك أن تتعلم شيئًا من ثلاثة.."

تدخل درويش قائلًا في أسف وهو يعد على أصابعه، مرددًا ما بدا وكأنه سمعه مرارا وحفظه عن ظهر قلب:

"النجارة.. التجارة..."

سارع بركة بإكمال الجملة:

".. أو المشي البطّال!"

ومن جديد انفجر ضجيج الضحك الصاخب فوق المائدة، يدعمه دخان الصنف ويزيد من حدته، وكنت هذه المرة أضحك معهم.

شربنا كثيرًا كالأسماك. ولم أرفض أي دعوة، حتى شعرت بأنني منفصل عنهم، أراهم وأسمعهم لكنني غير موجود.

صارت الدنيا أشبه بشاشة تلفاز عملاقة يشوبها بعض التشويش. في نهاية السهرة قال لي بركة بصوت غائب، إنه سوف ينتظرني غدًا في ورشته في أي وقت، وأن درويش يعرف السِّكة. هززت رأسي وصافحته مبتسمًا، ثم حيينا الجميع. انتظرتُ درويش على قمة الشارع ريثما يحيي والد العريس لآخر مرة قبل الذهاب، ثم انطلقنا نحو البيت يسنّد أحدنا الآخر.

*****

حاولت إقناع نفسي بأن كل بقاع الأرض سواء، وكل الناس سواء. وصرت أقول في سرّي: فقط امنحني فراشًا ومطعمًا قريبًا، وضعني على أي خط إنتاج. هكذا الحياة لا أكثر ولا أقل.

كنت أقاوم أفكارًا حمقاء تلح بداخلي من حين إلى آخر، فتُفقدني القدرة على التركيز والاستمرار.. أفكارًا تدور في نطاق الهدف والأهل والوطن والتميّز والاختلاف. تلك أشياء تقطع الأرزاق وتجعل المرء يكره حياته ونفسه وكل شيء، لا يرضى ولا يستريح له بال.

obeikan.com

كانت تلك أفكار قرأ عنها درويش وحدثني عنها كثيرًا. وكان درويش مفكرًا وفيلسوفًا كبيرًا، صاحب رأي وله كلمة في كل موقف، لا يخشى التعبير عنها وقولها صراحة مهما كانت غريبة أو شاذة. في بيته رأيت مكتبة تضم الكثير من المؤلفات العربية والمترجمة، مؤلفات أدبية وكتب في السيرة والتاريخ والفن والسياسة. وفاجأني بأنه يكتب الشعر أحيانًا، وحين قرأ لي منه بعض المقاطع ألفيته حلوا جذابا، برغم عسر فهمي لبعض المفردات. وكان ذلك هو سرّه الكبير الذي لا يحب الحديث عنه كثيرًا.

كان يحكي لي عن أيام مضت على مصر، كان يحكمنا فيها الملك ومن قبله السلطان ومن قبله الفراعنة. وعن فترات الاحتلال الكثيرة والحملات الاستعمارية التي نهبتْ ثروات هذه الأرض، وسحقتْ خيراتها، وخبأتْ خيرة رجالها تحت التراب.

وكان موضوعه المفضل هو البطولة. كيف يمكن لأي شخص عادي أن يكون بطلًا، وليس فقط البطل هو الذي يحمل السلاح ويقتل الأعداء، أو يحصد الميداليات. إن المجتمعات الفقيرة الجاهلة، المنساقة إلى أقدارها المجهولة في استسلام كمجتمعنا، هي التربات الأكثر قابلية لظهور الأبطال..

"من يفكر في بلد مثل بلدنا، أو يتخذ قرارًا ويصرّ على تنفيذه، أو يتبنى قضية ما مهما كانت تافهة في عيون الآخرين، هو بطل، إن قورن بشعب من الخراف الضالة العمياء.. إن صوتك العادي إن استخدمته وسط تجمّع من الخُرس، فستكون أسطورتهم التي تتناقلها الأجيال. حاول أن تتميّز عمن

حولك وأن تختلف. أنا خراط وعرفان خراط وفانوس خراط.. كلنا نعمل على نفس الماكينات ونستخدم نفس الأدوات ونُخرج نفس القياسات، هذه حقيقة. ولكن تظل فكرة أن يأتي أحد الزبائن كي يطلب من عرفان أن ينهي له هو بالذات أحد الأعمال، حقيقة أخرى.

أنت لست دمية ولا عبدًا ولا رقما في دفاتر هذا البلد، إن آمنت بذلك فسيؤمن بك الآخرون. قد تجد بعض الصعوبة في تقبل الكثير والكثير من السلبيات، لكن هذا أفضل من اعتبار الوضع الخاطئ هو الوضع الافتراضي الصحيح. إن الأنبياء كانوا أشد الناس حرصًا على الحق، وكانوا كذلك أكثر من تعرضوا للإيذاء البدني والنفسي، لكن أحدًا منهم لم يترك قضيته وينساق إلى الكفر السائد، بل قاتلوا حتى الموت، وحتى من فكر فيهم في الرحيل، عاد بعد أن عاد إليه الصواب، وفطن إلى سبب وجوده الحقيقي على هذه الأرض. كن نبيًا مثلهم، أو على الأقل حاول.. إن أشد الناس قسوة، هم أشدهم كفرا بالحياة.. والسبب أنهم فقدوا أسباب تمسكهم بها، ولم يعد لديهم ما يخسرونه.."

كنت أفكر في هذا الكلام، ولا أعرف إن كان لدى الأسطى درويش سببًا للتمسك بالحياة، أو هدفًا يحيا لأجله أم لا. لكنني كنت متأكدًا من أنني لا أملك ولا حتى ربع هذا الهدف. كنت أحيا لأنني آكل وأشرب وأتنفس.. تلك هي أسبابي، وإن لم يكن الجوع والعطش لما بقيت يومًا على قيد الحياة.

صرت أعمل في ورشة الأسطى بركة، أقوم ببعض الأعمال الهامشية، مثل فتح المحل والتنظيف وكنس النشارة وتحميل السيارات وترتيب المخازن، وفي آخر اليوم كنت أنام في مكاني مهدودًا، وقد عاد بي الزمن إلى سنوات مضت. وكأن الفترة ما بين مغادرتي بيتي لأول مرة واليوم؛ لم تكن، أو على الأكثر كانت مجرد فترة تجريبية.

وصارت لقاءاتي بدرويش تنحصر في ليالي الخميس التي يشاركنا فيها بركة أحيانًا، فنلتف حول قطعة حشيش نفتك بها في صمت، ثم ننام دون أن نتحدث كثيرًا، لأن الحديث سوف يكون حول العمل بطبيعة الحال.

كان اللقاء هو الهدف، ووجود درويش هو الرابط الوحيد بيني وعالم أعرفه جيدًا. وحين يبدأ أسبوع جديد، كنت أنطلق إلى العمل بأثر طفيف من المخدر الذي أتلقاه أسبوعيًا، فأصبر على غربة الناس والأماكن والزمن والمفردات والعمل وكل التفاصيل.

لم يكن ذلك المخدر شيئًا أدخنه أو أستحلبه، بل كان مجرد تواجدي في مكان واحد لساعات قليلة مع درويش، هو ما يمنحني القدرة على المقاومة لأيام، ويُنسيني بعض همومي أو يقلل من حدة ألمها. فقد كنت أطمئن به إلى أنني لم أزل أنا، وأن هناك عالمًا حقيقيًا أنتمي إليه، وهو كان دليلي على هذا ومؤشر بوصلتي ونقطة ارتكازي. فقط ليومين أو ثلاثة تسير الأمور بشكل شبه طبيعي، قبل أن تبدأ أعراض الانسحاب في الفتك بروحي ببطء، ثم بعنف، فأنام في كل ليلة وأنا أحلم بانتهاء الأسبوع بسرعة.

ولكن حين قرر درويش أنه لن يقيم في المدينة لفترة أطول، لأنه قرر الانتقال إلى الإمارات بغرض الإقامة المستديمة بجوار بعض أصدقائه، حينها بدأت مرحلة الانهيار.

ودّعته بحرارة ولم أعرف إن كان رحيله يعني أن بقائي هنا لم يعد له معنى، باعتباري ضيفه.. لكن مفاتيح ورشة بركة القابعة بجيبي، وحقيقة أن هذا هو آخر مكان على الأرض أملك فيه أي شيء، أقنعاني بالبقاء إلى حين إشعار آخر.

شهور قليلة مرت عليّ هنا بعد رحيل درويش، أقاوم أفكاري وأقاوم كل شيء، وأحاول إقناع نفسي بأن الحياة ما هي إلا عمل ونوم وبعض الدخان، حتى النساء صرت زاهدًا فيهن، ونسيت كيف يستمتع الناس ويمرحون ويسعدون. أنا رقم وترس ومسمار صدئ في ماكينة عملاقة بدأت مرحلة التكهين. لكنني لازلت متصلًا بالماكينة، لم يتخلص مني عمّال الصيانة بعد على أي حال.

*****

في ذلك اليوم طلب مني الأسطى بركة أن أترك ما بيدي وألحق به في المقهى القريب، ثم سبقني.

وضعتُ المكنسة جانبًا، وخلعت عني معطف العمل، ثم ذهبت فوجدته يجلس وحيدا شارد الذهن، أمامه الشاي يتصاعد منه البخار، وطاولة زهر مغلقة. كانت الشوارع مزدحمة بشدة، فقد كان اليوم هو السبت، يوم السوق الأسبوعي، حيث يفد إلى المدينة معظم قاطني القرى المحيطة من

Obeikan.com

أجل الحصول على ما يحتاجون إليه من ثياب رخيصة الثمن أو عطور أو أشياء مستعملة. حين وصلتُ ووقفتُ أمامه ملقيًا السلام، سألني إن كنت أحب الجلوس بالداخل، بعيدًا عن هذه الضوضاء، فوافقت وساعدته على حمل الطاولة إلى الداخل، وأخذ هو الشاي ولحق بي..

"هات قهوة لحامد يا شمّامة.."

واستدار نحوي يسألني عن نوعِ قهوتي، فقلت بهدوء إنني لا أشربها.

"مضبوط يا شمّامة!"

واستدار نحوي مرة أخرى يسألني في فضول:

"هل تعرف لعب الطاولة؟"

كان فانوس وعرفان وعبده يلعبون الطاولة، وكان عبده يربح دومًا، لكنه فشل في تعليمي. الذي علّمني لعب الطاولة هو درويش.. هززت رأسي إيجابا، فقال وهو يهز رأسه بدوره:

"كنت ألعب مع درويش كل ليلة، وكان الوحيد الذي يقدر على هزيمتي. عادة أو محبوسة، لم يكن يرفض، برغم أنه يمل سريعًا من الأولى. حين رحل أول مرة كففتُ عن اللعب بعد مدة، لأنني لم أجد من يستطيع مجاراتي. أما حين رحل هذه المرة فقد ترك فراغًا كبيرًا، أكبر مما يمكن لك أن تتخيل. برغم أنه لم يقض سوى شهرين غائبًا إلا أنني أشعر وكأنني لن أراه مجددًا..

obeikan.com

في المرة الأولى كان الأمر أسهل. هذه المرة أشعر بأنني لا أستطيع اللعب ولا الأكل ولا العمل، حتى الحشيش لم يعد له طعم.. لماذا يتركنا الناس الأكثر أهمية طيلة الوقت ويرحلون، بينما يبقى الذين يجب عليهم الرحيل، ويتمسَّكون بنا إلى الأبد؟!"

بدا حزينًا بشدة، حتى إنه لم ينتبه إلى كون حديثه يمسسني بشكل ما. وعرفت أن كلماته ليست كلمات أراد قولها فقط. لقد شعرتُ بحاجته إلى الحديث معي أنا بالذات، ربما لأنني تراث صديقه الوحيد الذي بقي له. هو يعرف أنني أحب درويش وأعتبره بمثابة أبي. درويش أيضا أوصاه بي كثيرًا قبل سفره، وقال له "لن تعرف أي كنز تركت لك، حاول أن تحافظ عليه. وأن تعتبره *أنا* كلما احتجت إليّ".. تأملتُ وجه الأسطى بركة قليلا وهززتُ رأسي ثم قلت محاولًا انتزاع ضحكته القديمة من بين أنياب البؤس:

"هل تحب أن أسافر أنا بدلًا من درويش إلى الإمارات، وأعيده إليك؟!"

هز رأسه ببطء، ثم انتبه إلى كوني أمزح فابتسم، بينما أحضر الصبي شمّامة كوب القهوة الذي اعتاد درويش طلبه.. سألته في اهتمام:

"مضبوط يا شمامة؟"

"مضبوط يا اسطى.."

قلت وأنا أطلق تنهيدة الخلاص:

"حمدًا لله، فأنا لا أشربها سكر زيادة على الإطلاق!"

ضحك بركة وهو يفتح الصندوق الخشبي، وقال مناولا إياي سيجارة:

"جربها، ستعجبك.. دعك من الورشة، فإن العمل كما ترى. والأولاد هناك يستطيعون إدارة المكان حتى نعود.. هلم لتريني ماذا علّمك درويش!"

لم تكن تصرفاته منطقية ولا طبيعية، وفكرتُ أنها قد تكون طريقة جديدة للتعبير عن أنه لم يعد يحتاج إلى وجودي في المكان. وإن كنت شخصًا آخر لصرفني بالحسنى وبأقل عدد من الكلمات. لم يكن يمثّل لي هذا عائقًا، فقد كنت أحتفظ بأموال قد ادخرتها وأتيت بها من القاهرة، كما أن نسخة من مفاتيح بيت درويش كانت معي، وحتى وإن ضاقت أكثر فإن محطة القطار ليست ببعيدة. مجموعة من الأفكار التي تداعت إلى ذهني بلا أساس منطقي، ملأت عقلي وأهّلتني إلى الخطوة التالية: يكفيني خداعًا لنفسي، فليس هذا مكاني ولا هذه أرضي ولا هذه مهنتي.

رحت أرصّ الأحجار في صمت، وتناولت منه السيجارة، قبل أن أنتبه إلى العلبة المفتوحة:

"ألم يحن الوقت كي تخبرني عن سر سيجارتك المقلوبة؟"

ضحك وقال متناولًا الشاي، ونفث فيه دفقة من الدخان قبل أن يقول:

"إنها حكاية قديمة، منذ أيام التجنيد. كان لدينا قائد شديد الصرامة يخشاه الجميع، يعني نداؤه أن مصيبة حتميّة في الطريق. وكان أحد الصولات لدينا بلدياتي، من هذه المدينة، لكنني تعرّفته بالداخل وصرنا صديقين. لاحظت أنه يقلب سيجارة من علبته ويدخن غيرها، وحين سألته عن السبب، أخبرني أنها سيجارته الجالبة للحظ الحسَن. كان يتركها في العلبة حتى يأتيه خبر أن القائد يطلب رؤيته. حينها فقط كان يخرجها في

طريقه إلى مكتب القائد ويشعلها، مؤمنًا أنها سوف تساعده على تلقي أخبار جيدة، أو على الأقل ستحميه من بطش هذا القائد! قالها بثقة شديدة، ولم يكُف عن ذلك الفعل، برغم أنه في كل مرة كان يتلقى اللوم أو الإهانة على أحد الأفعال التي ارتكبها جندي مستجد تحت إمرته.."

وابتسم ملقيًا بحبات الزهر، وبدأ في رص الأحجار، ثم أتبع قائلا:

"تعجبتُ من إيمانه العميق بهذه الفكرة الخرافية، لكنني أحببتها وقلّدته من بعدها. وصرت أشعل السيجارة المقلوبة كلما ضاق بي الحال، أو شعرت بالحاجة إلى خبر سعيد.."

هززت رأسي في اهتمام، وتناولت الزهر لألقيه.. أتبع:

"ذات يوم أصاب والدي المرحوم مرض ألزمه الفراش، ووحدي كنت أعرف أنه الموت، ولا أعلم من أين أتاني هذا اليقين. ظل في المستشفى لأيام ثم سَمح له الطبيب بالعودة إلى البيت مع الراحة، فقد كانت شقيقتي الكبرى ممرضة وتعرف ما يجب عليها عمله، ووعدَنا بزيارة قريبة خلال أيام. طيلة هذه الأيام كنت أنتظر الخبر المخيف وكأنني أعلم. لم أتوقف عن التدخين وانخفض وزني بشدة، حتى إن شقيقتي صارت قلقة بشأني أكثر من أبي الراقد في الفراش بلا حراك.

في تلك الأيام كنت أدخن يوميًا من علبتين إلى ثلاث، ولم أكن أتناول طعامًا تقريبًا، وقيل إن نوعًا من الجنون قد أصابني في هذه الأيام السوداء، فصرت لا أقابل أحدًا ولا أنزل إلى العمل ولا أهتم بالاستحمام أو حلاقة لحيتي التي نَمَت.

لكنني لا أذكر من هذه الأيام إلا شيئًا واحدًا، وهو أنني كنت أجمع السجائر المقلوبة في نهاية كل علبة وأضعها جانبًا في علبة مستقلة فارغة، بجانب أخواتها، حتى تكوّنت لدي علبة كاملة من سجائر الحظ!

وصعدتُ فوق سطح بيتنا وأغلقت دوني حجرة الغسيل، ولم أخرج إلا في اليوم التالي بعد أن أتيت عليها بالكامل.. كنت أتمنى أن ينهض أبي وأموت أنا.

فور أن نزلتُ من السطح علمتُ أن أبي قد مات. كانت أصوات النواح والعويل أشد مما تحتمل أعصابي المنهارة.

لم أصدق كل هذا، وتصوّرتُ أنهم قد وقعوا في خطأ ما. لكن الطبيب أكد لي الحقيقة بأسف وسألني أين كنت؟ لقد بحثوا عني كثيرًا دون جدوى طيلة الليلة الماضية. بعدها لم أكف عن عادة سيجارة الحظ، لكنني صرت متأكدًا من أنه لا يوجد حظ جيد وآخر سيء، فقط توجد مصائب، وهي تقع طيلة الوقت. لهذا كان الاستخدام الوحيد المنطقي لهذه السيجارة هو فركها على قطعة من الحشيش!"

ساد الصمت طويلًا دون أن أقدر على رفع عيني من على وجهه، تناول هو رشفة أخيرة من كوب الشاي ووضعه جانبًا، قبل أن يقول مبتسمًا في النهاية:

"دورك يا اسطى!"

obeikan.com

ناهد

لم يكن أبي مجنونًا كما كان يحلو للبعض أن يصفه، ولم تكن تصرفاته تنطوي على سفه أو غباء أو قلة إدراك.. كلنا يعرف أنه كان مسرفًا في تدخين المخدرات، وكان يقول لي أحيانًا إنه يحبني وأخي بنفس قدر حبه للحشيش!

ولم يكن يكف عن الضحك والسخرية حتى في أحلك لحظاته، وكأن الحياة بأسرها لا تحتوي على ما يثير اهتمامه. كان كذلك لا يأنف مصادقة من هم في عمر أبنائه، ولا يعترف بتقاليد بالية أو يلقي بسمعه إلى كلام الناس. طالما اختلف معه أعمامي حول أسلوب تربيتنا، وكان شديد الحزم تجاه هذا الموضوع، فلم يسمح لشخص واحد بالتعليق على شؤونه الخاصة. استنكر الناس أنني أخرج إلى المدرسة وحدي، وأقدم الشاي للضيوف بنفسي، ولم يكن هذا يعجب أحدًا. لكنهم كفّوا منذ زمن عن إبداء ملاحظاتهم حول تصرفات أبي، دون أن يتنازلوا عن فكرتهم حول قلة عقله أو مدى حفاوته بالتقاليد والأصول.

obeikan.com

أنا وحدي من كنت أعرف هذا الرجل حق المعرفة. وأستطيع أن أقسم على أنني لم أرَ رجلًا في عقل أبي وحكمته ورجاحة عقله. دعك مما سمعت، وصدقني. لو كان عم درويش هنا ولم يسافر، لكان هو الأقدر على الحديث عن أبي. عم درويش هذا هو صديق أبي الوحيد تقريبًا، وحين لا يكون مقيمًا في المدينة، كنت ترى أبي مختلفًا عما اعتدت. يصبح قليل الاختلاط بالناس، لا يقضي كثيرًا من الوقت على المقاهي، ولا يلبي كل الدعوات للسهر إلا بحسب ما يقتضي منه الواجب. وكنا نراه لوقت أطول مما يكون عم درويش هنا، فكان ينتهي من العمل بالورشة، ثم يعود إلى البيت مباشرة.

يحب أن يطفئ أضواء حجرته ويشعل مصباح الشرفة الخافت، فيجلس على الأرض، مديرًا المذياع على أي محطة تبث أغنية قديمة، ويا سلام لو كان عبد الوهاب.

تقدم له أمي كوب الشاي ثم تنسحب بهدوء إلى الفراش. ويظل هو في جلسته وحيدًا حتى ما بعد منتصف الليل بقليل، يستمتع بالهواء وبأنفاس الجوزة العطرة، التي كثيرًا ما كنت أتسلل إلى ما وراء خصاص الشرفة كي أسترق منها بضع نفحات.. كنت أكره بشدة رائحة التبغ المحترق، فقد كانت تصيبني بغثيان وترفع من ضغط الدم لديّ، لكن رائحة الحشيش كانت عطرية لطيفة، تهدي إليّ بعض الصفاء. أما حين يعود عم درويش من سفرياته المتعددة، فكنت ترى *أسطى بركة* آخر تماما، يضحك كالأطفال، ولا ينام تقريبًا. وكنت ألاحظ عليه في تلك الأوقات هدوءًا نفسيًا محببًا،

واستقرارًا صحيًا ملحوظًا، فكانت نوبات السعال المزمن تقل كثيرًا، وكان يستعيد بعضًا من وزنه المفقود، ويبدو كمن عاد به الزمن عدة سنوات.

أحببت في أبي شدة إخلاصه لعم درويش، ولم أسمعه يومًا يقول في حقه كلمة سيئة، حتى في أثناء بعض المرات التي كانا يختلفان فيها، وربما يصل بعضها إلى قطيعة مؤقتة، سرعان ما تزول.

اعتاد أبي أن يجلسني إلى جواره، ويظل يقرص وجنتي ويربت كتفي كأنني بعد في الخامسة، وهو يردد على مسامعي أغنيات قديمة من تأليفه وألحانه. كانت هذه هي طريقته القديمة في إرسالي إلى عالم الأحلام، بعد ساعات طويلة من الشقاوة أو الزن. حرصَ طيلة عمره على أن أعرف كم أحبني، وكيف أنه اعتبرني الدرة التي رزقه بها الله من بعد طول جفاء وحرمان. وكثيرًا ما كان يقول لي:

"والله يا قطتي يا صغننة، انتي حنيّة قلبك وجمالك دول ما يتقدّروا بكنوز الدنيا.. لو جابوا لي ألف ولد، ما يساووا كلهم على بعض الشريطة اللي في ضفيرتك دي"

بعد أن وضعتْ أمي، أخي الصغير نادر، صارت صحتها في أسوأ حال. لم تكن صغيرة أيامها، وأتى نادر نتيجة سهو منها. ولكن أبي كان يردد على الدوام إن نادر أجمل *غلطة* في الدنيا.. كان أبي يحب إنجاب البنات أكثر، حقيقة وليس ادعاء. لكن هذا لم يجعله يتلقّى نادر بقدر من المحبة يقل عما نالني. وكان كل ما يؤرقه هو صحة أمي المتردية باستمرار. كانت تتحرك وتقضي معظم أشغال البيت بنفسها، وكانت تنزل إلى السوق وتذهب إلى

obeikan.com

زيارة جدتي كل فترة. لكنني كنت أراقبها حين تنفرد بنفسها، فتتمدد على الفراش وتظل تتأوه بصوت مكتوم حتى يغلب النوم ألمها.

بعد المرحلة الإعدادية كان مجموعي صغيرًا، فطلبت من أبي أن يقدم لي في مدرسة التمريض العسكري مثل عمتي رحمها الله، لم يوافق حين علم أنني سأضطر إلى ارتداء جونلة قصيرة لا تبلغ ركبتي. لم أكن محجبة، لكنني لم أعتد ارتداء تلك الأشياء الملفتة. وكانت المدرسة التجارية بنات في شارع الكوبري القديم، من أسوأ ما رأيت من حيث الانفلات والإهمال. فلم يبق إلا دراسة التمريض في المدرسة الملحقة بالمستشفى العام، بشارع مجلس المدينة.

لم أحب هذا، نظرًا لحالة المستشفى بالغة السوء من الناحية المعمارية والإدارية، لكنني كنت مضطرة إلى القبول بما هو متاح. ومما خفف من كآبة الأمر، أنه قد سُمح لي أخيرا بالذهاب إلى منطقة وسط البلد، التي تتمتع بشوارع نظيفة ومحال تجارية مثيرة للغاية، بواجهات زجاجية لامعة تُفصح عن معروضاتها الثمينة، من ملابس وحليّ وأطعمة ذات علامات تجارية شهيرة، ومعظم هذه المحال مكيفة الهواء، وبها عاملات وعمال شديدو الأناقة يبتسمون للجميع.

مع الوقت استطعت تكوين عدة صداقات بالمدرسة، لكنها كلها صداقات من النوع الطيّار، الذي لا أملَ في دوامه. أنا أعرف جيدًا كيف تتصاحب البنات، وكيف تتفرقن في أقرب مناسبة بعد الخطوبة، وكأنها صداقة ورقية لا يسعها الصمود أمام أول موجة. أعرف أيضًا كيف تنظر

الفتاة إلى أخرى تفوقها جمالًا، وكيف تشعر حيالها، خاصة إذا ما كان تعبير الآخرين عن هذا الجمال يتم بشكل علني مثير للاستفزاز، سواء كان الآخرون شبابًا أم فتيات. وعلمتُ أن بعض الصديقات لبعض الوقت، خير من لا شيء على الإطلاق.

هكذا مرَّ العام الأول بلا أحداث تقريبًا. وكانت الدراسة بداية من العام الثاني تتراوح ما بين مبنى المدرسة، المكوّن من طابقين في نهاية الفناء الخلفي للمستشفى، ومبنى المستشفى الرئيس. حيث كنا نصعد ويتم توزيعنا من خلال الريّسة فايزة على أقسام الجراحة أو عنابر الطوارئ، فنلتقي بأطباء الامتياز الذين أثاروا اهتمامنا أكثر ممن سواهم. شباب صغار تزيد أعمارهم عنا قليلًا، لكنهم أجهل منا بما ينبغي عمله، ربما بسبب التوتر الجم الذي يفرضه حضور أحد الرؤساء أو الأطباء القدامى عليهم، فيجعلهم أكثر عرضة للوقوع في الأخطاء البديهية.

كنا نحن مسؤولية ميس فايزة أو الريسة فايزة، كما كانت تطلب منا أن ندعوها، وكانت هي الوحيدة التي تمثل لنا مصدرا للقلق أو التوتر.

انخرطت بعض الفتيات في علاقات عابرة ببعض الأطباء الصغار هنا، ودون قلق أو حياء كن يأتين إلى الفصل ويتبادلن الحكايات حول أحداث ليلة الأمس، وكان من المعتاد أن أرى اثنتين تتعاركن بشراسة، بسبب أن إحداهما قد حاولت التقرب من طبيب يخص الأخرى. وكنت أندهش من كونهن يتعاملن مع أطباء المستشفى وكأنهم أسرى حرب، أو غنيمة يجب تحرّي العدل في تقسيمها!

لم أكن أخجل من رواية تلك الوقائع بتفاصيلها على مسامع الأسطى بركة، وكان في كل يوم يجلسني إليه ويسمع مني كيف كان يومي. لم أفعلها بداعي الإجبار أو الواجب، لكنني كنت بالفعل أستمتع للغاية بتبادل النقاش معه، والانتفاع برأيه المدهش، وأفكاره المتجددة، التي في الغالب لم تكن لتراود عقلي. أحيانا كنت أحب أن ألف له سجائره بنفسي، لأريه كم أنني ماهرة في كل ما يهتم به من شؤون، فلم يكن يمانع.

ذات يوم عدت باكية من المدرسة، وأغلقت دوني الباب، ونمت بملابسي وحذائي.

كانت المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا، ولم أصدق أنني قد تصرفتُ بهذا الحمق. كنت أجلس وحيدة في حجرة الممرضات أثناء راحتي، حين فوجئت بأحد الأطباء الجدد يقتحم الحجرة دون استئذان. حين رآني تسمر حينًا، واعتذر لأنه دخل الباب الخطأ. وسألني متلعثمًا عن باب الصيدلية، راقني منظره بشدة، لأنني لم أقابل شابًا خجولًا إلى هذا الحد من قبل. فأجبته بأنه الباب الأول على الجهة الأخرى من نافذة الصرف. كان شديد الوسامة والأناقة معا، لكنه كذلك كان شديد التوتر، وكان جبينه متعرّقا بشدة.

تلقّى إجابتي، لكنه لسبب ما لم ينصرف مباشرة. لاحظت في اهتمام أنه يتأمل ملامح وجهي وتصفيفة شعري ومعطفي الأبيض بكثير من الاهتمام، وكأنه يعتزم حفر الصورة في ذاكرته إلى الأبد. للمرة الأولى برغم تعرّضي لمعاكسات عديدة ومواقف مشابهة، لم أجد الأمر سخيفًا إلى هذا الحد.

obeikan.com

ربما لأنه كان أشد وسامة ممن حاولوا التقرب إليّ من قبل. وربما بسبب توتره وخجله الغريبين.. بالنهاية قال بعدما حرر لسانه بصعوبة:

"شكرًا لك.. أعتذر مجددًا"

"لا بأس، يمكنك السيطرة على أنفاسك قليلًا، فيبدو أنك قد قطعت المسافة من محطة القطار إلى هذا الباب عدوًا! هل تريد بعض الماء؟"

اندهشت كثيرًا من تصرفي على هذا النحو، لكن شيئًا فيه قد اجتذبني بشدة، وطالبني بتأجيل لحظة ختام الموقف قليلًا.. هز رأسه في شكر، وتقدم متناولًا مني زجاجة المياه، وهو يجفف عرقه على عجل..

"أنت شديدة اللطف حقًا.. وشديدة الجمال، ما اسمك أيتها الحورية؟!"

ارتج علي، وتجمدتُ في موقفي لا أبدي حراكًا، ولا أستطيع النطق.. تقدم خطوتان وهمس في انفعال دون أن يبعد عينيه عن عينيّ:

"لا أعرف إن كنا قد نلتقي مجددًا، أم.."

ولم يتم عبارته، فقط مال علي شفتيّ دون إنذار، وأودعهما قبلة خفيفة متمهّلة بطيئة، ارتفع معها معدل نبضي إلى حد غير مسبوق. ثم ابتعد متراجعًا في خطوات مهتزة إلى الخارج..

"يا إلهي.. إنك حقًا جميلة"

قالها وكأنه خارج من حلم مدهش. انبهار شديد وأنفاس محتبسة.. وظل يتراجع بظهره إلى الخارج، لا يقدر على مفارقة وجهي بنظراته المذهولة. لدقائق طويلة، ظللتُ على نفس الحال، واقفة أرمق الباب الذي أغلقه من

خلفه في ذهول لا يقل عن ذهوله. لا أقدر على الحركة ولا أستطيع النطق بكلمة، حتى دخلَتْ إحدى الزميلات ووجدتني على هذا النحو..

"بت يا ناهد! دي ماتت ولا إيه؟ مالك يا بنتي، ما تنطقي؟!"

عندها فقط استطعت تخليص نفسي من هذه الحالة العجيبة، فالتقطت حقيبتي وهرعت مغادرة المكان دون أن أتخلص من معطفي، فقط انطلقتُ في سرعة إلى البوابة الخارجية، وأوقفت أول سيارة تاكسي. أمليت السائق عنواني بصوت واه، ودفنت وجهي في مسند المقعد الأمامي أحاول استيعاب ما حدث. وبعد أن انطلقت السيارة وانعطفَتْ إلى الشارع التالي، هنا فقط استطعت أن أدير رأسي نحو الخارج وأرمق الطريق من خلال النافذة. ثم لم أجد ما أفعله سوى البكاء في صمت.

*****

استيقظتُ بعد العصر، أشعر بأنني لست على ما يرام، كانت حرارتي مرتفعة قليلًا، ورأيت وجهي في المرآة يكاد يشتعل لفرط حمرته. لم يقترب مني أحدهم من قبل إلى هذا الحد، ولا أفهم حتى الآن كيف تم الأمر، ولا كيف جرؤ، ولا كيف تسمرتُ هكذا، دون أن أصفعه على وجهه أو أرفع صوتي وأصنع له فضيحة.

وقفتُ أمام المرآة أراقب ملامحي وأحاول تهدئة أنفاسي المضطربة. رفعتُ أصابعي وتحسستُ ببطء وتردد شفتيّ، موضع قُبلته. فانتابتني رعشة قوية، وكأنني مسستُ أسلاك كهرباء عارية. حين خرجتُ إلى الصالة، كان أبي جالسًا في الشرفة يتحدث مع عم درويش ويضحك بصوت عال

كعادته، وجدتها فرصة طيبة لأغسل وجهي وأحاول الظهور بمظهر طبيعي، وكأن كارثة لم تقع. بعد انصراف عم درويش، ناداني أبي في الشرفة، وأجلسني أمامه يتحدث عن لا شيء. أنا أعرف أبي جيدًا حين يريد مجالستي ولا يكون لديه موضوع محدد، في هذه المرة وجدته يرمقني بثبات وكأنه رأى ما حدث. كنت قد بدأت في الاهتزاز بسبب نظراته المسلّطة على وجهي، لابد أنه يستطيع رؤية أوردتي العنقيّة وعظام جمجمتي وعضلات وجهي الآن. وكإجراء دفاعي، سألته في مرح وأنا أغتصب ابتسامة، حاولت قدر الإمكان أن تبدو طبيعية:

"لماذا لم تدعُني يومًا لتجربة هذا الشيء، أم إنه للرجال فقط؟!"

لم تبد على وجهه ملامح دهشة ولا غضب، فقط قال في بساطة وهو لا يكف عن التحديق في وجهي متفرسًا بذات الأسلوب:

"كلا، ولكنك لم تطلبيه.. هل تودين تدخين الحشيش؟!"

"أنا أحب رائحته، لكنني أخاف أن يخرجني عن وعيي، فلا أعرف ماذا أقول أو أفعل.."

هز رأسه ببطء، وشرع في لف سيجارة جديدة، أشعلها في صمت. بعد وقت طال، مددت إليه يدي في تردد..

"هل تعنين هذا حقا؟ إن علمَتْ أمك ستقتلنا معا!"

ومنحني السيجارة بذات النظرة المتفحصة، تناولتها منه مندهشة ومترددة، في انتظار الصفعة أو الصيحة الهادرة، لكن أيًا من هذا لم

يحدث.. قربتها من شفتيّ وسحبتُ ببطء، فامتلأ فمي بالدخان وشرقت. طردته بعنف وأنا أسعل، مما أشعل النار في حلقي وصدري، وأطفر الدمع من عينيّ..

"تبا لهذا!"

أعدت إليه السيجارة بيد مرتجفة من السعال، وتناولت رشفة من زجاجة مياه كانت بجواري، ثم أسندت ظهري إلى سور الشرفة ومسحت وجهي بكفيّ ضاحكة..

"لا أصدق أنني فعلت هذا، ولا أنك سمحت لي بهذا"

بدت على وجهه ابتسامة شبحية صامتة لثوان، قبل أن يقول:

"ألم يحن الوقت لأن تروي لي ما حدث معك اليوم، ولِمَ عدت مبكرة؟"

رمقته بنظرة مستسلمة لثوان، ثم رويت له كل ما كان من هذا الشاب، وتحدثتُ دون أن أقدر على مواجهته. لم يقاطعني مرة واحدة حتى انتهيت.. لاحظت في دهشة أن ملامحه لم تتغير، ولم تحمل تعبيرًا واضحًا، وكان أبي يفعل هذا دوما باقتدار، إنها طريقة مراوغة تجعلني أستشعر قلقًا مجهول المصدر.. من المنطقي أن يعبّر وجهه عن شيء ما، ومن الطبيعي أن أتوقع عواقب الأمور من خلال هذا التعبير، لكن هذا الجمود ليس طبيعيًا.. بالنهاية سألني:

"هل هذا كل شيء؟"

"هذا كل شيء.."

"مم!"

هز رأسه مفكرًا بعمق، وهو يرمق الطرف البعيد من الشرفة، وتجمدتُ في مجلسي لا أجرؤ على التحرك، ولا أستطيع النظر إلى وجهه مباشرة. بالنهاية أشار بيده، قائلا بلهجة محايدة:

"قومي إذن، لتري ما ينتظرك من واجبات وأعمال.."

قمت على الفور وكأنني حصلت على حكم بالإفراج، سألته بعد أن دخلت بالفعل وصرت بمنأى عن مجال بصره:

"أتريد شايا؟"

لم يرُد، فانسحبت دون كلمة إضافية، أحاول استنتاج ما قد يدور في عقله دون جدوى.

انشغلت بقية اليوم في أعمال المنزل، وأطعمت نادر وأمي، ثم خلدت إلى حجرتي لا أفعل شيئا.. لم أجد في نفسي القدرة على قراءة كلمة واحدة من كتب المدرسة، وتلقّى هاتفي اتصالًا من إحدى الزميلات، تلك التي كانت آخر من رآني في حجرة الممرضات قبل انصرافي بهذا الشكل المقلق، قمت بإسكات الجرس ولم أرد.

نزل أبي بعدها بقليل، دون أن يأكل. لم يحاول أن يوجّه إليّ كلمة واحدة. ولم أستطع استنتاج ما يدور بذهنه، فقط كنت متأكدة من أنه ليس غاضبًا مني، فأنا أعرفه جيدًا حين يغضب. تدثرتُ بملاءة كانت على فراشي وتظاهرت بالنوم. لكنني لسبب ما غبت بالفعل في نوم عميق بلا أحلام، ولم

أفق إلا مع انطلاق أذان العشاء. وجدت حلقي جافا كالحطب، وصداعًا يكتنف رأسي، وشعرت برغبة في القيء..

كانت الأعراض تشبه بوادر نوبة من البرد، لكنني عرفت أن الدخان كان سبب هذا، بالإضافة إلى درجة حرارتي المرتفعة بشكل مدهش. وارتحتُ لشعوري بالإعياء، فقد كان هذا مبررًا جيدا لعدم ذهابي إلى المدرسة غدًا، كما إنه سوف يقلل من فُرص احتكاكي بأبي لبعض الوقت. في الصالة كانت أمي جالسة أمام الطبلية، تفرم بعض الفول والبصل والخضرة في المفرمة اليدوية، لتصنع طعمية منزلية من التي يفضّلها أبي عن طعمية الشارع، بينما نادر يجلس إلى جوارها ويساعدها في استمتاع بنصف وعي، وبالنصف الآخر يستغرق في مشاهدة فيلم كوميدي يعرض على شاشة التلفاز. من حسن الحظ أنها كانت تبتسم.. سألتني:

"مالك يا نوجة؟"

"سلامتك يا ماما.. أشعر ببعض الإعياء"

"بابا قد أتى منذ قليل وأخبرني أنك مصابة بالبرد، لذلك عدتِ باكرًا من المدرسة. هو ينصحك بعدم الذهاب إلى المدرسة، وأن تحظي ببعض الراحة. وسوف يتولّى بنفسه الذهاب إلى المدرسة صباح غد، ويحصل لك على إجازة لمدة أسبوع"

تسمرتُ قليلًا في دهشة، ثم سألتها:

"أين بابا؟"

"ذهب إلى الورشة مجددًا يا نور عيني، هل أصنع لك بعض اليانسون؟"

هززت رأسي نفيًا، وذهبت إلى المطبخ لأضع براد الشاي على النار. هل أعطاني أبي السيجارة لأنه كان يعلم أن لديّ سرًّا يرغب في سماعه، فكانت هذه السيجارة هي نصيبي من الصفقة؟ هل أراد أن يظهر أمامي بمظهر المذنب، كي يتضاءل حجم ذنبي بداخلي، فأرويه ببساطة؟ أم إنه فعل هذا ليصيبني بالإعياء عمدًا، كي لا تقلق أمي، وليكون مرضي سببًا طبيعيًا لعدم خروجي؟! لم يكف هذا الرجل يوما عن إثارة دهشتي.

كنت المريضة الأولى من نوعها، التي يمنعها المرض من الذهاب إلى المستشفى!

طال مكوثي في البيت سبعة أيام، لم أتبادل مع أبي كلمة واحدة خلالها، ولم أحاول الاقتراب منه كثيرًا، فأنا لست من النوع المغامر الذي يجرب حظه مرتين. في اليوم الرابع نادتني أمي إلى حجرتها، وأغلقت الباب دوننا. توترتُ لسبب ما، فأنا أعرف أمي جيدًا. إنها أبسط من أن تصرّح بأسرار، أو تتحدث في مواضيع هامة. ودعوت الله في سريّ أن تكون العواقب سليمة، لكنني وجدتها تبتسم على عكس ما توقعت.

قبّلتني كثيرًا وقرصتني أكثر من مرة، وهي تردد *كبرتي يا مُجرمة!* بالنهاية أخبرتني أن طبيبًا شابًا زار أبي بالأمس في الورشة، وأخبره أنه راغب في مصاهرته. رحب به أبي، وأعطاه موعدًا للزيارة في بيتنا على أن يُحضر معه أمه.. سألتها عن هوية هذا الطبيب، فأخبرتني أنه ولابد قد رآني في

المستشفى وسأل عني الريّسة فايزة. وبالتأكيد هي منحته كل المعلومات اللازمة ومن ضمنها عنوان ورشة أبي.

كان الخبر جميلًا مفاجئًا، ومدهشًا في نفس الوقت، وتوقعت أنه ذات الشاب التائه الذي كان يبحث عن باب الصيدلية. توقعته، ولسبب ما – برغم أنني لا أعرف عنه أي شيء – تمنيته.. وزادت دهشتي أضعافا حين زار بيتنا بصحبة والدته بعدها بأسبوع، وعرفت أن توقعي كان صائبًا.

*****

بعد رحيل عم درويش في آخر مرة، عاد أبي لحالته المعتادة. وكانت أكبر معاناة يحياها أبي هي عدم قدرته على التفاهم مع الخلق من حولنا، وكأنه يملك بداخل رأسه غير ما يملكون. لم يكن أبي قد تجاوز في تعليمه الشهادة الإعدادية، لكنه كان مفكرًا وذكيًا وواسع الاطلاع، بعكس معظم أبناء جيله من أقاربه وجيرانه، الذين انحصرت أحاديثهم حول العمل، وانحصرت دائرة معارفهم العلمية فيما يبلغ وعيهم من شائعات، واقتصرت خلفياتهم الثقافية، على ما تبثّه قنوات وصحف الدولة؛ وهذا في أفضل الأحوال.

وكان عم درويش هو الوحيد القادر على استيعاب كلمات أبي وأفكاره المختلفة. وبرغم أنه كثيرًا ما كان يختلف معه في الرأي، إلا أنه كان يتفهّم ويقدر على الاستيعاب، أو على الأقل يحترم الاختلاف، وهو ما كان أبي يفتقده بشدة. لذلك كان أكبر همه هو عناء الوحدة من بعد رحيل عم درويش.

كان يوم الأسطى بركة في مثل هذه الأوقات محسوبًا بدقة تخضع لبعض التفاوت الضئيل، فهو يستيقظ عادة في العاشرة، وينزل إلى الورشة مباشرة، وهناك يبدأ يومه بالإفطار والشاي والاصطباحة المعتادة. يعود في العصر ليتناول شيئًا يسيرًا من الطعام، ويحتسي الشاي من يدي كما اعتاد، ثم ينزل ثانية، فلا يعود إلا بعد أذان العشاء. يسهر قليلًا في شرفته، وحيدًا أو بصحبة المذياع، ثم يخلد إلى النوم. وكنت أراه على مائدة الغداء فقط لأنني أنزل إلى المدرسة قبل استيقاظه بطبيعة الحال. لذلك كانت مفاجأة لي أن يأتي إلى المستشفى في هذا الصباح.

*****

كنت في طريقي إلى عيادة الأطفال، حين مررت من أمام الاستقبال، فرأيته واقفًا يحادث الموظفة، وهي ترد عليه وتقلّب الدفاتر وتتلقى اتصالًا تليفونيًا، كل هذا في نفس الوقت.

تأكدت من أنه هو أبي بالفعل، فتحركت نحوه مسرعة.. ظننته قد أتى لرؤيتي لسبب ما، لكنه أخبرني أن شابًا ممن يعملون معه في الورشة قد تعرض مساء أمس إلى اعتداء من قبل بعض الأشقياء، وتلقّى طعنة، لكنه أسرع بنقله إلى هنا وتم إنقاذه، وقد أتى الآن ليطمئن على حالته. عرفت أن اسمه هو (حامد عبد الله عابد)، وفحصت أوراق دخوله الموضوعة أمام الموظفة الشبيهة بديناصور محنط، ثم صعدتُ بأبي إلى عنبر الطوارئ.

وجدناه نائما وأخبرتنا ممرضة القسم بأنه سوف ينجو. روى أبي أنه كان يسير بصحبته بعد جلسة على المقهى، حين اعترض طريقهما بعض الصبية،

بدوا كأنهم واقعون تحت تأثير مخدر كيميائي، وصاروا يوجِّهون إلى أبي كلمات خادشة بصددي، وأتوا على ذكر اسمي عدة مرات.

سألتُ أبي عن أوصافهم، فتأكدتُ أنهم من اعترضوا طريقي منذ أيام، حيث كنت أسير مع زميلة لي بينما نحن عائدتان من المستشفى، فحاولوا مضايقتنا، لكنني انهلتُ على الأقرب منهم بحذائي، وظلت زميلتي تصرخ حتى تجمهر الخلق من حولنا. يبدو أنهم قد تبعوني وعرفوا اسمي من خلال نداءات زميلتي المتكررة، تطالبني بفض الموقف.

قال أبي إن حامد هذا سأله عن صاحبة الاسم، وحين عرف أنهم يقصدون ابنة صديقه، ثار وأمطرهم بالسباب، ثم وجّه إلى أحدهم صفعة، غير مبال بالسلاح الذي يحمله. فما كان من الفتى إلا أن أغمد مديته في صدر حامد، ثم ركض فارًا مع رفاقه حين رأى الدماء تتفجر من موضع الطعنة.

اندهشتُ من تصرف هذا الشاب الذي كاد يهلك بسببي، دون أن يعرفني أو أعرفه، وحين أتى الطبيب طمأننا وأخبرنا أنه قام بما يلزم..

"سوف يظل هنا تحت رعايتنا لأيام قليلة، لم تصب الطعنة عضوًا حيويًا لحسن الحظ، لكنه فقد الكثير من الدماء.."

طمأنتُ أبي، وطلبتُ إذنًا كي أذهب معه إلى البيت، وفي الصباح التالي صعدتُ للاطمئنان على حالته، حتى لا يتجشّم أبي مشقة الحضور بنفسه.

كانت المؤشرات الحيوية للفتى آخذة في الاعتدال، لكنه ظل نائمًا.. وأخبرني الطبيب أنه بخير، فقط يحتاج إلى بعض الراحة، وأنبأني بأنه قد يستيقظ خلال اليوم أو صباح غد.

حين استفاق الشاب من غيبوبته كنت حاضرة. رأيت ملامحه تتقلص في ألم دون أن يصدر صوتًا، وكأنه يخجل من الإعلان عن ألمه، أو من إقلاق راحة الممرضة الساهرة طيلة الليل.

اقتربت منه ومسست جبينه برفق. كانت حرارته مرتفعة إلى حد ملحوظ، لكنه قد نال مخفضًا للحرارة منذ قليل، كما رأيت على لوحة الفراش.

ذهبتُ لآتي ببعض الماء البارد، وحضّرتُ له كمّادات لخفض الحرارة. فتح عينيه بصعوبة، وتقلص وجهه مجددًا.. تأمل وجهي مليًا بصمت ثم فتح فاه ليتكلم. كانت شفاهه مغطاة بالقشور، فمسحت على وجهه بالمنشفة المبتلّة. توقعت أن يسأل أين هو كالعادة، أو يستفسر عما حدث، لكنه قال ببطء وبأحرف مهتزة، وهو لا يكف عن التحديق بي، بعينيه الواسعتين المندهشتين:

"من أنت؟!"

ابتسمتُ، وأعدت وضع المنشفة فوق جبينه قائلة:

"ستكون بخير.. لا تقلق"

"من.. أنت...؟"

كررها مرة أخرى بصوت شديد الخفوت، ثم غاب من جديد..

*****

كتب له الطبيب خروجًا بعد أسبوع، استجابة لإلحاح الأسطى بركة. لكنه أوصاني بضرورة الحفاظ على مواعيد المضادات الحيوية، وكتب له مسكنات عند اللزوم، وأوصاني كذلك بالمداومة على عمل الكمادات حتى يمر بهذه المرحلة، ورفض فكرة مخفضات الحرارة إلا إذا ساءت الأحوال إلى حد كبير، وهو ما لم يكن يتوقع حدوثه.

أصر أبي على أن يظل حامد في بيتنا حتى يسترد عافيته ويستطيع الخروج.

كان الفتى في مثل سني كما أخبرني أبي، لكنه كان يبدو أكبر كثيرًا، بسبب ملامحه المرهقة على الدوام وطوله الفارع. وجدته قليل الكلمات متحفظًا بشدة في وجودي، لكنه لم يكن يقدر على منع نفسه من تفقد ملامحي في لهفة واندهاش، في كل مرة كنت أناوله العلاج، أو أضع له مقياس الحرارة، بينما هو يحتل فراشًا في حجرة نادر أخي.

"أنت دافعتَ عن سمعتي، وعرّضتَ نفسك لخطر كبير وأنت لا تعرفني.. أشكرك كثيرًا"

كان يبتسم في خجل، كطفل لم يعتد تلقي الإطراء، ويقول في خفوت كعادته، وهو يحوّل نظره إلى جهة بعيدة عني:

"وأنت أنقذت حياتي، واهتممت بي، دون أن تعرفيني كذلك.. لم يهتم بي أحد مثلما فعلتِ"

كان حديثه لا يتعدى الجملتين عادة، لكنني عرفت بسهولة أنه أحبني على الفور..

لقد اعتدتُ نظرات الإعجاب أو الانبهار، وأستطيع ببساطة أن أميز الحب. روى لي أبي ما عرفه عن حامد، من خلال حكايات عم درويش. وعرفتُ أنه مسكين آخر، لم تنعم عليه الحياة بأهل ولا أصدقاء، يتيم الأبوين، وطيب القلب إلى أقصى حد. لم يتعلّم في المدارس، ويعجز عن كتابة اسمه، وهذا – بالإضافة إلى صمته الطويل وميله للكتمان – يجعل منه شخصًا أشبه بحصّالة متنقلة، يمتلئ طيلة الوقت، ولا يجد الفرصة للتنفيس، واستنتجتُ أن حكاية طويلة ولا شك تكمن وراء هذا الفتى.

*****

في اليوم التالي لوجوده في البيت بدأت أخافه كثيرًا، فقد لاحظت شيئًا شديد الغرابة يتعلق به. طرقت بابه، فأتى صوت نادر يهتف أن ادخل. دخلت أحمل طبقًا من الحساء، وضعتُ له فيه قطعة من اللحم المسلوق كي يسترد عافيته سريعًا..

"الله يرحمك ياَمّه!"

أطلقتُ ضحكة، وقلت مقربة منه الطبق:

"تعيش وتفتكر يا اسطى!"

"ماذا قلت؟"

وجدته يرمقني مذهولًا، ولاحظتُ أن صوته مجهدًا بشدة، شديد الخفوت. فانتبهت إلى أنني قد سمعت جملته الأولى بصوت طبيعي للغاية.. وضعت الطبق وقلت في تردد:

"لا شيء، تصورتك قلت شيئًا.. عن إذنك!"

ثم خرجتُ من فوري، وأنا ألقي ببصري نحو نادر، الذي قلّب بصره بيننا غير فاهم.. لقد سمعته يقول "الله يرحمك يامّه" بمنتهى الوضوح، وبنبرة تحمل بعض التهكُّم، مما جعلني أعتبرها عبارة مازحة، ولذلك ضحكت. لكنني تأكدت فيما بعد أنه لم ينطق بها، وقد تجمَّد من الخوف حين تلقى ردّي على جملته.. هل سمعتُ أفكاره؟!

كنت منهمكة للغاية في هذه الأفكار، حين اصطدمتُ بأمي الخارجة من المطبخ عفويًا، فشهقْتُ في فزع..

"مالك يا بت؟ شفتي عفريت ولّا إيه؟!"

نظرت إليها دون قدرة على الرد، ثم انصرفتُ إلى حجرتي.. توقفتُ في منتصف الطريق، واستدرتُ أرمق أمي من الخلف بقوّة وتركيز، أعدت المحاولة من جديد.. لا شيء على الإطلاق!

"يبدو أنني جننت ولا شك!"

وانطلقت من جديد إلى غرفتي.

*****

تكرَّر الأمر عددًا من المرات، حتى فهمتُ ما يحدث. أنا لا أستطيع قراءة الأفكار كما أراهم يفعلون في الأفلام الهزلية. لكن الحقيقة أنه هو بالذات من يستطيع جعلي أقرأ أفكاره، حتى لو لم يقصد هذا ولم يُرِده.

أخافني هذا في البداية، لكنني استمتعت به فيما بعد، ولم أخبر أحدًا به ولا حتى أبي، خاصة حين تأكدتُ من أن الأمر يقع رغمًا عنه. كنت أشاهد ملامحه البريئة الهادئة، وأراقب حركة عينيه فوق ملامحي بطريقة لم أعهدها من قبل.. يشكرني في أقل عدد من الكلمات، ويرتفع معدل نبضه كثيرًا، وأشعر باضطراب أنفاسه فور أن أضع يدي عليه.. وكان يرتجف بشدة وهو يتناول من يدي كوب الماء في كل مرة، ويسقط بعضا منه فوق المفارش والأغطية ويبلل صدره، ثم يزعم في خجل أن يده ترتعش بسبب الإصابة، وأنه لم يستعِد سيطرته على أعصابه بشكل كامل.. كنت أعرف أنه يكذب. لأنني كنت أسمع كل ما يدور بذهنه. كان لا يكف عن توجيه رسائل صامتة يائسة، يوقن من أنني لا أتلقاها، لكنه كان مخطئًا بشدة، فقد كنت أتلقاها بمنتهى الوضوح..

رسائل تمتلئ بالحب والاشتياق والدهشة من وجودي على أرض الواقع. لابد أنه حلم بي كثيرًا ولم يكن يتصور أنني هنا بالفعل!

على الرغم من شدة لوعته المدهشة، والتي زاد من دهشتي تجاهها أنها نشأت ونمَت ووصلت إلى الحافة في خلال أيام قليلة. أقول على الرغم منها، إلا أنه كان يقدر بكفاءة تامة على الكتمان، ربما لأنني ابنة صديقه، أو

obeikan.com

لأنه يعلم بكوني مرتبطة.. لا أعلم، وربما كان يستشعر فارقًا اجتماعيًا وثقافيًا كبيرًا بيننا، أو قد يكون غير جاهز نفسيًا لاتخاذ خطوة مصارحتي.

وأدركت بأسف أنه يعاني حقًا، وعلى الرغم من إنها المرة الأولى التي أعرف فيها كم أحبني أحدهم حقًا، إلا أنني أكاد أقسم إن أحدًا لم يحب أحدًا مثلما أحبني هذا الفتى.

كانت كلماته الصامتة تدور دائما حول رغبته في أن يقترب مني أكثر، وأن أضمه إليّ بهذا الحنان الذي حُرم منه طويلا.. وبدا هذا الحلم شيئًا شديد الحيوية بالنسبة له، ربما أكثر من الطعام والشراب. لم تتضمّن أحلامه تفاصيل ماجنة، بل كان أقصاها هو قبلة على خدّي وحضن عميق، مما أشعرني بمدى التمزق الذي لحق به من الداخل بسببي. وكنت في كل يومين أعيد التغيير على جرح صدره الذي قد بدأ في الالتئام ظاهريًا، لكنه من الداخل كان يزداد اتساعًا وعمقًا وألمًا. صرت أشعر به كما يشعر بالضبط..

كنت قد بدأتُ أتعب بسبب هذا الولد، ولم أكن أدري ما ينبغي عليّ أن أفعله. إنه حتى لم يحاول أن يتفوّه بكلمة، برغم أنه كان على استعداد تام للتضحية بما بقي له من أيام في مقابل أن يقولها مرة واحدة. لكنني حمدت الله على صمته، فقد كانت الكلمات كفيلة بإفساد الكثير من الأشياء. وقد كنت في أشد الغنى عن هذا.

مر شهر على مجيئه إلينا، وسقطت آخر الغرز منذ أيام.. بدا أفضل حالًا مما رأيته أول مرة، لكن هذا كان قادرًا على خداع الجميع إلاي. لم يعد

obeikan.com

ذلك العفريت الأسود الموشك على الاختفاء، بل صار يبتسم ويتحدث ويضحك أحيانًا، في خجل لكنه يفعل. ولاحظت أن وزنه قد ازداد قليلًا.

كان يتأثر بشدة حين أهتم بتفاصيله الخاصة بنفسي، ويشعر بأنه يكلّفني فوق ما يُحتمل. كنت أحادثه ببساطة وأمازحه أحيانًا، فأشعر بأنه يَسعَد كطفل استعاد أمه بعد طول غياب، ويغدو موشكًا على التحليق. وفي أوقات أخرى كان يحزن بشدة، حين يدرك الحقائق التي تغيب عن المرء أحيانًا في غمرة سعادته.

فوجئتُ حين دخلتُ لأعطيه قرص المضاد الحيوي بأنه قد نهض من الفراش وارتدى حذاءه، وطفق يلم ملابسه وأشياءه القليلة الموضوعة على جانب الفراش.. وعرفتُ من التهاب مقلتيه أنه كان دامع العينين منذ قليل. استدار جهة الجدار، متظاهرًا بتحضير الحقيبة، فلم يكن يريد لي أن أرى هذا..

"لماذا نهضت من الفراش؟ لابد أن تواصل الراحة لبعض الوقت، بعدها يمكنك الرحيل. إن كنت قد مللت صحبتنا إلى هذا الحد.."

مسح وجهه وتنحنح، ثم استدار محاولًا انتحال لهجة مرحة، خرجت معها كلماته مهتزة بشكل آذاني كثيرًا:

"لقد صرت على ما يرام.. أشكرك كثيرًا على كل شيء، ولكن ينبغي عليّ الرحيل. لقد أطلتُ الإقامة هنا، ولا أستطيع البقاء أكثر من هذا"

obeikan.com

"لماذا؟"

تناول نفسا عميقا، أخرجه ببطء وهو يستند بيده إلى حافة الفراش..

"لديّ بعض الأعمال في القاهرة، يجب أن أسافر اليوم لأمر ضروري.."

قلت في حزن:

"كيف تكذب عليّ، ألا تعلم أن بوسعي قراءة أفكارك؟"

حين واجهني، شعرت به يحاول احتوائي بنظراته. تقدَّم خطوة واحدة أشعرتني بأنه قد فقد صبره، وصار موشكًا على التهوّر. لكنه توقف بعد هذه الخطوة، وسألني ببسمة كسيرة، دون أن يبعد عينيه عن عينيّ:

"هل يمكنك حقا معرفة ما أفكر فيه الآن؟!"

"أتمنّى أن تقتربي الآن.. وأن تدعيني ألقي برأسي فوق صدركِ.. لو علمت كم أحتاج إلى هذا، لما ترددتِ.. أحبك كثيرًا كثيرًا كثيرًا.. وأحب أن أسمعك تغنين لي في قلب الليل، بصوتك الملائكي المفعَم بالحنان.. وأن تتركي أصابعك في كفّي لثوان قليلة.. لو أمكنك بشكل ما أن تعلمي كم أحبك.. وكم يقتلني الاشتياق إلى حضنك الدافئ.. لكن الكلمات لم تُخلق لهذا!"

obeikan.com

ضربَتْ كلماته الصامتة جُدران عقلي، كألف صاعقة. وانسلّت إلى دمي مباشرة، فذابت في سيولته، ثم شعرت بها تنسرب إلى كل خلية في جسدي. سيطرتُ بصعوبة على القشعريرة التي ألمَّت بي، وكافحتُ كل ما انتابني من مشاعر في لحظة تلقّي هذه الكلمات اليائسة.. قلت بابتسامة يعلم الله كيف بدت:

"الله يسامحك، بقى أنا رخمة عشان مهتمة بمواعيد الدوا، وبافكرك بيها كل شوية؟! ماشي يا عم، ماكنش العَشم!"

واستدرتُ مغادِرة الحجرة دون أن أقدر على مواجهته مرة أخرى. اعتصمت بحجرتي لساعة كاملة تظاهرتُ خلالها بالنوم العميق، ولم أخرج إلا عند اقتحام نادر لحجرتي هاتفا بأن حامد قد رحل.

في هذا اليوم عاد أبي من الورشة، وأخبرنا حزينًا بأن حامد قد استقل القطار المؤدي إلى القاهرة ولن يعود..

"ألم يقل شيئًا؟"

"يرسل السلام إليكم جميعا.."

لم يَبدُ عليه أنه يعلم شيئًا. كان حزنه ينحصر في فراق حامد، الذي كان تراث صديقه الوحيد، عم درويش، ثم صار هو صديقه الوحيد قبل أن يرحل.

وعرفت أن حامد قد استطاع كتمان أفكاره في وجود أبي.. مما أنبأني بأنه صار أخيرًا مدركًا لحقيقة موهبته العجيبة.. وتمنيت أن يكون قد أدرك هذا حقًا. ربما حين يوقن من أنني صرت أعلم، قد يستريح بشكل ما.

مرت الشهور والأعوام، ولم أره بعدها مطلقًا إلا اليوم.. لكنه لم ينقطع لليلة واحدة عن زيارتي.. اعتاد أن يُلحقني بأحلامه أو يقتحم أحلامي، يُلبسني من الثياب ما يريد أن يراني به، ويصفِّف شعري كيفما حلا له. ويفعل بي ما حلم طويلًا ولم يقدر على الإتيان.

كانت أحلامي في منتهى الوضوح، وكنت أعرف منها أخباره دون أن يقصد هذا.. تيقّنتُ من أنه لا يقصد هذا بما لا يدع مجالا للشك. لم يكن يدرك أنني أراه في كل ليلة وأقضي ليلتي في حضنه مثلما يفعل، ولم يفهم قط أنني أشعر بما يعانيه، بل ربما لم يكن مدركًا لقدرته على بث الكلمات والأفكار والأحلام. وبرغم أن هذا الأمر الاستثنائي لم يترك لي حيزًا من الفراغ، وبرغم أنه قد أفسد حياتي الزوجية فيما بعد، وأعادني إلى بيت أبي دون تفسيرات، إلا أنني لم أعش في حياتي تجربة على هذا القدر من السحر. لم ينسَني ليلة واحدة طيلة الأعوام السبعة الماضية، ولم يكف عن حلمه الوحيد الأبدي، بأن يضمني إليه بقوة، وينام للمرة الأولى شاعرًا بأنه لن يعود وحيدًا غريبًا بعد الآن..

أحيانًا أفكر، تراه لو كان قد نالني، هل كان سوف يظل يحبني بهذا القدر الأسطوري؟ لكنني لم أكن في حاجة حقيقية لإجابة السؤال، صرتُ أكتفي بسرّي الصغير الجميل، وأنام في كل ليلة هانئة البال، أعلم أنه ولا محالة سوف يأتي.

obeikan.com

حامد

لم يعد من الممكن لي أن أمكث يومًا إضافيًا في هذا البيت، فقد صرتُ قادرًا على الحركة وبوسعي الرحيل. وكان من المدهش حين أفكر في مغزى مقدمي إلى هذه المدينة العجيبة النائية عن عالمي، أن أكتشف حقيقة الأمر بهذا الوضوح.. لقد تركت مدينتي ومهنتي وكل مَن وما عرفت في الحياة، وأتيت إلى هنا فقط من أجل لا شيء. في الحقيقة لم يكن من أجل لا شيء تمامًا، بل كان من أجل أن أتلقى هذه الطعنة ثم أرحل عائدًا في صمت.

هل قطَعتُ كل هذه المسافة، فقط، كي أراها وأترك لديها بعضًا منّي، ثم أرحل بعد أن اكتشفتُ وطني أخيرًا؟ هل هذه هي الحياة التي تطلبون مني أن أحياها؟ كم تبدو الحياة شديدة العبثية من أعلى، وكم تبدو الصورة الكاملة هزلية للغاية، مقارنة بأجزائها الصغيرة المشتتة.. تبًا لكل شيء.

قررتُ أنني لن أستمر في هذا الغياب، سوف أصنع وطنًا، وأشتري أسرة.. سأجرب صَهر مختلف المعادن في سبيكة واحدة، وأخلط قراطيس العطارة، وأمزجهم بالماء. سأجرب كل شيء حتى أحصل في النهاية على

جوهر الانتماء.. ولو تطلّب الأمر أن أدفع دمي وأجزاء من لحمي، ثمنًا لصورة مؤطرة تجمعني بأشخاص يحبونني، لن أتوانى عن الدفع حتى وإن لم يبق منّي غير أصابعي التي تقطَع.

*****

اشتريتُ هاتفًا محمولًا بِناءً على رغبة الأسطى بركة، ومنحته رقمي قبل الرحيل، ووعدته أن أتصل به فور أن يستقر بي المقام في القاهرة كي يأتي لزيارتي.

حمل عنِّي الحقيبة بنفسه وأوصلني إلى القطار، ثم عانقني بحرارة وبكى. أوصيته وشدّدتُ أن يُبلغ سلامي إلى كل من يسكن تحت سقف بيته. ولوحت له بكفّي بينما القطار يتحرك عائدًا بي إلى القاهرة.

كنت أشعر بأنني صرت مختلفًا عما كنته قبل أن آتي إلى هنا. بل إنني صرتُ شخصًا آخر غير الذي عرفته. لم أحاول الاتصال بعرفان قبل الرحيل، حتى مفاتيح بيت درويش تركتها لدى بركة.

قررتُ العودة إلى شبرا البلد، بالتأكيد سوف أجد مفتاح الشقة مع أحد الجيران، ما لم يكن الوغد قد احتلّها أو تصرَّف فيها، وقد يستطيع أحدهم أن يدلّني على مكان قبرها.. كم أرغب في رؤيتها الآن والارتماء بين ذراعيها.

يقتلني الإرهاق وكأنني قضيت عمري الفائت أركض بلا توقف.

*****

انقضى من الليل أكثر من الثلث، ولم تهدأ حركة المسافرين، ولا باعة الشاي والشطائر. تناولت من الطفلة البائسة الصغيرة شطيرتَي طعمية، ومنحتها أكثر مما طلبَتْ.. قبل أن ترحل سألتها عن أهلها.. أين أبوها؟ أشارتْ إلى رجل يتبعها، يحمل على ذراعه صينية كبيرة ممتلئة حتى الحافة بالأكواب، وفي يده الأخرى يحمل براد شاي عملاقًا..

تبسّمَتْ لي في مَودّة ورحلتْ فرحة بالإكرامية، فاستوقفتُ الرجل وطلبتُ منه كوبين من الشاي، ومنحته أجرًا مضاعفًا. كان جاري في المقعد رجلًا مسنًا يبدو وحيدًا في رحلته. أيقظته برفق ووضعت في كفه شطيرة، وفي الآخر وضعتُ كوب الشاي الساخن. بدا أن سخونة الشاي بين أصابعه قد أفاقته، فرمقني بعينين ضيقتين تتساءلان ثم قال:

"أنا لم أطلب هذا!"

"أنا طلبته لأجلك، خفتُ أن ترحل الفتاة التي تبيع الطعام ولا تعود مجددًا.."

كنت أكذب، فهي لن تكف عن المرور قبل وصولنا إلى المحطة التالية، حيث سوف تصعد غيرها بالتأكيد.

"كم دفعتَ؟"

"سم الله يا حاج وكل.. بسيطة"

تهلل وجهه فرحًا بهديتي، ودعا لي. ربتُّ على كتفه ثم أوليتُ وجهي شطر النافذة التي تعرض ظلامًا دامسًا له رائحة غريبة، آكل دون جوع وأتجرع الشاي دون رغبة.

وصل القطار في السادسة تقريبًا إلى محطة شبرا الخيمة.

نزلت مع النازلين، وحملت حقيبتي فوق كتفي، متوجهًا نحو شارعنا القديم. توقّفت طويلًا أمام مستشفى النيل، واستعاد ذهني بعض التفاصيل الكريهة، لكنني لم أتمكن من مواصلة المسير إلا بعد دقائق.

مررتُ عبر الحشود البشرية بلا نهاية، وتوجهتُ نحو بداية سور كلية الزراعة، وصرت أرمق كل ما يحيط بي، وكأنني عائد من غيبة طالت عقودًا، وانقضتْ في هجرة إلى قارة نائية.. سرت في طريق الكورنيش، ثم انحرفت يسارًا بجانب سور الجراج الكبير المهدّم، الذي كنا نصطلح على تسميته قديمًا *بالخرابة*، متخذًا طريقي إلى السوق، وأنا أتساءل كيف حال البيت الآن؟ ترى ماذا بقي منه على حاله، وماذا تغيّر أو استجد أو اختفى؟

مررتُ بباعة الخضر والفاكهة الذين عرفتهم قديمًا، واستطعتُ تذكّر بعض الوجوه، ولم يتذكّرني أحد. قطعتُ في هذا الشارع بضعة أمتار أخرى في سبيلي إلى البيت القائم على اليسار منه. لكن خطوتين إضافيتين كانتا كافيتين لأن أرى المشهد كاملًا من هنا..

ليس من الضروري أن أقترب أكثر، كي أدرك أن البيت لم يعد موجودًا في مكانه، لا هو ولا بيت (المنشاوي) المجاور له.. صار البيت كومة عالية من التراب والخشب تسد الشارع من المنتصف، لم يعبأ أحد برفعها من مكانها.

وقفتُ طويلًا أتأمل المشهد، واقتربتُ ببطء من الحطام، لربما وجدتُ شيئًا أعرفه.

كان حطام البيتين مختلطًا بشكل عشوائي، ولم أعلم إن كان أحدٌ لم يزل يرقد بالأسفل أم لا.. حركتُ صخرة صغيرة بطرف حذائي من مكانها، متوقعًا أن أجد تحتها إصبعًا غليظا مزينًا بخاتم فضي ذي فص أسود كبير، لم أجد، ركلت الصخرة بقوة.

أشعلتُ سيجارة وحاولتُ استشفاف بقية الشارع لكن الحطام منعني، اضطررتُ إلى الالتفاف من شارع موازٍ كي أصل إلى الجهة الأخرى من هذا الجبل.. تمنيت أن أجد الست كريمة تجلس فوق بعض الصخور، وتشعل النار تحت إناء الصلصة، بواسطة أخشاب سقف البيت المنهار. ربما كانت هي آخر من يمكنه أن يدلني على أي شيء، لكنني لم أجدها. كانت تسكن في بدروم بيت المنشاوي.. ترى هل وجدَتْ الوقت الكافي؟

لم أعرف ماذا أفعل، فجلست على تراب الأرض، وسندت رأسي إلى الجدار المواجه للحطام. دخل حيز إدراكي البصري كهل ذو شارب منفوش، في جلباب حائل اللون. كان منهمكًا في عقد دوبارة سرواله الفضفاض، المبتل بمياه لم أحب التفكير في مصدرها. حين رآني تجمَّد للحظة، ثم تقدم ليتوقف أمامي مباشرة. قال بصوت قادر على صرف ذبابة فضولية تحوم حول كتلة من الفضلات:

"عايز حاجة يا بلدينا؟"

لم يعجبني هذا. قلت في خشونة:

obeikan.com

"أنت سمعتني ناديت لك؟"

كان بالتأكيد يتوقع أن يجعلني سؤاله أنهض مغادرًا على الفور. عرفت هذا لأن ردي أفحمه. استغرق بعض الوقت قبل أن يقول:

"أنا حارس على الهدد ده، وممنوع القعاد هنا"

تأملته في استهزاء. كنت أشعر برغبة في ضرب شخص ما..

"حارس على الهدد؟ طب شوف شغلك أحسن بعدين دبشة من دول تهرب، ولا حد ييجي يسرق شوية تراب وانت مش واخد بالك. أنا بقى واحد من اللي كانوا ساكنين في البيت ده.. كان نفسي أقول لك اتفضل بس خايف لا تشبط!"

لم يرد، ولم يبد على وجهه أنه سمع كلماتي أصلًا، لكنه ظل واقفًا لم يتزحزح من موضعه.

لم يعد لوجودي هنا معنى على أي حال.

*****

ذهبتُ إلى السبتية، وانطلقت في المنطقة أبحث عن أحد يصلح لأن أرتاح في دكانه لدقائق قليلة، فقط بقدر ما يستمر كوب من الشاي.

obeikan.com

حيّاني البعض القليل الذي كان موجودًا في هذه الساعة المبكرة، وتلقيتُ الكثير من الدعوات، فرددتُ التحيات بأحسن منها دون أن أهتم بمن أرسلها.

توقفت أمام ورشتنا المغلقة.. كانت المفاتيح لم تزل عند الحاج عبد التواب. تركها عنده عرفان قبل أن نخرج منها، فربما حدث أي طارئ يستدعي دخوله إلى المكان.

هل أذهب إلى الحاج عبد التواب مباشرة وأطلب منه المفاتيح، أم إنه يجب أن يوافق الأسطى عرفان قبلها؟ لا أعرف رقم عرفان لكن رقم درويش في الإمارات كان مع بركة، وقد أعطانيه قبل أن أصعد إلى القطار. عدت إلى أول الشارعِ مرة أخرى، وتوقفت أمام محل للاتصالات، وجدتُ فتاة تجاهد لرفع بابه الجرّار، فأعنتها..

"هل تفعلين هذا وحدك؟"

"في كل صباح!"

رفعتُ حاجبيّ دون رد وطلبت منها مكالمة دولية..

فوجئ درويش بصوتي لأقصى حد، ولم يصدق أنني في القاهرة. عرفتُ أنه بخير ولا ينتوي العودة قريبا، فلم أشأ أن أطيل الحكي، أو أن أدخِله في تفاصيل هو في غنى عنها.. فقط رويت له بالمختصر أنني غادرت مدينته ولم يحدث اتصال بيني وعرفان مرة واحدة، وأنني أرغب في إعادة فتح الورشة من جديد. قال إنه لا يمانع ولكن يجب أن يوافق عرفان.. فأخذتُ منه الرقم ووعدته أن أحادثه لاحقًا.

Obeikan.com

كانت الساعة لم تبلغ السابعة والنصف صباحًا بعد. دفعتُ حق المكالمة، وخرجتُ أبحث عن مقهى خارج الشارع.. بالطبع ليس مقهى الشافعي، فإن كل رواده من جيراننا، ولن أنعم بلحظة واحدة من الهدوء أو الخصوصية. توقفتُ أمام الكشك الأخضر، ولاحظت أن لافتة جديدة قد وضعت فوقه، مكتوب عليها بخط مطبوع (الكشك الأخضر) بدلًا من *الحاج أحمد – كوكاكولا* التي كانت مكتوبة بالطلاء. لشد ما أسرع مرور الزمن خلال الأشهر الماضية. تأملتُ الكشك كثيرًا وحمدت الله أن الحاج أحمد لم يزل حيًا، أخشى أن أدير عنقي فأعود لأجد الكشك قد اختفى، وحل مكانه قَصْر.

سرت حاملًا حقيبتي، حتى بلغت تقاطع شارع عماد الدين مع الألفي. تذكرتُ رغبة ممدوح القديمة في دخول السينما.. ترى أين ذهب هذا الولد؟ عبرت من أمام مطعم آخر ساعة، فوجدت مقهى رائقًا، لم يزدحم بعد في هذه الساعة.. يمكنني الجلوس حتى يحين أذان الظهر على الأقل، قبل أن أحاول الاتصال بالأسطى عرفان.

ولكن ماذا أفعل خلال كل هذا الوقت؟! كانت معي في الحقيبة مذكرة صغيرة، مسجل فيها بعض أرقام الهواتف الهامة، وقررت أن أحدًا سوف يستيقظ من نومه لاعنًا إياي الآن، هذا خير من أن يصيبني الجنون وحدي.

كنت أعرف الأسماء بالشبه وأحفظ أشكالها، ونقلتُ كل الأرقام إلى هاتفي على سبيل تزجية الوقت، على الأقل حتى يأتي الشاي الذي طلبته منذ ربع ساعة.

حين انتهيتُ، وقفت فوق رقم وليد الطيّار وضغطت زر الاتصال، لتفاجئني أغنية لعمرو دياب (لا برتاح في ليلة ولا بنساك..)! ضغطت زر الإنهاء على الفور متصورًا أنني طلبت خدمة النغمات بطريق الخطأ، وعدت أتأمل الرقم مرة أخرى.. أتى الشاي، فتشاغلتُ بتقليبه، وابتلعتُ قرص الدواء. دق الهاتف في يدي، معلنا عن رقم الطيار.. وكان صوته لم يزل غارقا في النعاس..

"مين!"

"إزيك يا وليد، معلش صحيتك من النوم"

"أنت مين أصلا؟!"

"أنا حامد الخراط ياله، صاحب درويش.. فاكرني؟"

"آه يا حامد إزيك، أيوة فاكرك يا عم.. انت فين يابني، كلكم اختفيتوا مرة واحدة كدا.."

"أنا جنبك في وسط البلد، لسه واصل القاهرة من شوية.. ده رقمي على فكرة، سجله عندك.. بقول لك إيه، عايز اصطباحة، ودماغي بتوِش.. عندك إيه؟"

"عندي كل خير يا زميل، عايز دلوقت؟"

"معلش لو مش هاتعبك؟"

"يابا تعبك راحة، طب فيه فلوس ولا ايه؟"

"فيه يا عم إن شاء الله.."

"يا اسطى ولو مفيش، أنا بسأل بس عشان أعرف هاجيب إيه معايا.. آجي لك فين؟"

أخبرته بمكان المقهى فعرفه بسهولة، وجلست أشرب الشاي منتظرًا مقدمه.

أطلقوا عليه *الطيّار* لأنه يختلف عن كل باعة الصنف الذين نعرفهم، فأنت لا تستطيع الذهاب إلى وليد، نحن نعرف أن نشاطه يمتد ليشمل منطقة وسط البلد بأكملها، لكن أحدا لا يعرف له عنوانًا، برغم أن رقمه مع أمّة لا إله إلا الله. هو فقط الذي يأتي إليك بنفسه ويسلمك *المصلحة* Delivery!

أتى بعد ساعة كاملة، على دراجته النارية مزعجة الصوت، ودون أن ينزل أشار لي أن أركب. تمددتُ في مقعدي مسترخيًا أكثر، وقلت بصوت عال فيما بين الإرهاق والكسل:

"انزل يا وليد مش وقت تناكة!"

"صباح الفل يا ريس، إيه الأخبار؟"

صافحته بحرارة، ومنعته برفق من احتضاني مشيرًا إلى جرح صدري..

"إيه ياد مالك، كفى الله الشر؟!"

"شوية شقاوة، ما تاخدش في بالك.. بقيت أحسن الحمد لله"

جلس وأشار إلى النادل وهو يقول في تهكم:

"حتى حامد الغلبان بقى يتشاقى؟ عليه العوض ومنه العوض!"

"مش أنا يا سيدي، دول شوية عيال كانوا ضاربين ورايحة منهم خالص.. سيبك من الكلام دا، فين الحاجة؟"

مد يده في جيبه وهو يقول:

"عيني عينك كدا؟"

"انجز، وريني جبت إيه؟"

"جبت لك صوباعين عدالة.. ولا صوابع زينب"

"يا راجل، طب هات واحد دلوقت وخلي التاني لزينب.. معاك بفرة؟"

أتى النادل، فطلب وليد حجر معسل، ثم قال لي:

"معايا.. هاتلف هنا؟"

"لا مش هاينفع، أنا بدوّر على مكان أنام فيه وأغيّر هدومي.. لسه راجع زي ما انت شايف، والورشة مقفولة وماليش حد هنا.."

"ومارجعتش بيتكم ليه؟"

"ما وقع عقبال عندك!"

"أمال إيه اللي جابك يابن الفقرية؟"

"زينب وحشتني! خلّص، عندك مكان؟"

"أجيب لك منين مكان بس، انت شايفني قدامك سمسار؟"

"طب اتلهي، لما اسأل القهوجي ده يمكن يكون عارف عنوان بانسيون قريب ولا حاجة"

حضرتْ الشيشة، فانشغل وليد باصطباحته قليلا قبل أن يسألني:

"وانت شغال فين دلوقت؟"

"بقول لك لسه نازل من القطر، بس هاكلم عرفان عشان أفتح الورشة.."

"لوحدك؟"

"معايا ربنا بقى، لما نشوف بس هايرضى ولا هايقول إيه؟"

"طب ما هي محلولة أهي! لو رضي، اسكن في الورشة زي ما كنت ساكن.."

"لا مش عايز أعمل كدا.. أنا عايز بيت فيه بني آدميين"

قضى معي بعض الوقت، ثم نهض عازمًا على الرحيل، وأكد عليّ أن أكلمه فور أن أستقر.. تناولتُ الهاتف وأجريتُ اتصالًا بالأسطى عرفان. انتهى الرنين ولم أتلق إجابة، فكررت المحاولة في إصرار.

أتاني بالنهاية صوته الناعس.. لا أذكر عدد من أيقظتهم هذا الصباح. لماذا اخترت هذا القطار المتأخر؟ حكيت لعرفان باختصار أحداث اليوم منذ الصباح ولم آت على ذكر البيت المتهدم، فقط اهتممت بإبلاغه بأن درويش لم يمانع، وأنه من أعطاني رقمه.

لم يُبد اعتراضًا بدوره، وقال إنه سوف يتصل بالحاج عبد التواب بنفسه، كي يعطيني المفاتيح، ويساعدني على إيجاد صبي لمساعدتي. كان هذا كافيًا بشدة في الوقت الحالي. هكذا يمكنني أن أحظى بحمام وأستبدل ثيابي وأنام ساعتين قبل أن أخرج للبحث عن سكن.

*****

"مساء الخير، هل هذا أوتيل مدام ماريا؟"

"أنا ماريا.."

"أنا حامد عبد الله، بحثت كثيرًا عن مكان للإقامة، وأشار عليّ صاحب المطعم عند بداية الشارعِ بهذا العنوان.."

"أنا آسفة يا حامد.. لا توجد لديّ غرفة خالية"

كادت أن توصد الباب، لولا أن استمهلتها في رجاء..

"لا أبحث عن غرفة، وليس بوسعي استئجار غرفة.. يكفيني فراش فقط في غرفة مشتركة.. لقد أخبرني الرجل بأن هذا المكان هو أقرب شيء لما أبحث عنه. ثقي أن ما لديك سوف يناسبني أيًا ما كان"

سمحَتْ لي بالدخول، وتناولتْ حقيبتي..

"يجب أن أقوم بتفتيشها بنفسي.. لا أبحث عن مخدرات أو خمور، فقط أهتم بالسلاح والأوراق الزائفة.."

كدت أخرج قطعة المخدرات من جيبي، وأضعها تحت بصرها في جيب الحقيبة، كي تعرفني جيدًا من المرة الأولى، لكنني أحجمتُ، فقد تتصوّر أنني أخفي المزيد مما قد لا تكون في حاجة إلى التعامل معه.

كانت امرأة مسنّة، تبدو طيبة وشجاعة للغاية.. ليس من السهل أن تدير مكانًا كهذا بالتأكيد، ولا أن تضطر إلى التعامل مع غرباء في كل يوم.

حاولتُ مساعدتها قدر الإمكان، وحاولتُ ألا تصدُر عنيّ إيماءة تسبب لها أي توتر أو قلق. تصرّفتُ على طبيعتي تمامًا، وسألتها إن كان مسموحًا

بالتدخين هنا، فأشارت إلى الشرفة الملحقة بالصالة.. تركتُ لها الحقيبة تقلب فيها كما يحلو لها، وخرجت إلى الشرفة متأملًا كل شيء في طريقي..

شقة لطيفة للغاية. أحب بنايات القاهرة القديمة، والواجهات الجبسيّة التي تغطت بطبقات من السواد، بمرور الزمن وبفعل الهواء المفعم بكل أنواع التلوث. أحب كذلك المصاعد القديمة ذات الأبواب المصنوعة من الحديد المشغول، كالتي نراها في أفلام ماجدة وفاتن حمامة. لابد أن أحد البهوات أو البشوات صعد في هذا الدرج يومًا، أو جلس على هذا المقعد.

بداخل الشرفة وجدت مقعدين من الخيزران يحيطان بمنضدة من نفس النوع فوقها قرص من الزجاج، وتحمل مطفأة كريستالية جميلة نظيفة، وقطع من اللبان بنكهة النعناع. بالتأكيد لا يعبّر هذا اللبان عن نمط الخدمة رفيعة المستوى في *الأوتيل*، كما نصحني الرجل صاحب المطعم بأن أطلق عليه، كي تقبل السيدة بانضمامي. ربما كان هذا بانسيون، لكن الطابع العام لم يكن رسميًا، بل كان أقرب إلى الشكل الأسَري، وكان هذا بالضبط هو ما أبحث عنه. تساءلتُ في سرّي عمن وضع هذا اللبان هنا ونسيه، ثم تناولت واحدة، فضضت ورقتها وألقيت بها بين أسناني.

نادتني السيدة، فأطفأتُ سيجارتي ولحقت بها في الداخل. دعتني إلى الجلوس وطلبتْ أن ترى بطاقة هويتي. كانت لم تزل لامعة لأنني استخرجتها منذ أشهر قليلة. قلّبتها بين أصابعها ونقلت بعض بياناتها إلى دفتر صغير يشبه كراسات المدارس.

"سوف أجري اتصالًا بوزارة الداخلية، من أجل التحري عن هذا الرقم إن لم تكن تمانع"

أشرت إليها مبتسمًا ألا مشكلة، وتركتها تفعل ما أرادت، رحتُ أتأمل كل شيء من جديد.. الصالة الواسعة فخمة الأثاث، الذي بدا قديمًا للغاية، لكنه نظيف وبحالة جيدة. السقف يرتفع لما يقارب الخمسة أمتار، وفي منتصفه وضعَتْ ثلاثة مصابيح طوليّة بيضاء متجاورة من نوع الفلورسنت.. بالتأكيد كانت هناك ثريا كبيرة من الكريستال ذات يوم. لم أقدر على منع نفسي من الإدلاء باعتراف واجب:

"البيت جميل جدًا.. أنا أعشق العمارة القديمة، وأستمتع بمشاهدتها، برغم أنني لا أعلم الكثير من الأشياء عنها ولا أحفظ التواريخ"

كانت قد أنهت مكالمتها القصيرة، وأخذت تبحث في أدراج المكتب عن شيء ما. توقفتْ ونظرت لي مبتسمة في إشراق، وبدا أن كلماتي قد أسعدتها..

"إن الجمال لا نعرفه بالدراسة، وحفظ الأرقام والتواريخ.. المراكب النيلية جميلة، لكنهم لا يضعونها في المتاحف.. يضعون منها فقط ما مر عليه زمن طويل، لأنك حين تعرف أن القدماء كانوا يعبرون النيل في هذه القوارب منذ آلاف السنين، سوف تنبهر وتزداد معارفك التاريخية.. كل هذا لن يؤثر على مقدار جمال الأشياء. لكنه ربما يؤثر على إحساسك بقيمة هذا الجمال."

بدا عليها اليأس من إيجاد ما تبحث عنه، فأغلقتْ آخر الأدراج في تذمر. وهززتُ أنا رأسي أستعيد كلماتها وأكررها بصمت. لابد أنها تعرف الكثير من الأشياء.. بالنهاية قالت:

"على أي حال لست أحتاج إلى كراسة القواعد العامة للسكن هنا، فأنا أحفظ كل بنودها عن ظهر قلب.. يمكنني أن أطرحها عليك واحدًا إثر الآخر، ولو اتضح أن هناك ما لا يناسبك في كراستي، لن يكون بوسعك أن تقيم هنا.."

تأملتها قليلًا، ثم شبكتُ أصابع يديّ وهززتُ رأسي مستسلمًا.. تنهدَتْ هي في خجل ونهضتْ من خلف المكتب ملوّحة بيدها:

"تبًا للرسميات! لابد أنك مرهق بشدة.. سأعد شايًا لكلانا، ثم سوف أسمع حكايتك كاملة، لن أسمح لك بالنوم قبل هذا، وهو أمر غير قابل للتفاوض. فأنا فضولية لأقصى حد!"

جعلتني لكنتها أبتسم ردًا على ابتسامتها الطفولية، وهززت رأسي موافقًا..

"هل يمكنني انتظارك في الشرفة؟ إن المشهد رائع من هنا.."

"أنت كثير التدخين ولكن تفضل، لقد صار البيت بيتك"

*****

على مدار الساعتين التاليتين رويت لها كل قصتي بتفاصيلها مثلما أفعل الآن. كانت تستفسر عن كل شيء، ولم يبد عليها الملل مثلما يبدو على

وجهك.. لا أعرف إن كان هذا مللًا أم إرهاقًا أم عدم تصديق، لكنه في كل الأحوال مما لا يسرّني.

هل أتوقف قليلًا؟ ربما تحتاج إلى بعض القهوة لتعينك على الاستمرار. لا بأس، فما بقي سوى القليل على أي حال.

كنت أرى على وجهها الكثير مما يعكس انفعالها بما أروي، وقد كانت تحب التعبير بكل ملامحها حين تفرح أو تحزن. كانت تشبه الأطفال في كل شيء، ولم تستحق هذه النهاية.

في هذا الوقت لم أر أحدًا في البيت سواها، ولكن مع انتصاف النهار عاد كمال من المدرسة، واستيقظ شوقي بك الدمنهوري من نومه.. وعرفت أن هناك امرأة شابة تدعى عزة، تقيم معنا هنا، لكنها خرجَتْ في الصباح.

وهناك أيضا كاتب روائي متوسط الشهرة يأتي إلى الأوتيل كل فترة، لكنه مسافر حاليًا.

بالطبع حدثتني كثيرًا عن الآداب التي يجب مراعاتها عند الإقامة مع آخرين في بيت واحد، وخاصة حين تكون هناك نساء بالبيت. لم أجد الأمر مرهقًا، فلست همجيًا بطبعي، وأنا بالفعل أطمح في نوع من التغيير يطرأ على شكل حياتي، لهذا كنت مستعدًا لتقديم كل ما يسعني لإنجاح الأمر. وأعتقد أنهم جميعًا لم يتضايقوا من وجودي بينهم.

*****

obeikan.com

بمرور الوقت صرت أكثر قربًا من الجميع، عدا شوقي بك. لم يكن يكرهني لكنه كان يحب الخصوصية بشدة، وهكذا كان يتصرف مع الجميع. حين رأيته لأول دقيقة، تصورته قد يصلح أبًا بديلًا لي، ولكن مع تبادل التحية للمرة الأولى أدركت أنها فكرة مستحيلة.

كانت عزة هي أقرب الناس إليّ هنا. أستاذ محمود كان غائبًا معظم الوقت، وحين يبقى هنا يكون منشغلًا بشدة. والمدام كانت تحبني حقًا، لكن عزة هي التي اعتبرتني صديقًا.

كانت تتصل بي إذا ما أرادت أن تذهب إلى السينما أو تخرج لشراء بعض الأغراض أو تزور طبيبها. فكنت أترك الورشة في عهدة علاء الصبي لألحق بها في البيت أو أنتظرها بالأسفل. كانت لسبب ما تحب أن تتحدث معي في شؤونها الخاصة، وتسألني عن أحوال العمل بغرض الاطمئنان. وهي التي قدَّمتني إلى صديقها المهندس الروسي الذي زارني في الورشة، وراق له شُغلي للغاية، ثم قدّم لي عرضًا يتضمَّن العمل في الخارج والإقامة. ذلك العرض الملعون الذي تسبب في كل هذه الفوضى.

كان لديها الكثير من الأصدقاء الأجانب. وكانت تحب الحديث عنهم وعن ظروف تعرفها بهم، وكذلك كانت تفخر بقدرتها على استخدام الإنجليزية بشكل جيد معهم. لكنها في معظم الأوقات كانت تبدو حزينة مقهورة. وكنت الوحيد الذي يمكنه ملاحظة هذا بين كل من يقيمون معنا في البيت. فكنت أنتقل إلى جوارها وأظل أمازحها وأتغزّل في حسنها حتى تضحك وتُشرق.

وعلمت منها أنها تحب الكتابة هي الأخرى ولكن ليس كما يفعل أستاذ محمود. هي فقط تكتب مذكرات ولا تدع أحدهم يطَّلع عليها. سألتها عن سر كتابة المذكرات إن كانت لن تُقرأ، وما جدواها في خزانة مغلقة إذن؟ قالت إن هذا يجعلها أفضل. وسألتها إن كانت تكتب كل شيء بالفعل، حتى جرائمها وأفعالها التي تخجل منها؟ فكانت تضحك وتدفعني في كتفي..

"وأنت مالك؟!"

وشعرتُ بمرور الأيام أن الحياة قد استقامت أخيرًا، صار لي عمل وبيت وأهل. وصرت أكثر قدرة على التفاعل مع ما يحيط بي.

عشت أيامي في النهار أعمل وأضحك وأدخن. وفي الليل لا أفعل شيئًا سوى أن أستلقي في فراشي، وأغمض عينيّ في انتظار التجلّي الباهر لحوريتي الصغيرة.

كنتُ قد بدأتُ في تحصيل مال حقيقي، وكنت أتصل بعرفان كلما احتجت إلى فكرة جديدة أو معلومة، ولم أتوقف عن إرسال حوالة بريدية في آخر كل شهر على عنوان بيته، أضع فيها ما تساوي قيمته ثلثي دخل المكان، بعد خصم راتبي وراتب علاء ومصروفات المكان. أما الثلث الأخير فكان نصيبي كما قرر كل من عرفان ودرويش.

درويش هو الآخر صار يتحدث معي كل فترة ويسأل عن أحوالي. حتى بركة عرف بمكان إقامتي، وصار يزورني كلما أتى في مهمة ما إلى العاصمة. كانت زياراته ضرورية للغاية بالنسبة لي، فقد كان هو الحلقة الوحيدة التي

تربطني بناهد.. ولم أكن أرغب في ضياع هذا الرابط بأي شكل، برغم رفضي القاطع أن أكرر زيارتي إلى هذه المدينة، والحجج الكثيرة التي كنت أخرج بها كلما أتتني دعوة منه. صرت أكتفي بما يرويه لي عرَضًا من أخبارها، وأكتفي بسماع اسمها والاستمتاع بذكره كلما أتت مناسبة..

كالعادة لا تبقى الأشياء على حالها طويلًا، وعرفتُ أن دوري في التجنيد قد حان. كانت فترة الثلاث سنوات التي قضيتها في أوتيل ماريا كافية لتصنع مني شخصًا مختلفًا جديدًا، ولا أظن أحدًا قد تعرَّض لكل هذه التغيّرات التي لحقت بشخصيتي خلال سنوات عمري القليلة.

صرت أكثر رهفًا ونضجًا، وأظنني اكتسبتُ بعض الحكمة وبعض الكيلوجرامات. وكنت في أشد احتياجي النفسي والجسدي إلى نانا أكثر من أي وقت مضى. بلغ صبري الحافة، وصرت على وشك الإصابة بالجنون، خاصة وأنني كنت أتوقع ألا تستمر خطبتها التي طالت بهذا الشاب. وفي كل ليلة كنت أتمنى أن يقرِّب الله هذا اليوم. لكن الخبر الذي بلغني ليلة سفري كان غير ذلك كما رويت سلفًا.

كانت إجازاتي القصيرة البعيدة تنقضي في معظمها في العمل، وكنت أعود إلى البيت فقط عند الحاجة إلى النوم. فصار معتادًا أن تأتي إليّ عزة في الورشة وتحمل لي طعامًا صنَعته هي أو ماريا، وتصر أن تأكل معي في المكان. ذكّرتني في حنانها وطيبتها بأمي، ولكن في خفة ظلها وأنوثتها المتوارية خلف مظهرها الجاد لم تكن تشبه أحدًا رأيته من قبل.

كانت أصغر من أن تكون أمًا لي، وأكبر من أن تكون حبيبة أو رفيقة. ربما لهذا أحببتها وأحبّتني هي. فقد كانت الروابط التي جمعتنا ذات تصنيف غير معتاد، ليس من الوارد مقابلتها فيمن حولنا مرة أخرى!

أبدى صديقها العجوز ليبروسكي، والذي يقيم في مصر لفترة قصيرة، إعجابًا كبيرًا بمستوى العمل في مصر. وفرح كثيرًا لأن إحدى المخارط في الورشة كانت *بلدياته*، صناعة روسية.

سألني إن كنت أحب العمل خارج مصر، فهو يدير مؤسسة كبيرة لإنتاج آلات التشغيل في وطنه، ويدرك قيمة العمالة الجيدة. صار يؤكد أن كفاءتي المهنية سوف تضمن لي الحياة بشكل مختلف في موسكو.. ربما سنوات قليلة قد تكون كافية لتكوين ثروة، وأنا لم أزل صغيرًا.

أخبرته من خلال عزة أن عرضه لا يُرفَض، ولكن في ظروف أخرى. أنا قد أنهيت للتو خدمتي العسكرية، وكنت أخطط لبعض الاستقرار، لأن الأيام الماضية كانت طويلة وشاقة إلى حد كبير.

هز رأسه في حماس وهو يلوّح بيديه في الهواء، ويتحدّث بلا توقف. يحمل رايش الماكينة الساخن بين أصابعه وينثره فجأة، حتى ظننت جنونًا قد أصابه.. قالت عزة في سعادة:

"يبدو متحمسًا للغاية. أنا لا أفهم عملك، ولكن من حديثه يبدو أنك شديد المهارة بشكل لم يره من قبل.. إنه يعرض عليك المبلغ الذي تطلبه، لكنه ينصحك بسماع عرضه أولًا، فقد يكون رقمه أكبر من رقمك!!"

*****

أدرتُ الأمر في ذهني طويلًا.

كنت أعرف أن عزة تتمنى لي الخير. هي أخبرتني أن السفر سيكون حلًا محببًا لأزمة عدم الارتكاز التي أعانيها منذ أنهيت خدمتي العسكرية. لا أستطيع التركيز في العمل بشكل كاف، ولا أحظى بنوم جيد. رحلة قصيرة لمدة شهرين تتضمن تدريبات واختبارات لابد أن أجتازها أولًا بنجاح. ثم أحصل على إجازة قصيرة وأنتظر منهم ردًا.

أكد لي مستر ليبروسكي أنه سيكون إيجابيًا بكل تأكيد نظرًا لما رآه، ولكن ينبغي أولًا أن أقوم بحلق لحيتي التي أطلقتها منذ العودة الأخيرة من الجيش كسرًا للقواعد. كان الموضوع مثيرًا، خاصة وأن كل تكاليف الرحلة والإقامة والتدريب ستتكفَّل بها مؤسسة ليبروسكي.

أنهيتُ إجراءات استصدار جواز سفر للمرة الأولى، وأبلغتُ الجميع بقرب سفري إلى الخارج، لكنني كنت شديد القلق من جهة اللغة. طمأنني الرجل وأخبرني من خلال مساعد له ألا أقلق، لأن العديد من العرب يعملون لديه بالفعل منذ سنوات، ولن أواجه مشكلات كبيرة في وجود هؤلاء.

في اليوم السابق للسفر جعل ليبروسكي أحدهم يتصل بي، ويطلب مني الحضور إلى الفندق حيث يقيم، وأعطاني رقم غرفته. كان يريد إطلاعي على بعض الأمور شديدة الأهمية قبل السفر صباح غد.

في هذه الليلة كنت أستعد لاستقبال الأسطى بركة، فقد قرر أن يأتي خصيصًا من أجل أن يقضي معي ساعة قبل السفر. فأخبرتُ ماريا وعزة أن صديقي سوف يأتي الليلة، وطلبت منهما بلطف أن ترحبا به ريثما أعود.

نزلتُ متحمسًا وخائفًا للغاية، لا أصدق أنني سوف أركب الطائرة في الصباح وأذهب إلى أرض أخرى. لا أتصور أن تنتهي تلك المرحلة من حياتي، وأعرف أنني سأظل أرحل إلى الأبد، لكنني في كل مرة لا أستطيع منع هذا الشعور المقبض من اقتحام روحي بهذه الصورة الوحشية، ولا منع هذه التقلصات المؤلمة في جهازي الهضمي من التزايد.

وصلتُ إلى الفندق في خلال ربع ساعة تقريبًا، وصعدتُ على الفور إلى أعلى، فقد كنت أعرف أنه ينتظرني. الممرات المكسوة بالسجاد الأحمر الفاخر تزيد من توتري، بمساعدة المصابيح الذهبية المتناثرة بطول الممر على الجانبين. كل هذه الفخامة تشعرني وكأنني ذاهب لملاقاة نابليون بونابرت.

أخيرًا وجدت لوحة تحمل الرقم الذي أبحث عنه.. أخرجتُ الورقة كي أتأكد لآخر مرة إن كان الرقم ينتهي بـ١٥ أم ٥١، كانت هي الغرفة المقصودة. ملأتُ صدري بالهواء كمحاولة للتغلب على توتري المتصاعد، وطرقت الباب بقوة..

"من؟"

كان الصوت يتحدّث العربية، وهو تقريبًا نفس الصوت الذي اتصل بي منذ قليل..

"أنا حامد"

"ادخل يا حامد، إنه مفتوح.."

أحطت المقبض بأصابعي وأدرته، فاستجاب القفل. دفعت الباب ببطء وتردد دون أن أفهم سبب هذا الخوف.. انفتحت الغرفة أمامي لكنني لم أر أحدًا بداخلها..

"ادخل يا حامد وأغلق الباب من فضلك. دقيقة وسوف ألحق بك.."

كان الصوت صادرًا من خلف باب في الجوار، لم أعرف إن كان حمامًا أم غرفة أخرى ملحقة.

وتقدمت بالفعل عدة خطوات وعيني تمسح المكان شديد الفخامة، وأتساءل، ترى لو أتت ماريا إلى هنا، هل ستظل تطلق على بيتها "أوتيل" بنفس الإصرار؟!

في هذه اللحظة بالضبط كنت أفكر، هل أدخل بشكل طبيعي أم ينبغي عليّ نزع الحذاء قبل أن أطأ السجاد؟ أعرف أن أفكاري كانت شديدة الحمق والسذاجة، لكن هذا لا يعني أنني استحققت الضربة القوية المفاجئة على رأسي، والتي أتت من الخلف، فأرسلتني بلا سبب إلى هذه الغيبوبة العميقة.

أنت الآن صرت تعلم كل شيء. طلبت الحقيقة، وها قد حصلت عليها كاملة. أنا لم أقتل أحدًا، ولم أتعامل مع دولة أجنبية ضد مصلحة الوطن، مثلما أعلنوا في كل وسائل الإعلام. حتى الآن لا أفهم أي شيء ولا أعرف من زج بي في هذا الأمر.

الشيء الوحيد الذي صرت أعلمه جيدًا هو أنني أتمتع بموهبة نادرة ليست مكفولة لكل الناس، وليس من المسموحِ لي استخدامها وإلا فسوف أكون جاسوسًا وخائنًا وكل ما قالوه عني.

شيء آخر أعرفه في أعماقي وأوقن منه، أنهم ينتظرون خروجي من هنا بفارغِ الصبر. وربما كانوا يراقبون هذه الغرفة الآن.. هم يعلمون في داخلهم أنهم كاذبون، ولن يكون من الجيد لهم لو تكلمت..

Obeikan.com

obeikan.com

عَزّة

في هذه الليلة لم أكن على ما يرام، أعرف أنني منذ سنوات كففت عن أن أكون كذلك، لكنني الليلة أختلف. فقد ظللت أشرب منذ الصباح بلا توقف، إلى أن سقطتُ كالقتيلة.. وها قد استيقظتُ منذ دقائق وأنا أشعر بمطارق تهوي فوق رأسي بمنتهى العنف، ولم أعرف إن كانت الأضواء مطفأة أم إنني أصبت بالعمى.

بحكم العادة كنت أدرك أن أحدهم يستلقي إلى جواري في الفراش، لكنني كالعادة أيضًا لم أذكر من هو ولا أين أنا. إن الجنون قد بدأ في التهامي منذ زمن، ولم يترك من عقلي إلا قطعة صغيرة في حجم حبة السمسم، تكفي بالكاد لبقائي على قيد الحياة..

تحسَّسَتْ يدي أسفل الوسادة، فوجدتُ علبة التبغ والقداحة. هكذا عرفت أنني في حجرتي بالبيت. ليلة نادرة لم أقضها بالخارج.. حككتُ جبهتي شاعرة بأن الطرق صار أقوى. ووضعتُ سيجارة بين شفتيّ وأشعلتها من المحاولة الرابعة وأنا أسند رأسي إلى حاجز الفراش.

كانت الحجرة والشقة كلها كما لاحظتُ غارقة في ظلام دامس، ولم أكن أعرف كم الساعة الآن. على الضوء الخافت للنار المنبعثة من القدَّاحة، تمكنت من معرفة هوية الجثة التي تحتل فراشي. تبًا!

برغم أن رأسه بالكامل كان مدفونًا أسفل الوسادة كما اعتاد النوم، إلا أن هذا لم يكن عائقًا. لقد كان حامد هو من قام بإحياء الحفل لهذه الليلة.. حفل على شرف زيزي.. (يييييهااااا)..!

ما الذي أتى بك إلى فراشي أيها التعس؟!

تقلقل في نومه، ثم أخرج رأسه من مكمنها أخيرًا، وانقلب على ظهره وهو يمط أطرافه مُصدرًا صوتًا كقرير القطط.. اقترب مني ولثم كتفي وذراعي بلطف وهو يهمس في الظلام:

"كيف حالك الآن.. أفضل؟"

*****

ذات يوم كنت فتاة طبيعية تعيش في بيت عادي بين أسرتها، في قرية لن أكتب اسمها. كنت الشقيقة الكبرى لثلاث فتيات أخريات، وكان أبي رجلًا كبيرًا أقعده المرض منذ سنوات.

لذلك كانت أمي تضطر إلى العمل في مصنع (الجوت) عند أطراف القرية، لأن القراريط القليلة التي يملكها أبي، لم تعد تؤتي ما يكفي للإبقاء على حياتنا. لا أعتقد أن أحدًا بخلاف ماريا يعرف هذه القصة، لكنني لا أضمن ألا أكون قد رويتها ذات ليلة لأحد الغرباء..

أصرّت أمي أن أكمل تعليمي حتى أنتهي من المرحلة الثانوية على الأقل، قبل أن أخرج إلى المصنع معها، وإلا فلا جدوى من كل ما تفعله.

يا لله، ما أبعدها تلك الأيام، وكأنها كانت حياة أخرى لفتاة لم تعد هنا! ذات يوم كنت لم أزل زهرة رقيقة، تخاف خيالها، وتخجل من رؤية جسدها عاريا في المرآة. ترى كيف كانت حياتي ستستمر، وإلام كانت سوف تُفضي، لو لم يكن ياسر قد فعل ما فعل؟

كل ما أذكره أنه كان ابن عمي، وخطيبي، ولم يكن هذا ليمثِّل لي سببًا للسعادة أو الحزن. بالطبع كنت أحب الفكرة، لكن خجلي الدائم كان حائلا بيني وأي شعور آخر. كنت نائمة، ثم قمت مفزوعة لسبب ما. رأيته واقفًا فوق رأسي يرمقني كالغراب في جوع وحشي، ويقول لاهثًا في جشع إنه لم يعد يطيق صبرًا.. شهقتُ في رعب وحاولت تغطية جسدي بأي شيء في متناول يدي.

اقترب مني وقال همسًا وهو يضع أصابعه على شفتي أنني يجب أن أخفض صوتي.. البنات قد اصطحبوا أبي إلى مستشفى المركز، وأمي قد خرجت لتوها إلى المصنع، ولا أحد هنا سوانا.. لكن صوتي لو ارتفع قد يتسبب في فضيحة.

كانت الشمس تتسلل من وراء النافذة المغلقة في خيوط رفيعة قليلة، كانت كافية لأن أدرك أن الضحى قد أوشك.. سألته بأنفاس متقطّعة عن طريقة دخوله إلى هنا، فلم يجب.. كان منفعلًا أكثر منيّ. جلس إلى جانبي، ثم انتزع برفق ذلك الهراء الذي كانت تتشبث به أصابعي في محاولة أكثر

خرقًا لمداراة لحمي. صار يقبّلني ويتحسس فخذيّ في جنون.. كدتُ أختنق انفعالًا ولم أقدر على إصدار صوت واحد لمنعه مما يفعل.

كنت بشكل ما أعرف أنه قد قرر وضع حد لحياتي. بالتأكيد لن يسمحوا لي بالبقاء يومًا واحدًا بعد هذا. ربما كان هذا دافعًا خفيًا وراء سماحي لأصابعه بالتسلل لما هو أبعد. فقد صدَر الحكم مُسبقًا ولم يكن امتناعي ليمنحني نقضًا.

لا أعرف، لكنني كنت بالفعل مسلوبة الإرادة في وجوده، شيء ما في دخلي كان ينسب المسؤولية كلها إليه، ويجعل مني تابعًا مُنعدم القدرة على اتخاذ قرار. شيء لذيذ مخدِّر سرى في كل أطرافي ودوّخني، وحملني حملًا إلى أماكن أخرى لم أرتدها من قبل. وظل يصعد بي ويهبط كأرجوحة معلقة بين المشرق والمغرب. لا شيء فوقي ولا تحتي، ولا أحد يستطيع إدراك ما وصلتُ إليه..

ولكن فجأة انتهى كل شيء، وكأن أحدهم قد انتزع القابس، وفصل التيار عن آلة الحلم. رأيته يرمقني بعدما انتهى مني سريعًا، ويهز رأسه وكأنه كان واقعًا تحت سيطرة عقلية وقد استفاق أخيرًا.

كان يبدو في عريه التام سخيفا كطفل أخرق. وعرفتُ من نظراته المتصلبة أنه سوف يتنصَّل من الأمر، لم يحتج منّي هذا الاستنتاج إلى مجهود كبير.. أتى بملاءة كانت ملقاة على الأرض ووضعها عليّ بشكل عشوائي، وابتسم ابتسامة مهتزة، ثم رحل. لم أكن خائفة لسبب ما لا أعلمه. قمت متحاملة على عظامي المتكسّرة وألمي الحارق.

اغتسلت وأعدتُ ترتيب الحجرة، كأن مصيبة لم تقع منذ دقائق. أعتقدُ أن شقيقاتي لن يتأخرن عن العودة لمدة أطول من ساعة أخرى. ساعة هي كل ما بقي لي كي أقرر ما ينبغي عليّ فعله. ربما كان من الممكن أن أنتظر لأرى ما سوف تفضي إليه الأحداث. لكن شيئًا بداخلي أنبأني أن هذا لم يعد يشكِّل فارقًا..

ذهبتُ إلى المطبخ وفتحتُ درج السكاكين.

لا! بالتأكيد لن أتخلَّص من حياتي بنفسي.. لو كان هناك متحمس فليتقدَّم. أغلقت الدرج بعنف ودخلت حجرة أمي. كنت أعلم أنها تضع المال في خزانة الثياب الكبيرة ولم يكن هذا سرًا. سحبتُ بعض الأوراق على سبيل قرض أعلم جيدًا أن الفرصة لن تسنح لرده. وانتقيتُ شيئا يصلح لارتدائه، ثم تناولتُ حقيبة يدي وخرجتُ مغلِقة الباب دون ذرة واحدة من التردد.

*****

شيطانٌ مجهول كان يقود خطواتي ويهمس لي بما يجب أن أفعل.

لو كان أحدهم قد روى لي ما يحدث الآن قبل عدة أيام من وقوعه، لما أمكنني استيعاب ما يقال. فتاة شابة ترتدي ثوبًا بسيطًا وخفًا، وتركب القطار المؤدي إلى القاهرة وحدها دون متاع.

لماذا يرحل الفارون جميعهم إلى القاهرة، بينما لا يطيقونها حين يكونون لم يزالوا على نقائهم، لديهم الخيار؟ لم أكن أعرف على وجه الدقة ما أفعل، بالفعل كنت أتحرَّك وفق ترتيب خارجي يصدر عن عقل آخر، فلم

obeikan.com

يكن لديّ من أذهب إليه في القاهرة، ولم يكن لديّ ما أفعله هناك، ولا أملك من المال ما يسمح لي بفعل أي شيء..

قررتُ أنني سوف أقضي ليلتي على الرصيف حتى تأتي الشرطة وتحملني إلى السجن، لكنني لن أدلي بأي معلومات حول عنوان بيتي أو اسم قريتي. تذكرت أن بطاقتي معي، وهي تحمل كل هذه البيانات وأكثر، ففكرت أن ألقيها من نافذة القطار، لكنني أحجمتُ.

ربما لو حملتني سيارة شرطة إلى بيت أبي، وأخبره الضابط أنني كنت على وشك الوفاة في برد الليل، على الرصيف، تحت المطر، قد يعفو عني ويقرر الإبقاء على حياتي. وربما لم يكن ياسر نذلًا كما توقعتُ.. تراه قد يأتي إلى بيت أبي الليلة، ويطلب منه أن يعجّل بزفافنا؟

وقبل أن أسمح لنفسي بالاستغراق في هذه الأفكار، كان القطار قد تحرك بالفعل.

*****

حين توقفَ القطار في القاهرة كان الوقت منتصف الليل. خرجتُ لا ألوي على شيء، وطرقتُ أول ما صادفني من شوارع.

كانت المدينة بالخارج لم تزل ساهرة. أضواء صفراء تدعو للنعاس، وبشر يتحركون مسرعين في كل اتجاه. على مقربة مني وجدتُ تجمّعًا لسيارات الميكروباص، ينادي سائقوها على عدد من المراكز المختلفة. سمعت اسم المركز الذي تتبعه قريتنا فدرت على عقبيّ واتخذت الاتجاه الآخر على الفور وكأنني رأيت وجه أمي.

obeikan.com

كنت أعرف أنني سوف أتعرّض للكثير من المضايقات، وأخذتُ أفكر كيف يمكن أن أتعامل مع مواقف كهذه الآن. هل أستجيب على الفور، أم أغادر مسرعة؟ وهل تنطوي كل المعاكسات على رغبة صادقة في الحصول عليّ، أم إنها تعبِّر أحيانًا عن مجرد رغبة عابثة في المضايقة فقط؟

ضبطتُ نفسي أفكر كعاهرة صغيرة، والغريب أن هذا لم يُثر دهشتي ولا خوفي. أنا بالفعل أحتاج إلى فراش دافئ وبعض المال، لأن ما كان معي من مال قد أنفقته في تذكرة القطار، ولم يبق سوى القليل.

وقفتُ أمام مقهى صغير، اعتلت مدخله الزجاجي لافتة تحمل علامة شركة الأهرام للمشروبات، يبدو أنهم يقدمون البيرة في هذا المكان. من وراء الزجاج رأيتُ العديد من البنات يجلسن بالداخل، لكنهن لا يجلسن بمفردهن، وبدا أنهن لسن من الطراز الذي أظنه، أو على الأقل لا يبدين كما أتوقع أن يكون مظهرهن.

يا للجنون! ما هذا الذي أفعله بالضبط؟! هل كنت أنتظر ياسر كي يمنحني هذه الفرصة؟ هل أنا بالفعل تلك الفتاة البائسة الغلبانة، التي نامت ليلة أمس حالمة بيوم عادي جديد؟ ترى ماذا يحدث الآن في بيتنا. بالتأكيد ظلّت البنات يطرقن كثيرًا على الباب، ثم تذكَّرتْ إحداهن أنها تحمل مفتاحًا، وبعد أن دخلن وأبي ولم يجدوا أحدًا بالبيت...

لا أعرف!

يتجمَّد خيالي عند هذه النقطة ولا أستطيع المواصلة. لقد خرجَتْ أمي من المصنع في ذات الدقيقة التي خرجتُ أنا فيها من المحطة. تراها قد

تلقتْ الخبر الآن للمرة الأولى؟ لا أستطيع احتمال فكرة أنها كانت هانئة البال منذ دقائق، بينما ابنتها الفاجرة التي سرقَتها، قد هربَتْ من البيت واستقلتْ قطارًا إلى جهة غير معلومة.

أتمنى أن تكون إحدى البنات قد ذهبتْ إليها في المصنع لتفتقدني لديها. وأتمنى أكثر أن ينقضي شهر كي يصير غيابي أمرًا واقعًا. أكثر ما يدفع بالقشعريرة إلى عظامي، هو شعوري بأنني سبَّبتَ لهم هذا الذهول، وقدَّمتُ إليهم صدمة العمر. لا أطيق الأمل الذي قد يراود أحدهم في عودتي، لأنني قررتُ أنه سوف يكون كاذبًا.

على زجاج المحل من الخارج وقفتُ أتأمَّل انعكاس ملامحي وشعري المبعثر. لا أعرف إن كنت قد انتقيت بداية جيدة أم إنني فقط أضيِّع وقتي، أعدتُ ترتيب شعري بشكل ما، وفتحت زرًّا في أعلى ثوبي. دخلتُ إلى المكان محاولة أن أكون لافتة للأنظار بقدر الإمكان ولكن بلا ابتذال.. لو لم تكن البداية من هذا المكان، فلسوف أجعلها تبدأ من هنا لأجلي.

تقدمتُ ببطء وانتقيتُ مائدة خالية لا تواجه أحدًا. أتى النادل وتوقف أمامي في صمت ينتظر طلبي.. رمقته طويلًا قبل أن أقول بصوت لا أعلم كيف خرج واثقًا بهذا الشكل:

"زجاجة بيرة.. وعلبة كِنت!"

انصرف على الفور دون تعليق، وكأن طلبي لم يثر لديه تساؤلًا.

ما الأمر؟ هل كنت أتوقع أن يصدمه طلبي للبيرة والسجائر، ويصفني بقلة الأدب؟ ربما جذبني من ذراعي وظل يسير بي حتى باب بيتنا، فيلقي

بي أمام مقعد أبي ذي العجلات، ويقول آسفًا إنه كان يظنني مؤدبة! برغم كل ما يحيط بي من ظروف إلا إن الفكرة جعلتني أبتسم.. إن لم أكف عن هذه السذاجة، فلأرحل على الفور إلى حيث جئتُ.

كان رهاني أنني لن أسعل وأجعل القوم يضحكون مني. إن تخطيتُ هذه النقطة فسوف يصبح كل شيء على ما يرام فيما بعد. كانت المرة الأولى التي أشرب فيها البيرة أو أدخِّن، لكنني تصورتُ أنهما عنصران شديدا الأهمية للفتاة التي تريد أن تبدو سهلة. وكان ما يقلقني هو كيف سأتصرّف لو أفقدتني البيرة وعيي بصورة كلّية؟ يا للسخف!

أتى النادل بما طلبتُ، سحبتُ سيجارة ووضعتها بين شفتيّ، ثم منحته أخرى وأنا أطلب منه أن يساعدني على إشعالها. أرى الرجال يقدِّمون السجائر إلى بعضهم حين يطلبون شعلة من النار، ولم أكن قد التقيت بامرأة مدخنة من قبل، باستثناء خالتي أم عيد. وهي امرأة عجوز للغاية لو رأيتها لتصورتها جدتي وليست خالتي.

رفض الفتى السيجارة بلطف وذهب ليحضر ثقابًا لأجلي. تناولتُ منه العلبة قبل أن يشعل العود وهززتُ رأسي شاكرة. شعرتُ بأنني فعلت كل ما يجب ولم يلتفت إليّ أحد. هل يجب أن أشعل السيجارة وأفتح زجاجة البيرة أولًا؟

نهضت وبحثت عن الحمّام، فوجدته في نهاية المكان. بالداخل يمكنني أن أكون أكثر استعدادًا. غسلت وجهي وشعري وجففته جيدًا. كان وجهي يحمل كما من الإرهاق يدل على مصيبة، لكن بعض الأحمر مع الكحل كانا

كفيلين بجعل الأمر أكثر قابلية. أشعلت عود الثقاب وقرّبته من طرف السيجارة وأنا أراقب وجهي في المرآة. ببطء سحبت النفَس الأول، وبذلتُ مجهودًا خارقًا كي أكتم نوبة السعال التي انتابتني فجأة.. صرت أكثر ثباتًا وسحبت النفَس إلى رئتيّ قبل أن أطلقه. تنحنحت وفتحت الصنبور كي أبتلع بعض المياه.

صرت أشعر بأنني أفضل حالًا. كان النفَس الثاني أخف وطأة، لكن طعم التبغ المحترق لم يقل سوءًا. لا بأس، هكذا يجب أن تفعل المرأة. لم أعد تلك الفتاة الساذجة بعد الآن.

خرجت إلى الحشود التي تنتظرني بلهفة، فوجدت كل واحد منهم منهمكًا فيما كان يفعله أو يقوله دون أن يشعر بعودتي. صببت الزجاجة في كوب كبير ممتلئ بالثلج، وقررت أنني سأدفع الحساب وأرحل لو انتهت الزجاجة ولم يحدُث أي تقدم.

"هل تنتظرين أحدًا يا آنسة؟"

كنت قد بلغت منتصف الزجاجة، أحاول الانسجام مع طعم الشعير المختمر الأسوأ بالقطع من بول الماعز.. انتشلني صوت النادل من بئر عميق من اللاشيء. ترى هل حان وقت الإغلاق أخيرًا؟

رفعت وجهي نحوه في ثقل غريب ولم أدر بم يمكنني أن أرد. تأملت الوجه الباسم لفترة أطول من اللازم قبل أن أدرك أنه لم يكن النادل..

"ربما!.. هل تفعلها أنت لأجلي؟ فقد طال انتظاري حقًا!"

ماذا قلت؟ يبدو أنني على حافة الجنون. تمتلئ مثانتي بأسرع من المعتاد وهذا يجعلني غير متزنة..

"هل يمكنك أن تقودني إلى الحمام؟ لأنني لا استطيع السير تقريبًا. شيء بداخلي قد تحطم!"

رفع حاجبيه في دهشة، ثم قال همسًا:

"هل تحبين أن أسبقك إلى هناك؟"

"لن أستطيع أن أشرح لك. انتظرني هنا قليلًا، ولو تأخرت فتعال للبحث عني! ما رأيك في هذه اللعبة؟"

جلس في المقعد المجاور لي، والذي يفصل بينه ومقعدي منضدة مستطيلة صغيرة، ثم قال باسمًا وهو يغمز بعينيه معًا:

"اتفقنا!"

لوحتُ له ونهضتُ في بطء متوجهة إلى الحمام من جديد. يا إلهي، أشعر بأن قدمي تزن أطنانًا، وأخشى أن أفرغ أمعائي على أرضية المكان. بالداخل رفعتُ ذيل ثوبي وجلستُ مستسلمة لشعوري بالخلاص بعدما كنت قد أوشكت على الانفجار. فوجئت بمن يدفع الباب عليّ. كان هو ذات الشاب بالخارج..

"لماذا تأخرتِ؟!"

كان يبتسم في بلاهة. تجمدتُ في موضعي واتسعت عيناي رعبًا. ملأتُ صدري بنفس عميق واستعددت لإطلاق أقوى صرخة ممكنة، حين تقدم مني وكتم فمي بأصابعه في هلع، وهو يصرخ هامسًا:

"ماذا تفعلين أيتها المجنونة! سوف تثيرين فضيحة بهذا الشكل. ألم تطلبي مني اللحاق بك؟!.. الزمي الهدوء، فأنت لا تريدين للمشاكل أن تقع.. أرجوك"

هدأ انفعالي بعد كلماته نوعًا. كان في وقفته أمامي بهذا الشكل، يذكرني بياسر وما فعله معي منذ ساعات. بدا أنه اطمأن نسبيًا إلى هدوئي فرفع يده ببطء وتردد عن فمي، تذكرتُ من أنا ولماذا أتيتُ إلى هنا، فذاب خجلي وترددي في لحظة واحدة كأن لم يكن. نهضتُ وأغلقت الباب بيد، ثم دفعته في صدره ليستند إلى الباب بالأخرى، واقتربت منه بقوة.

حاول أن يضع يده عليّ لكنني منعته في حزم.. وتسللَتْ أصابعي إلى ما بين فخذيه، واعتصرتُ ببطء وقوة من وراء قماش بنطلونه ما وجدَته أصابعي.. همست:

"ماذا تريد؟!"

"تبًا! هذا هو ما أريد، ولكن لن يصلح هذا المكان.. ما رأيك أن نذهب من هنا؟"

"هل اسمك هو ياسر؟"

"ياسر من؟!"

"أنت!"

"حسنًا، لن يصنع هذا فارقًا كبيرًا.. اسمعي، لقد دفعتُ حسابك، اسبقيني إلى الخارج وانتظري بجانب المرسيدس الزرقاء القابعة أمام الباب.."

"مم.. أنت لديك مرسيدس زرقاء!"

"هل تمزحين؟ بالطبع لا، إنها تخص صاحب المقهى! فقط انتظري هناك كي لا أبحث عنك كثيرًا حين أخرج"

ثم وارب الباب ودفعني إلى الخارج في رفق..

"هيا!"

*****

استيقظتُ في اليوم التالي لا أذكر أي شيء، فقط صداع خفيف وشعور عام بعدم الاتزان.

بدأ طيف باهت يشبه شعلة ضوء بعيدة آخذة في الذبول، في التشكّل ببطء فيما خلف وعيي. خطيبي ياسر، أعرف أنه كان هنا منذ قليل، وأذكر بعضًا مما كان بيننا..

ولكن حين فتحت عيني وجدتني عارية تمامًا في فراش غريب.. لم يكن من أحد إلى جواري، ووجدتُ على الوسادة ورقة مالية، بجوارها حقيبتي وطرف ثوبي، الذي انزلق بقيته فافترش الأرض.

قمت في فزع ألطم وجهي، أدور حول نفسي كالمجانين، كانت الحجرة صغيرة بسيطة الأثاث، فراش واحد صغير ومنضدة في ركن المكان وبعض الكراسي المتباينة الطُرز. وجدتُ ساعة حائط أشارت إلى الحادية عشرة صباحًا وبضع دقائق..

اقتربتُ من الباب الوحيد بالمكان في هدوء وحذر، وأصخت السمع. لا أعتقد أن أحدًا بالخارج.

obeikan.com

فتحتُ الباب بتردُّد فخرجتُ إلى صالة صغيرة للغاية تشبه الحجرة في فقر أثاثها. كان هناك حمَّام مربع صغير استوعبني بالكاد. وطرقة ضيقة تفضي إليه تم استخدامها كمطبخ.. وجدت مزلاجًا على باب الشقة فأغلقته ودخلت إلى الحمام كي أحظى بدوش بارد قبل الرحيل.

تحت الماء، بدأتُ في استعادة كافة تفاصيل اليوم الماضي. يا لها من أحداث كثيرة بالنسبة ليوم واحد.. جلستُ على حافة المرحاض، وتركت مياه الدوش تضرب ظهري ومؤخرة رأسي وبدأت في البكاء. لم أعرف يقينًا علام كنت أبكي؟ بالتأكيد لم أبك على بيتي وقريتي وفراقي الدرامي الأبدي لعالمي القديم الفقير المترب.

لم أحمل في داخلي من قبل حلمًا بالرحيل بهذه الصورة التي حدثتْ، وبالتأكيد لم أتصورني فتاة ليل تهبُ جسدها لأول عابر سبيل، لكن المؤكد أنني لم أكن راضية عن سير حياتي النمطي الوائد للأحلام. كنت أنتظر فرصة تحملني وترتفع بي فوق ظروف بيتي وفقر أمّي وعجز أبي وجوع أخَواتي، ثم تضعني في سلام فوق ربوة عامرة بالحياة والمرح والفرص السانحة، لكنني لم أتخيّل كيف يكون شكلها إن أتت. فقط كنت أوقن من أنني ولابد سوف أختار لنفسي حياة أخرى بشكل يختلف عما عهدتُ.

لماذا لم أحاول مقاومة ياسر بينما هو يعبث بجسدي كيفما شاء، ويداعب مفاتيح شهوتي، قبل أن يقتحمني، محطمًا كل ما كنت أملكه؟

لا، لم تكن المفاجأة هي السبب، وليس جوعي واشتياقي إلى رجل يكتشفني ويصعد بي إلى الذروة. ربما كان السبب هو السأم!

لقد عشتُ سنوات عمري المنقضي أشعر بأنني موطن تهديد لأسرتي، وقنبلة زمنية لا يعرف أحد متى تنفجر. لم يكن خوف أمي على عذريتي نابعًا من حرصها على طُهري ونقائي، بأكثر مما كان خوفًا من العار الذي أستطيع جلبه إليهم في أي لحظة يغفلون فيها عن تصرفاتي.

لو كانت حياتي بالكامل تتوقّف على الحفاظ على هذا *الشيء* شديد الهشاشة، وحمايته من الضرر، فلماذا أتوا بي إلى الحياة أصلًا! ما الذي قد يعود عليّ من إفناء عمري في عبادة عذريتي وتقديس بكارتي، ما هذا العبث؟!

أعتقد أن وقوع البلاء كان أفضل من انتظاره، مثلما رأى الأقدمون. لهذا السبب لم أكن ناقمة على ياسر إلى الحد الذي كان مفترضًا في ظروف أخرى. بل على العكس، بشكل ما يُعتبر هو من قدّم لي سببًا حقيقيًا للرحيل من أجل البدء في البحث عن حياة مختلفة. ألم يحرق طارق بن زياد مراكب جيشه ذات مرة بنفس المنطق؟! أنا لم أحرق مراكب أي شخص سواي، حتى شقيقاتي لم تكن سُمعتهن لتتأثر سلبًا بفعلتي، ولو حدث فلم يكن ليغيّر هذا من مصير واحدة منهن.

من قد يسعى إلى الزواج بواحدة منا؟! حتى الذي اضطر للارتباط بي، لم يفعل إلا لأنني ابنة عمه، ليس طمعًا في مال ولا حسب ولا جمال.. بل إنه حتى لم يطق صبرًا على إتمام الأمر بالطريقة السليمة!

ربما كانت فتاة أخرى لتتصرّف بطريقة مختلفة، وربما كان سقوطها ليكون نتيجة ظروف بالغة القسوة، اضطرتها إلى سلوك هذا المسلك. لقد

كنتُ أسيرة الظروف لسنوات، عشت خلالها مجرد رد *فعل* يمشي على قدمين. لكنني الآن صرت أقوى من أن أسمح للظروف بانتقاء طريقة مناسبة لها في إتعاسي أكثر. لو لم يكن من التعاسة بد، فليكن سقوطي قرارًا وليس اضطرارًا.

انهمكتُ في البكاء، حتى سمعت صوت جلبة آتية من الخارج. أغلقتُ الماء فعرفت أن هناك من يطرق على الباب الخارجي بقوة، لابد أنه واقف منذ زمن.. تسللت على أطراف أصابعي وقربت وجهي من العدسة، فوجدت وجهًا تذكرته على الفور..

"لحظة واحدة.."

انطلقتُ إلى الداخل وحشرت نفسي في الثوب بأي طريقة، قبل أن أخرج لأفتح الباب..

"ساعة؟!"

"لم أسمع، كنت في الحمام.."

"نزلت لأشتري طعاما للإفطار، هل وجدتِ شيئا على الفراش؟"

"عشرون جنيها.."

"هي لك، خفت أن تغادري قبل عودتي.. هيا لنأكل لقمة معًا"

كان هذا الرقم في عام ١٩٩٠ يعد مبلغًا كبيرًا. تصورتُ أن الورقة قد وقعتْ منه، ولم أتخيل أنها لي بالكامل، لكنني أمسكتُ لساني عن أن أقول

له هذا في آخر لحظة. كان الطعام ساخنًا وكنت أحتاج بشدة إلى هذه الوجبة.. تذكرتُ الآن أنني لم أتناول لقمة واحدة طيلة نهار الأمس.

كان الفتى طيبًا خفيف الظل، أخذ يُطعمني ويذكّرني ببعض ما كان منّي بالأمس، مقلدًا أسلوبي بشكل كوميدي، فأضحك. لابد وأنني كنت شديدة الغباء والبلاهة، وخاصة بعدما شربتُ من تلك الزجاجة التي أحضرها معه قبل أن نصعد.

بعد الطعام قال إنه لن يذهب إلى أي مكان. سيظل هنا، وهو يرحب بي إن أردتُ البقاء لبعض الوقت.

صنعتُ لنا كوبين من الشاي وجلسنا سويًا نلعب الورق. حاول أن يتودد إليّ مرة أخرى لكنني كنت شديدة التخوّف. سألني عن بعض ما يخصني، فأبديت رفضًا باتًا لإجابة أي سؤال. برغم هذا لم يملَّ صحبتي ولم يتركني أو يطلب مني الرحيل..

عند غروب الشمس قررتُ أن هذا يكفي، لن أدعه يقترب مني مجددًا ولم يعد لبقائي هنا أي معنى.. سألني إن كان سوف يراني مجددًا، فلم أعرف بم أرد.

نزلتُ السلالم وخرجتُ إلى العالم بالخارِج. رحتُ أرمق كل الاتجاهات لحين، قبل أن أستقر على أحدها في النهاية وأنطلق..

أخرجتُ الورقة من حقيبتي وقرّبتها من وجهي وكأنني لا أصدق. كنت أرغب في شمّها وتذوقها لو كان هذا ممكننا.

وهززتُ رأسي وأنا أسرع الخطوات، وكأنني أعلم إلى أين أتجه..

"كم كان هذا سهلا!"

*****

في هذا الوقت كنت لم أزل في الثامنة عشرة. هو رقم فائز في كل الأحوال، فلا هو بالصغير ولا بالكبير، وعند اللزوم يستطيع الانتماء إلى أي فئة منهما إن شاء.. كانت المرة الأولى هي الأصعب مثل أي شيء آخر، وها قد تخطيتها أخيرًا.

بدأت في وضع بعض الثوابت لنفسي، ومع الوقت عرفتُ ما ينبغي عليّ عمله وما لا ينبغي. فقط ما لم أستطع التخلص منه هو الخجل!

كنت شديدة الخجل بشكل مريع، ولم أكن أستطيع البدء في مغامرة جديدة بإرادتي. في كل مرة كنت أشرب، فلا أشعر بما يدور من حولي، بعدها أستيقظُ في فراش غريب ولا أذكر أي شيء مما حدث بعدها!

في أوقات كثيرة كنت أقع فريسة للخوف. أشعر بأنهم سوف يأتون سعيًا للتخلص منّي. فكرتُ أكثر من مرة في الانتحار، لكنني لم أقترب من التنفيذ فعليًا إلا في مرحلة لاحقة.

كان كل رجل عرفته هو ياسر، ذلك الأبله الذي بدأ كل هذا. برغم أنني كنت أحتقره بشدة، وكان مجرد استرجاع ملامحه، أو لحظة مما شهده ذلك الفراش الصغير بجوار النافذة، قادرًا على إصابتي بالحمى. إلا أنني لم أستطع التخلص من وجهه في كل شخص جديد يلمسني.

أحيانًا في الصباح أتذكر بعض تفاصيل ومشاهد من الليلة السابقة، لكنها تكون دائمًا مقترنة بياسر. بنظراته الساهمة في غباء، ويده اليسرى التي ترتجف كأنه مصاب بالرعّاش. كان استرجاعي لصورته عاريًا أمامي كأسير حرب مُغتَصَب، تبعث بالحمض إلى حلقي.. وفي أحيان أخرى أصحو ناسية لكل شيء، ولكن يملؤني شعور مجهول المصدر بأنه كان هنا منذ ساعات قليلة، وكان هذا مما يزيد من بؤسي، لأنه يجعل مشاهد هذا البيت وملامح أسرتي ماثلة أمام وجهي طيلة الليل والنهار.. لقد نسيتهم جميعًا، كل رجل قد شاركته فراشًا ذات يوم لم يعد يمثّل لي سوى ذكرى باهتة عديمة التفاصيل.. لماذا إذن لا أنسى هذا الوغد وأواصل حياتي؟ لماذا...؟!

*****

قضيتُ بعض الوقت في الشارع حرفيًّا، قبل أن أقدر على استئجار غرفة. وقد حدثَ هذا بعد فترة قصيرة من بداية علاقتي بذلك النرويجي الأحمق.

لا أعرف ما الذي أعجبه فيّ تحديدًا، لكنني بعدها صرتُ أكثر حرصًا على نيل إعجاب السياح الأجانب، أكثر من المصريين والعرب. فالمصري لا يدفع مثلما يدفع السائح، والعربي غالبًا ما يظن أنه قد اشتراني بثمن ليلة أو ساعة، وفي معظم الأحيان بضع دقائق.

صرتُ أكثر قدرة على الاختيار، وصرت أضع شروطي الخاصة، فأختار من يناسبني بالطريقة التي تناسبني، ولا ألقي ببال للباقين.

التحقتُ بوظيفة صباحية في مصنع عطور، كي لا أضطرُ ذات ليلة للخروج. فقد كان أكثر ما يجعل الحياة مكانا أسوأ بالنسبة لي هو اضطراري إلى العمل حين لا أريد.

قلل هذا العمل من ساعات السهر بالخارج، فصار معتادًا أن ينتصف الليل بينما أنا في فراشي غافية. وحين قررَتْ صاحبة البيت أنني لن أستمر في الإقامة لديها، لأن بعض الجيران يتذمرون من وجودي بينهم، لم أعرف كيف أتصرّف. ليس من السهل العثور على غرفة مستقلة لامرأة وحيدة في هذا البلد. عرضَتْ إحدى الزميلات أن تكلِّم لي السيدة التي كانت تدير هذا المصنع، ربما وجدتْ لديها حلًا يناسبني، فهي لا تردّ أحدًا.

روتْ لي أن الحاج طلبة – صاحب المصنع – قد ورث هذا المصنع عن أبيه، وقد كان الأب سليل عائلة كبيرة ممتلئة بالألقاب، لكنه لم يكن يهتمّ بإرضاء العائلة بقدر اهتمامه بما يريد، ولم يكن ما أراده سيئًا إلى هذا الحد. لقد أحب فتاة جميلة تعمل هنا بالمصنع وأراد أن يتزوجها، هذا كل ما في الأمر.

ولكن كان عليه أن يواجه مشكلتين: الأولى أنه متزوج بالفعل ولديه طفل لم يكمل عامه الأول، والثانية أن هذه الفتاة الفقيرة لا تناسب مكانة الأسرة، فضلا عن أنها يونانية وحيدة هنا، وعلى الأرجح أنها قد أتت هاربة على متن إحدى السفن بلا أوراق.. ومن يعلم، ربما قد اقترفتْ جريمة دفعتْ بها إلى الهرب.

كلها حقائق أو احتمالات أقرب إلى الصحة، ولكن تظل حقيقة أخرى أقوى من كل ما سبق، وهي أن الفتاة كانت جميلة بشكل لم يسبق له أن رآه. لقد كانت زوجته الأخرى جميلة جدًا، لكنها كانت أقرب إلى تمثال شمعي منها إلى كائن حي. أما هذه الفتاة فقد كانت أشبه بكعكة إسفنجية بنكهة الفانيليا، خرجَتْ حالًا من الفرن.

تزوجَها سرًّا، وحين علم أبوه بهذا قرر طرده، لكنه مات بنزف مخّي من شدة الانفعال. هكذا عاد الابن الطريد بأسرع مما خرج، هذا لأنه كان الوريث الوحيد! واستمر الشاب في إدارة المصنع إلى أجل قصير. للأسف لم يكن حظه أفضل من أبيه الراحل، ومن الواضح أن ضغط الدم المرتفع كان من السمات المشتركة لهذه العائلة الموقَّرة.

عادتْ سندريلا الفقيرة إلى المصنع من جديد في ثوب مختلف. عادت كالفاتحين، ولم تنزل إلى الصالة بالطبع، بل احتلت مكتب المدير. برغم هذا إلا أنها لم تكن قد اختلفتْ كثيرًا، فقط ازداد وزنها ازديادًا طفيفًا عما كانت، وصارت ترتدي في كل صباح ثوبًا يختلف عما ارتدته بالأمس. أما من ناحية حزنها فلم يقل ولم يزدَد، وإنما اختلفتْ أسبابه ليس إلا.

حين كبر طُلبة وصار قادرا على إدارة ميراثه عن أبيه، طالب سندريلا بلطف أن ترحل، فهو لم يعد يحتاج إليها بعد الآن. منحها مبلغًا صغيرًا من المال، وأخذ منها كل شيء بخلاف الشقة التي تزوجَتْ بها في شارع سليمان باشا، لأن والده الراحل كان قد سجَّلها باسمها.

إنها الآن امرأة مسنّة، لكنها لم تفقد جمالها ولا رقتها ولا طيبة قلبها. وهي لا تردّ أحدًا من بنات المصنع، برغم أن معظم فتيات هذا الجيل لم يعملن معها.

لقد كان من الصعب أن تفكر في العودة إلى وطنها بعد هذا العمر الطويل، كذلك صار أمرًا غير مقدور عليه أن تفكر في العودة إلى الشارع بحثًا عن عمل ترتزق منه. قررَتْ أن تصنع من شقتها الكبيرة فندقًا لإيواء الباحثين عن مأوى وعن عائلة. هي كانت تمتلك المأوى، لكنها كانت تهتم للغاية بالحصول على عائلتها الخاصة.

صارت ماريا تعرف كامل قصتي، وأعتقد أنني الوحيدة في البيت التي عرفتُ كل شيء عنها. حتى حكاية الشاب المصري الذي كان يعمل حمالًا على سفينة يونانية، والذي رآها في الميناء ذات يوم، فألقى عليها بتعويذة فرعونية لا راد لها، حتى خلب لبّها تمامًا، فجعلها تتبعه أينما ذهبَ كالمسحورة.

على سطح سفينة مبحرة قضت معه ليال لم ولن تنساها.. وكان الحب لعبتهما المفضلة التي لا يسأمان. حين تهدأ الأجواء، ويبزُغ قمر البحر المتوسط، الذي يبدو قريبًا للغاية، ضخمًا كالريال الفضي، يصبح الكون بأكمله ملكًا لهما.. يمارسان الحب، ويتحدثان، ويضحكان في كل ليلة بالساعات، وأحيانا حتى تشرق الشمس.

Obeikan.com

وعدها بكل شيء ممكن تخيّله. أهداها شجيرة عنب، وبيتًا يستظل بشجيرة العنب، ونهرًا يمر من أمام البيت، وشلالًا ينبع منه النهر، وتلًا أخضر يحتضن الشلال.

قررا أن يتزوجا فور وصول السفينة إلى ميناء الإسكندرية. عشقت المدينة من النظرة الأولى، وعلمتْ أن الكثير من أهل بلدها قد سبقوها إليها، لكنهم لم يعودوا بذات الكثرة. شعرتْ أنها ستكون بخير لو ظلت هنا، أفضل مما لو كانت قد بقيت في اليونان.

لكنها استيقظتْ ذات صباح فلم تجده بجوارها، ووجدتْ بدلًا منه بعض المال، وعرفتْ يقينًا أنه قد استقل سفينة أخرى، وأنه لن يعود، ولو عاد فلن تكون عودته إليها. كان حلمًا أجمل من أن يصدَّق لكنها صدقته بكل كيانها. قررتْ أنها لن ترجع، فلم تكن تعلم ما ينتظرها هناك، كذلك قررتْ أنها لن تبقى في الإسكندرية برغم أنها البيئة الأقرب لما تألف وتعرف.. لم تحب ترك فرصة لوقوع أي مصادفات.

لقد أقنعتْ نفسها بالكاد بأن هذا البحّار الذي انشق عنه النيل ذات يوم بلا سبب، ثم عاد فابتلعه بلا إنذار؛ كان مجرد أسطورة قرأتْها قديمًا في كتاب حكايات قبل النوم. ولن تكون رؤيتها لوجهه أمرًا محمود العواقب.

منحت الرجل صاحب الشقة إيجار الأسبوع المنقضي، ولملمتْ أشياءها القليلة، والتجأت كالمطاريد إلى جبل تلتمس المأوى في حضن مغاراته العديدة، حيث لا يجد أحدٌ أحدًا، جبل يحج إليه كل الفارين من أنفسهم

ومن الناس، وهو شديد الاتساع والازدحام بشكل لا يناسب أي جبل على الإطلاق! ربما لهذا أطلقوا عليها القاهرة؟

ليس لأنها قهرت الغزاة أجمعهم كما يرددون على مسامع التلاميذ في المدارس، ولكن لأنها استطاعت قهر الفوارق والحواجز، وربما الحدود بين كل الأشخاص، فصاروا جميعًا كيانًا واحدًا عملاقًا، له ملايين الأطراف والعيون والألسنة والأعضاء التناسلية، وبلا قلب على الإطلاق.

*****

مع الوقت صرتُ متأكدة من أنني لم أعد على ما يرام. مرّات عديدة أجدني قد نسيت من أنا وإلى أين أنتمي، وصار الاكتئاب نمطًا وحيدًا تسير عليه أيامي. حاولتُ الانتحار مرة، لكن ماريا كانت هي من أنقذتني، أخذتني إلى المستشفى بنفسها وهي بالكاد تستطيع النزول إلى الشارع، أجروا لي غسيلًا للمعدة. وضحكتْ الطبيبة وهي تخبرني أن الأسبيرين ليس الأداة الأكثر فعالية في حالة ما أردتُ الانتحار بشكل جدّي، ومسّدت فوق شعري وجففت عرقي ورحلتْ. منذ يومها لم تخلُ حقيبة يدي من كيس صغير شفاف يحتوي سم فئران، أعرف يقينا أنني سأموت به، لكنني لا أعرف الموعد.

اعتدتُ بعدها ارتياد عيادة الدكتور عماد زهران استشاري الطب النفسي بصفة منتظمة. وكان يعرف عنّي كل ما يكفي لمحاولة انتشالي من هذه الدوامة المزعجة.

في تلك الليلة كنت قد أثقلتُ في الشراب حقًا، ولم أكن قد اعتدتُ الوصول إلى هذا المعدل.. سعدتُ لأن البيت كان خاليًا في هذا اليوم، فلم أكن أحب التعرُّض لأسئلة فضلًا عن النظرات. كان النبيذ جيدًا ولم أقاوم، هذا كل ما في الأمر.

يومها كانت ماريا قد سافرت مع كمال الصغير إلى جهة غير معلومة، وأخبرتني أنها قد تعود اليوم أو صباح غد، وقرَّرَ شوقي – ذلك العجوز الصامت – أن الوقت قد حان لزيارة قبر زوجته الراحلة.

لسبب ما كان البيت خاليًا، وقد قررتُ استغلال هذا أحسن استغلال سيء، لن أنزل إلى العمل هذه الليلة، وبالنسبة للعمل الصباحي فقد تركته بالفعل منذ فترة، حين لم أعد بحاجة إليه.

ما أجمل أن أستمتع بزجاجتي الحبيبة التي كنت أدخرها منذ فترة لمناسبة خاصة، بعدها أستلقي كالقتيلة دون أن يكون مطلوبًا مني أن أتملق شيئًا صغيرًا لا أهتم به. بعد الكأس الثانية أحببتُ أن أنال حمامًا دافئًا وأن أصنع لنفسي ضفيرتين.

خرجتُ من الحمام عارية وتركت الماء يقطر فوق السجاد وخشب الأرضية، ودخلتُ إلى غرفتي لأمشط شعري الطويل. انتقيت قميصًا قطنيًا أبيض يحمل صورة ملونة لميني صديقة ميكي ماوس. كان يصل إلى ركبتي بالكاد، ولحمالاته فيونكات جميلة.

ظللت أتحرك أمام المرآة وأستمتع بمشاهدة هذه المراهقة الصغيرة التي افتقدتها منذ زمن. وفكرتُ أن الوقت قد حان لطلاء أظافري. أتيت بلون

وردي خفيف لم أستخدمه من قبل، وجلستُ فوق الفراش أحاول جاهدة أن أطال أطراف أصابع قدميّ بالفرشاة الصغيرة.

كانت عضلاتي وعظامي جميعها تئن من الألم، وبالأخص عمودي الفقري، نظرًا لعروض السيرك القومي التي أقيمها في كل ليلة. منذ فترة أهملت الذهاب إلى الجيم.. لا أحب أن أفقد لياقتي، فلابد أن أخصص بعضًا من وقتي للرياضة.

أشعلتُ سيجارة ووقفت في الشرفة مع بقية الزجاجة. لا أعتقد أن أحدًا قد يراني على هذا الارتفاع، وإلا فقد تصير كارثة لو عرف أبي أنني أخرج إلى الشرفات بهذا الشكل..

حين عاد ياسر من الخارج كان أشد وسامة مما رأيته في آخر مرة قبل سفري. كان مرهقًا من العمل، لكنه كان خفيف الظل، وكان لا ينفك يجاملني ويمطرني بكلمات حلوة، تُشعرني بأنني جميلة وأستحق الأفضل.

لثم وجنتي ودخل ليستبدل ثيابه، ثم دخل إلى المطبخ بحثًا عن شيء يؤكل. وجدتها فرصة طيبة.. لحقتُ به في المطبخ وأحطتُ عنقه بذراعيّ بلطف..

"ماذا تفعلين أيتها الشقيّة؟"

"هلّا وجدتَ لي سيجارة حشيش بحوزتك؟"

استدار ملتقطًا يديّ بين أصابعه، وهو يقول مندهشًا:

"مالك؟ تبدين مختلفة اليوم، ألم يعودوا من الخارج بعد؟"

شعرتُ به يحاول الانسحاب بلطف، فاحتجزته بذراعي..

"لا شيء، فقط شربتُ القليل من النبيذ، هل لك في بعض منه؟"

صمتَ رامقًا إياي بتمعن، ثم هز رأسه نفيًا.. قلت:

"سيروق لك، أعرف هذا"

تنهدَ، ثم قال مبتسمًا وهو يرنو إلى الأرض:

"يبدو الأمر لمن يراقب من بعيد أنك تحاولين إغوائي.. سوف أجد لك سيجارة، ولكن ينبغي أن أخرج أولًا من المطبخ، فأنا لا أخزّنه هنا!"

راقبتُه وهو يلف السيجارة بمهارة، ثم يمنحها لي مع بسمة كبيرة..

"وبالهنا والشفا!"

ضحكتُ معه، وانتقلتُ إلى جواره على الأريكة حيث يجلس..

"ما رأيك في هذا القميص؟"

تأملني مليا بإعجاب ثم قال:

"جميل للغاية.. إنه يبرز أجمل ما فيك، ويعبّر عن سنّك الحقيقي!"

بدا في هذه اللحظة أكثر حكمة ونضجًا من كل مَن عرفت.. اقتربت أكثر حتى صرت لصيقة به.. قلت في نعومة:

"هل تريد تقبيلي؟"

صمتَ للحظات، ثم أحاط وجنتيّ بيديه وهو يقول مازحًا:

"هل تمزحين؟ ومن لا يريد؟"

ثم طبَعَ على جبيني قبلة لها صوت عال ممطوط..

"حبيب قلبي القمر"

قالها ونهضَ متجهًا نحو غرفته، فلم أستطع منع دموعي من الانهمار، استدار نحوي مندهشًا، فقلت في ثورة:

"أنت ترفضني، لكنك تخجل من التصريح بهذا.. أنا لا أعجبك، وتعتبرني امرأة سيئة للغاية، لهذا لا تريدني. لماذا لا تقول هذا صراحة؟"

عاد إلى جواري مسرعًا، وقال وهو يضمني إليه ويربت وجنتي في حنان:

"ششششش! من قال هذا؟ أنا أريدك بالفعل، وأنت صاحبتي وحبيبتي.. أنت تعلمين جيدًا كم أحبك، ولا أعتبرك سيئة على الإطلاق.. لكنك سكرانة يا زيزي، وبالتأكيد تظنين أنني ياسر! أخشى أنك حين تستيقظين لن تحبي ما سوف تجدينا عليه، وربما اختلف ما بيننا.. هل تفهمين؟"

لثم وجنتي ومسح دموعي بأصابعه، ثم عاد ليسند رأسي إلى صدره مجددًا..

"هووووو!"

استكنتُ بين ذراعيه قليلًا كطفلة، ثم قلت:

"هل تستطيع أن تساعدني في طلاء أظافري؟!"

ضحك بصوت صاخب، ثم قال:

"بالطبع أستطيع، لكنني لن أفعل"

obeikan.com

"هلم، لا تكن هكذا! أنا لا أستطيع الانحناء لأن ظهري يؤلمني للغاية.."

ضحك أكثر وهو يدغدغ خصري..

"أيتها العفريتة الملعونة، أعرف ما تريدين.. كفي عن الدلع"

قلت مختنقة من الضحك:

"إن فعلت هذا سأقدم لك شيئًا في المقابل.. هل ترى أظافري الطويلة؟ سوف أحك لك ظهرك حيث لا تستطيع أصابعك الوصول.."

كنا كطفلين بريئين يلهوان حقًا، وكانت لمساتنا الغارقة في المرح والضحك شديدة النزق. تبادلنا رش بعضنا بالماء، ورسم لي قلبًا في باطن قدمي باستخدام طلاء الأظافر، صار يقرصني ثم يجري، مستمتعًا بانتصاره عليّ كلما صرخت بصوت عال، ولم يعدني بالتوقف عن هذا إلا حينما هددته بدبوس الشعر.. كان يصرخ ويقفز مترًا في الهواء كلما اقترب منه الدبوس. ولم أشعر بسعادة مثلما شعرت بها في هذا اليوم. كان يقبّل أجزاء جسدي المختلفة في بطء يصيبني بالجنون، وكانت صيحاتي التي تتعجله تزيده عنادًا.

فعلناها بجنون تام، وتخطينا الحدود، وأكاد أجزم أنني لم أستمتع في حياتي كما استمتعت في هذا اليوم النادر، الذي خرج عن كل حسابات الزمن..

*****

"كيف حالك الآن.. أفضل؟"

قلت وأنا أنهض جالسة لا أهتم بعريي، فقد كان الشيء الوحيد المرئي بالنسبة لي هو طرف السيجارة المشتعل:

"صداع شنيع.."

سمعته يتنهّد، قبل أن ينهض متحسسًا طريقه إلى باب الحجرة..

"هذا هو ما كنت أتحدث عنه.."

ضغط زر الإضاءة، فغمر الضوء أرجاء الحجرة. كان جلده الأسود يلمع تحت ضوء الحجرة الأصفر ببريق عجيب، كأنه هو مصدر الضوء. خرج دون أن يلتفت ناحيتي وهو يقول:

"سأصنع شايا.."

التقطتُ القميص من على الأرض، ونهضت خلفه قائلة برقة:

"سآتي معك"

التفتَ يتأملني طويلًا بصمت. كان تعبير وجهه يحمل أسفًا.. فتحركتُ نحوه مغالبة ألم رأسي، وأمسكت بكفه..

"لا تتسرع في إطلاق الأحكام.."

طبعتُ على ظهر كفه قبلة خفيفة، ثم قلت مبتسمة بصوت خافت:

"لا يمكنك أن تتصور كم أحببتُ هذا"

ابتسم أخيرًا، وضمَّني إليه بحنان غريب. عاد إلى الداخل ووضع نفسه في ثيابه، ثم تناول كفي وقادني إلى المطبخ..

"الساعة تخطت السادسة ولم يعد أحد منهم.."

"مَن تكون نانا؟!"

تجمد في وقفته وتأملني في ذهول، قلت:

"لقد ناديتني باسمها عدة مرات، بينما نحن معًا.."

"لابد أنه تأثير النبيذ، أنت أيضا ظننتِني ياسر طيلة اليوم!"

"إذن نحن متعادلان"

كنت في الحقيقة أكذب، فهو لم ينطق الاسم أمامي، وإنما سمعته يتردد بداخله، ضمن أشياء كثيرة..

كان طبيبي قد تحدث معي في يوم تال لزيارتي له بصحبة حامد حول هذا الموضوع. في تلك الأيام كان حامد لم يزل في أول شهور التجنيد، وكان قد أنهى إجازته الأخيرة منذ أقل من أسبوع، لذلك كان من الغريب أن أراه أمامي في هذا التوقيت.

أخبرنا أنها إجازة عادية، لكنني عرفت أنه يكذب، خاصة حين لاحظت أنه يرتدي السترة الشتوية ذات الأكمام الطويلة في هذا اليوم الصحو.. اعترف لي في الليل أنه أقدم على الانتحار، أثناء نوبة جنونية لحقت به، ولا يذكر الكثير مما حدث أثناءها، لذلك أمر القائد بإجازة استثنائية للمركز

obeikan.com

كله. ضممته إليّ طيلة الليل وصرنا نبكي سويًا، وأخبرته عن محاولتي الانتحار منذ سنوات أنا الأخرى، لكنها لم تكن بمثل هذه الوحشية.

في هذه الليلة نام حامد في فراشي لأول مرة، وكان في نومه يشبه طفلًا صغيرًا، بالغ الضعف والهشاشة. اهتممتُ بجرح يده بنفسي، ولم يعرف أي شخص بحقيقة هذا الجرح سواي.

وفي مساء اليوم التالي أقنعته بأن يصحبني في زيارة إلى الطبيب الذي يتابعني، فوافق.. كان بحاجة إلى شخص يقول له ما يجب عليه أن يفعل.

وجدتُ الطبيب قد اهتم للغاية بحامد، وتبادلا حديثًا مغلقًا لساعة كاملة.. في زيارتي التالية أخبرني الطبيب أن هذا الفتى يعد نموذجًا فريدًا لحالات التخاطر الذهني التي قرأ عنها طويلًا، دون أن يحظى بفرصة مقابلة أحد منهم.. قال لي كذلك إن حامد لا يملك أدنى فكرة عن هذا الأمر، وطالبني بعدم البوح بهذه الحقيقة لأي شخص، كي لا نعرّض الفتى للمزيد من البؤس. بالتأكيد لن يتركه أحد ينعم بلحظة واحدة من الراحة لو انتشرتْ المعلومة. اندهشتُ من هذا الكلام، ولم أصدِّق معظمه، وحاولت في الأيام التالية التأكُّد بنفسي من هذه الحقيقة، لكنني لم أصل إلى أي شيء، فنسيت الأمر بمرور الوقت، ولم يتحدَّث معي الطبيب ثانية حول هذا..

لكنني اليوم تذكَّرتُ كل ما قيل عقب تلك الزيارة، وفهمتُ ماذا كان يعني الطبيب. كان هذا غريبًا، لكنه لم يكن مخيفًا، على الأقل بالنسبة لي.. أعتقد أن لا شيء قادر على إخافتي بعد الآن.

عماد

أعرفُ بأنني اقترفتُ الكثير من الأخطاء على المستويين المهني والإنساني، وأنني بالفعل شاركتُ في هذه المأساة بدور لا يمكن التغاضي عنه.

إن هذا التسجيل هو أقصى ما يمكنك الحصول عليه، لأنني لا أعرف غير الذي سأقوله حالًا. الآن سوف أخبرك بما قد يساعدك، ولكن أرجو أن يتم استخدام هذا الشريط بحكمة. لا أحب أن تتعرضَ للخطر، كما لا أحب أن تسوء الأمور أكثر بعد موتي.

رجاء لا تُخرج هذا التسجيل إلى العلن.

نعم، أنا الآن شخص ميت، ولكن لديّ أسرة لن أحب لها أن تعرف ما ستعرفه أنت حالًا.. سوف أثق في كلمتك – التي لم تقلها – وأخبركَ بكل شيء، ولا أعلم إن كان هذا سوف يمر على خير أم لا..

obeikan.com

نعم، لم يفعل حامد كل هذا. لم يعمل لصالح دولة أجنبية، ولم يكن يعلم بالتاريخ الحقيقي لهذا الرجل، بل لم يكن يدرك أنه هو نفسه يتمتع بأي مواهب نادرة من الأساس. كان مجرد شاب بسيط لا يملك أي وسيلة للدفاع عن نفسه، ولا يعرف شخصية واحدة ذات نفوذ، ولم يجد الفرصة لاتخاذ أدنى رد فعل ممكن.

ربما في مكان آخر غير هذا، لا تكون مثل هذه الأسباب كافية جدًا، كي يحدث لشاب مثل حامد ما حدث..

*****

لم تكن عيادتي هي الأكبر، ولا الأشهر، ولا الأنقى سمعة، ربما لأن معظم زبائنها من الفئات المغضوب عليها في هذا المجتمع.

مدمنون، عاهرات، والكثير من الشواذ.. لكنها كانت تعمل كما يجب، وكانت تغطي نفقات بيتي وتتولَّى دفع فواتيري، وهو ما يكفي لاعتبارها ناجحة بالنسبة لي.

كثيرًا ما كنت أتساءل، هل يجبُ على الطبيب انتقاء مرضاه كي يحافظ على سمعته؟

بالطبع لا، أي مجنون قد يفكر في هذا؟! إن مهمة الطبيب هي الارتقاء بصحة الإنسان، والمساهمة في رفع مستوى رفاهيته، أيا ما كانت وظيفة هذا الإنسان، أو مشكلته، أو عدد من يطاردون مؤخرته بعصي المكانس أو القيود المعدنية.

وكان أفضل مشهد يمكنني أن أغلق عيني قريرًا في كل مساء بعد رؤيته، هو ابني الصغير في فراشه، ينعم بنوم هانئ بعد أن تناول عشاءه.

حين كنت أستسلم لحزن أو غضب، ناتج عما يبلغني من أحاديث تتردَّد بين زملاء مهنتي؛ كنت أستمد قوتي، وأعيد شحن خلايا طاقتي من هذا المشهد.

*****

منذ عام تلقيتُ اتصالًا من أحد الأشخاص، ادَّعى انتماءه إلى أحد الأجهزة الأمنية الهامة. إن الجهات الأمنية التي لا تُعلن عن هويتها في هذا البلد، هي مباحث أمن الدولة أو المخابرات العامة، ولكن ما الذي قد يُشغل المخابرات العامة بشأن كهذا؟!

انتابتني نوبة من القلق تجاه سبب المكالمة، لكن الرجل كان هادئًا وهو يخبرني بأن هناك بعض التخوّفات مما يمكن أن تواجهه البلاد خلال الفترة القادمة، وهو يرغب في مساعدتي. أملاني قائمة تحتوي على بعض البنود:

- كل من يتضح أنه قد قرر، أو حاول، أو خطَّط لجريمة قتل.
- كل من يجد متعة ما في إشعال الحرائق.
- كل المحبين لتعذيب الذات أو الغير.
- كل من يتمتع بأي قوة عقلية زائدة عن المألوف، أو لديه أي قدرة فائقة للحواس.

لقد افترض الرجل صاحب الاتصال أنني بالتأكيد قد التقيتُ ببعض النماذج التي وردتْ في القائمة، وربما كلها، ما دمت طبيبًا يعالج مجانين! وما طلبه الرجل منّي، أن أمدّه بكل المعلومات حول أي شخص ينتمي إلى هذه القائمة، وأن أرسل إليه نسخة من ملف الشخص، في سرية تامة ودون أن يعرف أحد.

لم أتمكن من ابتلاع هذا الكلام، ورفضتُ في قوة، متهما إياه بالكذب. أي جهاز أمني في مصر هذا الذي يهتم بالتاريخ المرضي للمواطنين؟!

لم يفقد هدوءه وثبات أعصابه، وقال إنني يجب أن أقبل بهذا، مهما كانت الأوامر تمثِّل خرقًا واضحًا لآداب وشرف المهنة، وكل هذا الهراء الذي يمكنني التشدق به، لأن مصلحة الدولة فوق أي اعتبار آخر.

طمأنني أنه ليس من مصلحته أن يعرف أحد المرضى بأنه مراقَب، كما أنني لن أحب أن يعلم المريض بأنني أفشيتُ أسراره. ما يحدث في الداخل سيظل في الداخل، ولا يجب علينا الندم تجاه بعض التجاوزات الطفيفة غير المؤذية، ما دام هذا يحدث لصالح الأمن العام.

قبل أن أقول المزيد، نصحني صاحب الصوت الهادئ بتفقد البريد الذي وصلني هذا الصباح أولًا، ثم تمنَّى لي ليلة طيبة وأغلق الخط.

في نهاية اليوم تأكدتُ من أن أحدًا لم يعد باقيًا بالخارج، وصرفتُ السكرتيرة، ثم انفردتُ وحدي بهذا الظرف الكبير.

obeikan.com

كان نقيًا من أي كتابة يدوية أو مطبوعة، لكن هذا الانتفاخ أنبأني بأنه يحمل مصيبة. وجدت بالداخل صورًا لبعض التقارير الأمنية التي تفيد بأن بعض المختلين قد قاموا ببعض الجرائم.

وما الجديد في هذا؟! إن الجرائم تقع في كل دقيقة، وإن نسبة من يقومون بها من العقلاء أكبر بكثير من غيرهم. لو كان يظن أنه قادر على إقناعي بهذه الأوراق فهو مخطئ ولا شك. بين التقارير وجدت ظرفًا آخر أصغر حجمًا، لكن محتواه كان أعظم تأثيرًا بكثير..

*****

كلنا نخطئ ونصيب، ولكن حين يطَّلِعَ أحدهم على أخطائك بالذات، تكون أكثر عُرضة للمتاعب. هذا الضابط كان يستطيع بالفعل خراب بيتي لو لم أتعاون معه. لا أدري كيف أمكنه التقاط هذه الصور، ولا كيف جمَعها؟!

لم أكن أدرِك ولم يخطر ببالي من قبل أنني تحت المراقبة على هذا النحو. بداخل الظرف الصغير، وجدت بين الصور بطاقة صغيرة تحمل رقم هاتف، ومكتوب على ظهرها كلمتان بخط واضح منمق:

"فكر جيدًا"

بالطبع كان الأمر الوحيد الذي فكَّرتُ فيه بعد اطلاعي على هذه الصور، هو عبارته التي قال فيها، إنه ليس من مصلحته أن يعرف أحد المرضى بأنه مراقَب.

Obeikan.com

بالتأكيد كان صادقًا في هذا. أي شخص يعلم أنه واقع تحت المراقبة، سوف يتخذ حذره، ولن تعود لمراقبته جدوى..

فوق كل هذا، أنا بالفعل لم أكن قد قابلتُ أحد هؤلاء الذين ورد ذكرهم في القائمة، فما المانع من أن أوافقه على طلبه، وأن أعده بأنني إن عثرتُ على أحدهم فسوف أبلغه على الفور؟ رفعت سماعة الهاتف وأجريت اتصالًا بدا وكأنه ينتظره:

"ما دمت تراقبني جيدًا، فأنت تعلم بالتأكيد أنني لم أقابل أيًا ممن يمكن أن يثيروا لديك اهتمامًا.."

"أنا أعلم أنك لم تفعل، ولكن من الوارد أن يحدث هذا.. لا أريد منك أن تقلق، فإن هذه الصور كما لابد أنك لاحظتَ قد تم التقاطها منذ فترة طويلة، ولم يحدث أن سببَتْ لك حرجًا طيلة هذه الفترة، أليس كذلك؟ فلنعتبرها كأنها لم توجد أصلًا ما دُمنا سوف نتفق. يمكنني إرسال الفيلم وباقي النسخ إليك في الحال، لكنني سأحتفظ بهم حتى تُبلغني بأي شيء هام. فلا أحب أن تفقد حماسك لخدمة الوطن للحظة واحدة!"

سألته إن كانت هذه الأوامر صادرة لي وحدي، أم إنها نشرة تم تعميمها على كل الأطباء النفسيين في البلاد؟ أجابني بأنها لا هذا ولا ذاك، وبأكبر قدر من التهذيب والكياسة حاول أن يفهمني الوضع الحقيقي. واستنتجتُ من كلماته الملتفة أنها نشرة صدرت فقط للأطباء الذين وقعوا في أخطاء كبيرة مثلي، ويسهل الضغط عليهم. لم يكن ليعاني خجلًا وهو يصارحني بهذا الأمر، لكنه فيما يبدو كان يخشى أن يجرح مشاعري!

أنهيتُ المكالمة، ولم أتلق غيرها لمدة أشهر. كنتُ شديد القلق بسبب محتوى الصور التي يحتفظ بها ضدي، وفي نفس الوقت لم أكن التقيتُ أو سمعتُ بشخصٍ من الذين يبحث عنهم. فكرتُ أن أتصل به وأطلب منه الصور، لكنني خفت من الإقدام على هذا الفعل. صار محتمًا أن أجد واحدًا بسرعة..!

*****

حين أخبرتْني عزة، أنها تود أن أرى صديقًا لها وافقتُ طبعا، لكنني لم أتخيل أنها سوف تمنحني هذه الهدية.

كان شابًا صغير السن لم يُنه فترة تجنيده بعد. عرفتُ أنه قد قَطَع شرايينه منذ فترة قصيرة، لكنه نجا. وقد كانت عزة خائفة من تكرارِ الأمر، ورغبَتْ أن أقابلهُ بنفسي وأتحدث معه قليلاً.

وجدتُه شديد النقاء والطيبة، أميَل إلى الصمت، وليس لديه الكثير ليقوله. كان حديثنا عاديًا للغاية، لم يخرُج عن بعض الأسئلة المعتادة حول العمل والحياة والأصدقاء والأهل، والإجابات القصيرة التي لا يميل صاحبها إلى الثرثرة.

حاولتُ الحفاظ على ثباتي في مجلسي، وألا يبدو عليّ أي شيء، وأنا أكتشفُ هذا الكنز في بطء وتركيز. منذ الدقيقة الأولى اكتشفته، وعرفت إلى أي حد كان مختلفًا. كانت موهبته صافية كالماء العذب، بالغة النقاء كالبلور. أسرَني هذا الكمّ من السِّحر، واندهشتُ بقوة من أنه لم يكن يَعرف أي قَدر من الطاقة النادرة يحمِل.

برغم سعة اطلاعي حول هذا الموضوع، إلا أنني لم أتخيّل الأمر على هذا النحو، كانت تجربة فائقة الروعة أن أقابل هذه المعجزة وجها لوجه. لكن انبهاري العلمي لم يُنسني أنه قد حان الوقت لتقديم حصتي من الاتفاق مع هذا الضابط، والحصول على صوري أخيرًا.

في نفس الليلة أجريتُ الاتصال، ومنحته البيانات التي أعرفها عن الفتى وصاحبته التي أتت به إلى هنا. في الصباح التالي وجدتُ على مكتبي ظرفًا أبيض يحتوي على عدة نُسخ من صوري، وعدد ثلاثة أفلام تصوير فوتوجرافي.

كنت أخشى بشدة أن يتأذَّى هذا الولد، فهو لم يفعل أي شيء، ولا يبدو من النوعِ القادر على الفعل أصلًا. لكنني كنت أخشى أكثر أن تخرج هذه الصور إلى زوجتي، أو زملائي في النقابة، أو إلى مرضاي.

وكانت ليلتي الأولى منذ تلقّيت الاتصال الأول، تلك التي أغفو فيها بهذا العمق والاطمئنان. لقد استقامت الأمور أخيرًا.. بالطبع كنت شديد السذاجة حين تصورت هذا، لكن اكتشافي للحقيقة استغرق مني بعض الوقت.

سارت الأمور على ما يرام طيلة الأشهر القليلة التالية، منذ تلقّيت الصور ولم يعاود ذلك الضابط الاتصال بي. كذلك داومَتْ عزة على زيارتي بشكل طبيعي، ولم تذكر أن صديقها الصغير قد تعرض إلى أي مكروه.

لكنها منذ ثلاثة أيام أتت إلى عيادتي وكانت تقريبا منهارة من شدة البكاء. ظلَّتْ تتلفت حولها مذعورة وكأن أحدًا كان يطاردها. طلبتُ لها

عصير ليمون ومنحتها مهدئًا، واعتذرتُ لمريض آخر، طالبًا منه بلطف أن يكرر الزيارة في الغد. حين هدأتْ بعض الشيء واستطاعتْ أن تتكلَّم، أخبرتني أنها كانت على وشك الانتحار، لولا أن الفرصة لم تسنح.

وحين وجدتْ نفسها وحيدة في النهاية، خافت أن تفعلها، فتركَتْ كل شيء وهرعت إلى هنا. قالت إنها قد تلقتْ اتصالًا من مجهول يرغب في مقابلتها، تصورته زبونًا عاديًا، لكنها حين ذهبت إليه، أخبرها أن من أرسله يمتلك صورًا وتسجيلات لن تحبَّ أن يطلَّعَ عليها أحد، وبالأخص شقيقاتها وأمها في قريتها التي تركتها قديما!

كان صريحًا لا يملك الكثير من الوقت، وقد طلبَ منها خدمة بسيطة في مقابل المستندات التي يحتفظ بها رئيسه. هناك رجل أجنبي تحاول السلطات الإيقاع به لأنه يمثل خطرًا على الأمن العام، لكنه حريص كثعلب عجوز، لا يترك أثرًا ولا يقع في خطأ.

أخبرها أن هذا الشخص يشغل منصب المدير العام لمؤسسة صناعية كبرى في وطنه. هذا الرجل خطر إلى حد لا يمكن التهاون معه، لكنه في النهاية رجل عجوز ثري، وهو بالتأكيد سيرحب بقطعة سهلة من اللحم، خاصة لو كانت تامة النضج.

ستكون مهمتها أن تلتقي به وتقضي معه بعض الوقت، وستحرص جاهدة على جعله يرتاح إلى صحبتها، وأن يرحِّب برؤيتها مجددًا، وكان هذا هو كل المطلوب منها في الوقت الحالي.

Obeikan.com

لم تكن المهمة صعبة عليها، وخاصة مع الوضع في الاعتبار أن هذا العجوز شقي إلى حد كبير، ولديه الكثير من المغامرات النسائية.

ولقد وعدها الرجل بأنه سيرسل مع أوراقها مبلغًا جيدًا لم تكن تحلم به، بخلاف ما ستناله من العجوز الأجنبي.

بالفعل يبدو الأمر شديد البساطة والإغراء معًا، لكنها كانت تعلم أن الأمر يختلف هذه المرة، ليس كأي رجل أجنبي أقامت معه علاقة.. كانت تشعر للمرة الأولى بأنها مهدَّدة، ولم يخطر ببالها قط أن أحدًا قد اطلَّع على تفاصيل حياتها الليلية، ووثّقها بشكل لن يجعلها فخورة بالتأكيد. كنت أفهم هذا الشعور جيدًا، لأنني كنت منذ فترة قصيرة، في نفس الخانة التي تحتلَّها هي الآن.

كانت جِد خائفة، تشعر بأن كل شيء موشك على الانهيار، لكنني أوصيتها بالهدوء والتماسك، ووعدتها أن شيئًا لن يحدث. طلبتُ منها أن تعود إلى البيت وأن تحظى ببعض الراحة، وأن تفعل ما طُلبَ منها كي لا تتعرض لمشكلات هي في غنى عنها، وأكدتُ لها أنه لا يجب عليها إعلام أي شخص غيري بهذا الأمر.

كان من الصعب أن أنصحها بهذا، لكن خبرتي السابقة أنبأتني بأنه الطريق الأقصر نحو إنهاء الأمر.. لم يكن الوضع يسمح بالتجربة.

لم أرها لثلاثة أيام متصلة، وفي الرابع تلقيت اتصالًا هاتفيًا من ذلك الرجل مرة أخرى، وكنت أظن أنني لن أسمع صوته مجددًا.

obeikan.com

في هذه المرة طلب رؤيتي.. منحني الرجل ملفًا يخص شخصًا يدعى جوزيف ليبروسكي. كولونيل متقاعد، كان تابعًا لجهاز K.G.B فيما سبق قبل حل الاتحاد السوفيتي، وإلغاء الجهاز. كان ليبروسكي هذا معنيّا بأبحاث التخاطر أو *القوة الخامسة* كما كانوا يطلقون عليها في الستينات من القرن الماضي.

تلك الأبحاث التي بلغ إنفاق موسكو في سبيلها الستّين مليون روبل للعام الواحد! تقول الأوراق الرسمية إنه قد تقاعد منذ سنوات وكف عن العمل العسكري، وهو الآن يقيم في القاهرة إلى حين، ويشغل منصبًا إداريًا في إحدى المؤسسات الصناعية في روسيا. لكن الأوراق الرسمية ليست صادقة دومًا.

أخبرني الرجل أن ليبروسكي ليس هو رجل الأعمال الثري العجوز، الذي يميل إلى قضاء بعض أيام الشتاء في سلام، تحت شمس دافئة لم يعتدها في أرضه. فالحقيقة أنه لم يتقاعد ولم يكف عن العمل، وهو الآن يهدد أمن البلاد بشكل لا يمكن مقاومته بالطرق الديبلوماسية المعتادة، لأنه لا يترك خلفه أي دليل، ولن نجد ما يقال لسفارة بلاده.

سألته عن نوع هذا التهديد، فلم أتلق إجابة. وسألته عن علاقتي بما يقول، فأخبرني بأن قادته قد وضعوا خطة محكمة للإيقاع بهذا الرجل، لكنها لن تنجح دون معاونتي. رفضتُ الاشتراك في أي شيء آخر يتعلق بهذا الأمر، ولكن لم يكن لدي الخيار، فقد علمتُ أن ما وصلني لم يكن كل النسخ.. سوف يظل هذا الرجل قابضًا على عنقي حتى يموت أحدنا.

كنت أعرف أن هذا الروسي هو ذات الرجل الذي طُلب من عزة أن تقيم معه علاقة، لكنني لم أخبر هذا الغامض بأنني أعرف، كما لم أستطع استنتاج الرابط. لم يطلُب منّي الكثير، كل ما كان عليّ فعله هو الاتصال بهذا الروسي، لأخبره بأن لدي ما يهتمّ بالحصول عليه، وأن أطلب مقابلته..

*****

- "أنا د. عماد الدين زهران، طبيب نفسي وأستاذ جامعي. أشكرك لأنك وافقت على مقابلتي.. أعلم أن وقتك قد لا يسمح بالكثير من المقابلات"
- ■ "عفوًا، ولكن اعذرني فلا أعتقد أنني أعرفك؟"
- "أنت بالفعل لا تعرفني، لكنني عرفتك جيدًا.. أرجو أن تستمع إليّ في هدوء حتى أنتهي، ثم سيكون لك مطلق الحرية إن قبلت عرضي أو رفضته.. أنا أظن أن لدي شيئًا قد ترغب في الحصول عليه، في البداية سوف يجب أن أتأكد من وجود هذه الرغبة لديك، بعدها نتفق على ثمن مناسب.."
- ■ "......!!"
- "إن تاريخك في العمل المخابراتي يسبقك حيثما تذهب، هذه حقيقة لا مجال للتنصل منها. أنا أعرف بعض الأشخاص في جهاز المخابرات العامة، وقد عرفتُ قصتك كاملة من خلال أحدهم.. أنت تعرف أن الأسرار القديمة تتحول بمرور الزمن إلى حكايات. كان هذا الصديق مكلفًا بمراقبتك، لأنك وجه مشهور كما سبق

وأن أخبرتك. وقد تصادف أن عرف صديقي هذا أنك قد تعرَّفت بفتاة تدعى زيزي.."

- "يا لدهاء أجهزة المخابرات، أرجو ألا يكون صديقك هذا قد التقط صورًا للوشم الجديد على مؤخرتها، فهي مهتمة بأن لا يراه أحد غيري!"

— "لم يكن ليخبرني هذا الصديق بأي شيء حولك، لولا أن تلك الفتاة اعتادتْ التردد على مكتبي من وقت لآخر.. أنا لا أهتم بها الآن، ولا بما تضعه من وشوم على أي جزء في جسدها.. كل الحكاية أن صديقي في المخابرات أحبَّ التأكد من أنني لا أعرف أي شيء عن هذه العلاقة، وأن زيزي لا تعرف عنك جانبك الآخر القديم.. من هنا روى لي الصديق بعض الحكايات القديمة عن أعمالك المتعلقة بأبحاث (PSI) في موسكو ولينينجراد.."

- "يا لها من سنوات مجيدة! لست مندهشًا من أن هذه المعلومات تُتداول علنًا هذه الأيام.. فقد كان هذا منذ عقود طويلة، ولابد أن العالم كله يضحك من هذه التجارب الآن.."

— "لا أعلم، أنا لا أؤمن كثيرًا بالمصادفات.. لابد من وجود سبب قوي لهذه الجلسة التي نجلسها الآن. سأحاول أن أنحِّي كلمة *مخابرات* جانبًا.. أنت لم تعد ذلك الشخص، ولا أنا أحب أن

يعرف أصدقائي بالسبب الحقيقي لهذه المقابلة، وإن اتضح أن أحدهم كان يراقبنا، فسأدَّعي أنني أتيتُ لأطلب منك الابتعاد عن زيزي.. لنحاول أن نكون مجرد شخصين عاديين لا يتصلان بأي مكتب أو جهاز أو أي من تلك الأمور التي تسبب التوتر.. هل يمكنك هذا؟"

- "هات ما عندك بأقل عدد من الكلمات.."

– "حسنًا، لا أعرف إن كنت لا تزال مهتمًا بمقابلة E.S.P حقيقي؟"

- "هل تدّعي أنك تعرف طريق واحد منهم؟"

– "أؤكد لك هذا.. وهو سرٌّ لا يعلمه سواي أنا والشخص موضوع حديثنا، إنه حتى لن يعلم بأننا تقابلنا وأجرينا هذا اللقاء.. أنت تعرف أن هذا يخرق قواعد المهنة!"

- "هلم! إن حديثك هذا قد خرقَ قواعد مهنتينا بالفعل!"

– " هل يعني هذا أنك ترغب فيما لديّ أم لا؟"

*****

كان الحوار السابق مسجلًا تحت رعاية هذا الشخص المجهول، الذي صار يمثِّل لي ما هو أكبر من الكابوس. كنت أتساءل كيف ستنجح الخطة لو أن ليبروسكي هذا لم يتحمَّس، ورفض الصفقة؟

obeikan.com

ألم يكن من الوارد أن اهتمامه قد خفت أو تلاشى بهذا الموضوع منذ عقود؟ لكنهم كانوا واثقين من أنه سوف يلتقط الطُعم بسهولة. وأعترف أن أدائي كان مقنعًا، كنت الشخص الذكي الطمّاع الخسيس صائد الفرص، كما يجب أن أكون، وبشكل لا يمكن معه أن يشك.

رفضتُ أن أطلعه على معلومة واحدة قبل أن نتفق وأن أنال حقي كاملًا، بعدها لو وجد الأمر ينطوي على خدعة ما، فهو سوف يقدر على الوصول إلى مكاني وأن يسحقني بالتأكيد.

أخبرته أن الشخص الذي يبحث عنه يدعى حامد، وأنه صديق لصديقته زيزي، وهو يعمل كذا وعمره كذا و.. و... و...، لكنني طالبته بأن يكون حكيمًا حين يحاول الاقتراب من هذا الفتى.

أخبرني بأن هذا يدخل في حيز عمله، وأنني قد قمت بدوري كاملًا، فتركته يفعل ما يريد..

فيما بعد أطلَعتْني عزة على ما حدث، هي كانت تتصوَّره بالفعل مجرد رجل أعمال، يرغب في الحصول على أيدي عاملة شديدة المهارة في مجال تشغيل المعادن، للعمل خارج مصر.

وحتى وإن كانت الأجهزة الأمنية في مصر تعتبره مصدر قلق، فلم تكن لتتخيّل أن لهذا الرجل علاقة بأعمال المخابرات بحال.. هي تؤمن بأن أي شخص يقلب سحنته في وجه رجل أمن، هو شخص يمثِّل مصدرًا للقلق!

كانت تتصوَّر أن المهمة قد انتهت عند هذا الحد، وأن الرجل الذي اتصل بها ذات يوم وطلب منها أن تدخل فراش ليبروسكي، قد نال ما أراد،

خاصة وأنه قد أرسل إليها الصور التي تخصَّها مع مبلغ مالي كبير، ولم يعد يتصل بها.

لكنني كنت أعرف أفضل منها، بالطبع لم ينته أي شيء وإنما بدأ حالًا. كنت أعرف أن حامد لن يسافر، وأن هذا الضابط مجهول الهوية، سوف يقوم باستغلال هذه التسجيلات مع الصور التي التقطَها خلسة، في تلفيق قضية لهذا *الجاسوس الخطر* من أجل الإيقاع به.

لا أعلم لماذا يريد الحصول على الرجل ولا أهتم بالأسباب.. لكنني كنت متأكدًا من نقطة واحدة، إنه لم يكن ليستطيع اعتقال الرجل أو اختطافه، لأن هذا سوف يتسبب في إثارة الوضع بشدة بين القاهرة وموسكو، بشكل ربما لا يكون لنا قبل به..

حتى لو لم يعلموا بأن جهازًا أمنيًا رسميًا قد تورط في هذا الأمر، فيكفي أن الدولة بأجهزتها لم تستطع حماية رجل واحد على هذا القدر من الأهمية. إن أردت الحصول على رجل مثل ليبروسكي، فلابد من الكثير من العمل الشاق.. وبرغم علمي بكل هذا، أقنعت زيزي بفكرة إخبار ليبروسكي عن صديقنا الصغير حامد، إنه شاب ممتاز ومجتهد ويستحق فرصة جيدة كهذه. بالتأكيد كان لي دور في كل هذه المأساة، ولولا اشتراكي لما نجح الأمر على هذا النحو.

بالأمس اتصل بي ذلك الشخص المجهول، وطلب أن يقابلني اليوم في عيادتي، فقد انتهى الأمر ولابد من تصفية كل ما يتعلق بهذه العملية. أشعر بأنه يرغبَ في تصفيتي أنا شخصيًا، ولا أقدر على عدم إجابة طلبه، فقد

يأتي حاملًا النسخ الأخرى من صوري بالفعل. أشعر بضعف ويأس وانهيار في كل مرة أواجه فيها هذا الشخص.. لا أعرف ما يجبُ عليّ عمله. على أي حال لقد استعددتُ جيدًا، وقمت بتسجيل كل شيء حول هذه العملية تحسُّبًا لموتي. ربما لو مت قد يستطيع شخص مثلك إيجاد هذا الشريط.. الساعة تدق معلنة عن الموعد.. لابد أن أوقف التسجيل وأن أستعد لاستقباله، فإن طرقات هادئة تتصاعد بالفعل على باب مكتبي..

Obeikan.com

obeikan.com

حسين

قلّبتُ بين أصابعي شريط التسجيل الصغير، واستولتْ على عقلي أفكار ملتهبة، أخذتني في رحلة طويلة بين أمواج الشرود المتتابعة. كنت أعرف أن الأمر ينطوي على مؤامرة كبرى. بالفعل كنت على يقين من هذا، لكنني لم أتوقَّع للحظة أن تصل الأمور إلى هذا الحد. وضعتُ السماعات الصغيرة في أذنيّ وأدرت الشريط مرة أخرى وأخرى.

حين علمتُ من خلال قراءتي الصبورة لمذكرات عزة، إحدى الضحايا، أن هذا الطبيب القتيل كان هو الذي يتابع معها، وكان أيضًا على علم بمشكلة حامد؛ كان عليّ إجراء زيارة أخرى إلى موقع الجريمة.

وجدتُ كل شيء بالمكتب على حاله، فقط تم رفع الأشياء التي قد تلطخت بالدماء، أو تم اعتبارها أدلّة ذات قيمة في التحقيق، والتي كان من ضمنها – بالتأكيد – السلاح؛ أداة التنفيذ، والجثة!

لكن هذا المسجل الصغير الذي كان يستخدمه القتيل عادة في أثناء جلساته العلاجية، والذي كان موضوعًا فوق المكتب بشكل تلقائي، لا ينم

عن مدى خطورته، كان موجودًا. لم أندهِش من كون قاتلِه لم ينتبه إلى أهمية ذلك الشيء، لأنني أنا نفسي لم أنتبه إلى وجوده أصلًا في الزيارة الأولى لهذا المكان.

ما أدهشني فعلًا هو أنني وجدتُ نفسي، في هذه المرة، منساقًا إلى العبث به. إن تلك المعلومة الصغيرة التي فاتتها الحافلة، فتأخرَتْ قليلًا، كانت تقدر على التدخُّل، فتضع هذا الطبيب ضمن قائمة ضحايا المتهم المسكين حامد، أو على أقل تقدير، تضع القضيتين في ملف واحد ولو بشكل مؤقت.

لم أستطع كتمان انفعالي، انطلقتُ في أروقة المستشفى بسرعة أكبر، حتى بلغتُ باب الغرفة التي يرقد حامد بداخلها، ربما أدى الجندي الواقف بالباب تحية خرقاء حين رآني، لكنني لم أنتبه.

وجدتُ الممرضة المترهلة التي جلبت لي الأوراق والأقلام، واقفة على مقربة من الباب، تحادث زميلة لها وتضحك في انشراح، لابد وأن عامل المشرحة، واللحّاد، يجدان أيضا بعض لحظات الانشراح أحيانًا..

توجهتُ إليها، وسألتها عن الطبيب المعني بمتابعة حامد.. قالت بغير اكتراث إنه ليس موجودًا الآن، واستدارتْ من جديد نحو صاحبتها تواصل الحديث الضاحك.

دخلتُ إلى الغرفة وأغلقتُ الباب من خلفي، وتقدمتُ بهدوء من الفتى الراقد في صمت..

"هل أقمتَ علاقة مع المرحومة عزة؟"

لدقيقة، لم يلقَ سؤالي أدنى استجابة. بدا كأي شخص آخر واقعًا في غيبوبة عميقة، ولكن بالنهاية أتاني الرد..

"كيف علمت بهذا؟"

تردَّدَ الصوت العميق في ذهني، صافيًا.. قلت في تماسك:

"أنا الذي يسأل هنا.. لماذا لم تُخبرني بهذا، ولا بأنها كانت تزور طبيبًا نفسيًا؟ لماذا أخفيتَ أن كلاكما حاول الانتحار مرة؟"

"لم يعلم بأمر تلك العلاقة العابرة أي شخص غيرنا، ولم أرد لها أن...."

"لا بأس، أنت على الأقل ألمحتَ إليّ بأنها تحتفظ في خزانة ثيابها بدفتر مذكرات..

بشكل ما يمكنك القول إن قضيتك صارت أفضل حالًا عن ذي قبل، ربما تَثبُت براءتك أخيرًا. لن أتحمَّس وأقفز في الهواء، وأخبركَ بأن قضيتك قد انتهت.. لن أدع الأمل ينال مني بهذه الطريقة الصبيانية. أنت تعلم أنني مؤمن ببراءتك، فليس ثمة داعٍ للعروض المسرحية.. يجب أن تعلم حقيقة هامة، إن من يقف على الجهة الأخرى منك ليس مجرد شاب مسكين مثلك، ولن تُحسم المعركة لصالحك بسهولة"

obeikan.com

تقدمتُ خطوات من الفراش، وجررتُ ذلك المقعد الذي صار صديقي.. كانت الغرفة برغم الأجهزة الطبية المتقدمة، والأثاث المريح الأبيض النظيف، تشبه القبر.

في مثل هذه الغُرف، يرقد الموتى سريريًا، والواقعون في غيبوبة طويلة، لا أحد يعلم متى سيخرجون منها، ولا إن كانوا سيفعلون أم لا.. ولكن ليس حامد بالتأكيد، إنه يفكر ويسمع ويستجيب، إن عقله في أتم حالات اليقظة.

تبًا! هل جننت؟ إن حامد بالفعل واقع في غيبوبة، مثله كمثل أي شخص آخر واقع في غيبوبة أخرى. وقد أفادتْ الأبحاث أن أمثال هذه الحالات الغامضة، تقدر على تلقّي الأخبار والمعلومات سمعيًا. لذا ينصح الأطباء أسَر المرضى دائمًا، بتكرار الزيارة للمريض، وإلقاء بعض الكلمات اللطيفة على مسامعه، أو إخباره بكل ما يُستجد من أمور هامة في محيط اهتماماته، كالموت والميلاد والزواج والطلاق مثلًا. حتى إنه حين يستيقظ يكون قادرًا على التعامل مع الوقائع الجديدة، فلا يصاب بصدمة. هذا يقطع الشك في استيقاظ العقل أثناء فترات الغيبوبة الطويلة إذن، وهو ما يعني أن غيبوبة حامد ليست استثنائية، وأن كل اختلافه يكمن في قدرته العقلية الفائقة على الحديث دون أن يحرك شفتيه!

كم تمنَّى الأطباء أن يسجلوا لحظة واحدة، من أفكار أي شخص خلال فترة الغياب. لقد أخبرني حامد عن الغيبوبة، وأظن أنني أول من يعلم، مما يدعو للفخر برغم كل هذا البؤس.

لقد قال إن الأمر يشبه أن تكون مقيدًا، عاجزًا عن الحركة، في مكان مظلم وعيناك معصوبتان. لا تستطيع إطلاق صوت، لأن شيئا ما يكمم فمك، ويقيد لسانك. نوع من الشلل الرباعي، مع بعض الخرَس، وشريحة من العمى. ينصح بتقديمها باردة!

"لماذا أنا؟!!"

قلت وأنا أهرش رأسي في يأس:

"لا أعلم حقًا، لكنني لا أعتقد أن الأمر كان شخصيًا. ربما لأنك مجرد شاب بسيط لا يملك أي وسيلة للدفاع عن نفسه، ولا يعرف شخصية واحدة ذات نفوذ، ولم يجد الفرصة لاتخاذ أدنى رد فعل ممكن.. ربما لأن هذا طبقك، ولن يكمله غيرك!"

"لكنني لم أطلب هذا الطعام!"

استشعرتُ بشكل ما أن لهجة حامد كانت تحمل بعض التهكم، مما جعلني أبتسم..

"لكنك دخلت المطعم وظللتَ صامتًا! إن الذين لا يختارون، يحصلون عادة على أردأ المتاح. ربما تتعلَّم شيئًا من هذا الدرس، لا تَدع أي شخص يختار عنك مهما كان"

ثم عدت أسأل في عتاب:

"هل أخفيتَ أن عزة كانت تحمل في حقيبتها سم فئران طيلة الوقت، كي لا تسيء إليها أيضًا؟"

"لا أعرف عم تتحدث، هل كانت عزة هي من....؟"

"في البداية اتجه شكي جهة محمود، لأنه الوحيد الذي لم يأكل من الطعام، وهو من أبلغ عن الحادث، ولا يوجد شخص على قيد الحياة، يستطيع تأكيد موعد عودته من السفر، باستثناء سائق الميكروباص المجهول!

بعد أن أكدَ رجال المعمل الجنائي أن الوفاة قد وقعتْ منذ ساعات قبل البلاغ، تزعزع هذا الاحتمال بداخلي، ثم انتفى فور أن بدأتُ التحقيقات في الأمر. وظللت أنت المتهم الأول في نظر التحقيقات، إلى أن قرأتُ هذه المذكرات.

هي بالفعل كانت على شيء من الجنون، وحاوَلتْ الانتحار من قبل، وربما بسبب الضغط الذي تعرضَتْ له مؤخرًا، فكرَتْ في إنهاء حياتها بيدها، وأن تأخذ معها كل من عرفها.. ربما كان هذا في رأيها أفضل من الموت غدرًا في موعد لا تعلمه، وعلى يد أحد أقربائها.."

"من جديد لا أعرف عم تتحدث، لقد فاتني هذا الجزء.."

oliebkan.com

هممتُ بالرد، لولا أن تصاعدتْ طرقات خفيفة على الباب، ثم فُتح في انفراجة ضيّقة مترددة.. أشرت بسبابتي دون أن ألتفت، فعاد الباب ينغلق في صمت..

"اسمع، ليس هذا وقته. هناك شخص طلب مني أن يدخل إليك ليراك.. بالطبع أنا أعلم جيدًا لوائح المستشفيات بالنسبة لمثل حالتك.. هل أدخله؟ لا أظن، أشعر بأنه من الواجب ألا أسمح له بالدخول.

عامة يجب أن تشكر الله لأنني لم أكن من ألقَى القبض عليك، وإلا لكنت قد أمرت بوضعك في إحدى مستشفيات الشرطة تحت الحراسة المشددة، ولم أكن لأكتفي بهذا الجندي الواقف ناعسًا بالخارج.. من يعلم، ربما كنت معرضًا للقتل أثناء رقادك هكذا، فهناك قائمة طويلة بأسباب منطقية محتملة لوفاتك الآن. ربما كنتَ أيضًا عرضة للاختطاف، كي لا تتحدث حين تفيق.. أعلم أن لا شيء لديك لتقوله، وهو سبب كاف"

ونهضتُ، لا أقدر على منع ابتسامتي، متجهًا نحو باب الغرفة..

"حسنًا.. أظن أن هذا الشخص يستحق أن يراك.. فقط لدقائق قليلة"

وفتحتُ الباب، ثم أشرت إلى الجندي كي يدخل ناهد، ويدعها بصحبته بعض الوقت.. دخلَتْ الفتاة بخطى ثقيلة، فقُدتها إلى المقعد وأنا أبتسم لها مشجعًا..

قلت لحامد:

obeikan.com

"سوف أذهب الآن لإنهاء بعض الأعمال، لن أتأخر.."

بالخارج كان الطبيب الشرعي واقفًا في تململ. يا لهؤلاء الرجال، لقد أبلغني أن الطريق سوف يستغرق منه عشر دقائق، وها هو يأتيني بعد ما يزيد عن ساعة كاملة، وبرغم هذا يجرؤ على إبداء استيائه من الانتظار!

حين رآني برقت عيناه في انتصار، فأشرتُ إليه أن يتبعني إلى الدرج، حيث هبطنا طابقًا، ثم انطلقنا في ممرات المستشفى، حتى وصلنا إلى أحد المكاتب.. بالداخل كان الطبيب يجري اتصالًا هاتفيًا، أنهاه على عجل حين دخلتُ، ثم نهض مسرعًا ليقودنا هذه المرة بين الممرات من جديد. وأمام باب الغرفة توقف الطبيب، وأشار إلينا أن استمتعا بوقتكما، ثم انصرف.

في الغرفة وجدناه يجلس في فراشه، يرمق الفراغ صامتًا. رفع نحونا عينيه للحظة، فور أن دخلنا، ثم عاد يرمق تلك البقعة من العدم، كأن أحدًا لم يدخل..

"حمدًا لله على سلامتك يا كمال.. لقد أخبرني الطبيب أنك استيقظت بالأمس، لكنني أردتُ أن أدعك تحظى ببعض الراحة"

لم يرد، ولم يلتفت جهتنا أساسًا..

"هل أخبَرك أحدهم بما حدث؟"

"ماذا تريد مني الآن؟!"

أتى سؤاله حادًا مفاجئًا، فقلتُ مباشرة..

"أتيت لأسألك لماذا قتلتهم؟"

لم يُظهر أي تعبير ينم عن التأثر أو الاهتزاز، وكأنني أسمعته مزحة شديدة السخف..

"إن الأبطال الخارقين لا يقتلون هذا العدد من الأبرياء.. أنت بهذا تريد أن تكون شريرًا خارقًا!"

هز الطبيب الشرعي رأسه، ثم قال:

"ولا حتى هذا، إنه مجرَّد مراهق غبي.. إن الأشرار الخارقين لا يتركون بصماتهم فوق أكياس السم، ثم يخفون الأكياس في خزانة ملابسهم!"

أخيرًا التفتَ إلينا وقال ساخرًا:

"ربما أردتُ أن تعلموا أنني من فعلها.. ثق أنني لو كنت أحب أن أفلت منها، فلم تكن لتقدر على اكتشاف الحقيقة.. أنا بالفعل أردتُ لكل الناس أن يعلموا أنني من فَعل هذا"

تبادلتُ النظرات مع الطبيب، قبل أن أتقدَّم منه وأسأله بهدوء:

"لماذا؟ ما الذي حملك على أن تقتل نفسك وأهلك بهذه الوحشية؟"

"ربما أردت تخليصهم مما يعلقون فيه من ألم مستمر، ألا ترى أنه تصرف نبيل مني؟ كانت أمي ماريا تروي لي حكاياتهم طيلة الوقت. كلهم كانوا بحاجة إلى بعض الراحة. أنا أيضا كففتُ عن الرغبة في خوض هذا الصراع. كنت أعرف أني سأصير مثلهم جميعًا ذات يوم قريب. بلا أهل ولا بيت ولا وطن. سأظل أعاني غياب الاتجاه والطريق والمستقر، وسأصبح مشردًا في هذه الحياة.. ليس فيهم من لم يُقدم على الانتحار مرة على

obeikan.com

الأقل. ربما باستثناء العم محمود، لهذا لم يكن على قائمتي.. فقط رغبتُ في أن يكون حامد معنا وألا يسافر، كي لا يقع فريسة للاغتراب مجددًا، يكفيه كل ما لاقاه بالفعل"

"والأسطى بركة؟"

"لم يخبرني أحد بأنه سيكون موجودًا. ولكن ما اعتقادك بشأن قطعِه لكل هذه المسافة كي يلقى حتفه؟ ألا تظن الآن أنها كانت نهاية حتمية؟!"

"أنت مجنون ولا شك، ستكون مستشفى الأمراض العقلية هي اختيار القاضي، وليس سجن الأحداث.."

"لا فارق على أي حال، لقد كنت أرغب في الموت ولم أحصل عليه.. لا أظن أن مستشفى الأمراض العقلية ستكون أسوأ مكان على هذا الكوكب!"

"ألم تفكر في أنك ربما أرسلتهم إلى الجحيم لا الجنة؟ لماذا لم تفكر في أن بعضهم على الأقل لم يكن قد تطهَّر من خطاياه بعد؟"

"لا أضمن هذا، سأعرف على أي حال فور أن أصل إلى هناك. وإن كان الفضول يقتلك، فباستطاعتك الذهاب كي تتأكد بنفسك!"

هممتُ بالقبض على عنقه، لكن الطبيب قبضَ على ساعدي بقوة:

"لا تنس أنه مجرد طفل.. هيا بنا الآن، ولنعد لاحقًا"

تخلصتُ من قبضة الطبيب، ثم رحت أرمق الفتى بارد الملامح.. لا أصدِّق كل هذا الجنون، قلتُ قبل أن أخرج في تشف:

obeikan.com

"لا بأس، أحببتُ أن تعرف أخيرًا أن والديك لم يذهبا إلى كندا قط.. ربما يرقدان في قبر ما في هذه اللحظة، وهو الأفضل لهما"

استدرتُ نحو الباب وتبعني الطبيب وهو يضع يده على رأسه، غير مصدِّق أنني قلت هذا. قال الفتى قبل أن أبلغ الباب:

"أنت صادق، على الأقل بالنسبة لأمي.. أظن أن أبي لم يزل حيًا، ولكنني لا أحب أن ألتقيه، ليس هذا في صالح أي طرف منا"

توقفتُ وعدتُ أرمق الصبي المبتسم في سخرية..

"لقد أخبرتني أمي ماريا بكل الحقيقة، وأخذتني ذات يوم في رحلة بعيدة لزيارة قبر أمي.. كانت امرأة فقيرة تعمل في المصنع الذي تركَته أمي ماريا منذ فترة طويلة، وقد أتتْ وأودعتْني لديها قبل أن تهرب، لأن أهلها كانوا يطاردونها. كنت في عامي الثالث تقريبًا، حين توصَّلوا إلى مكانها. لقد أرادتْ لي أن أنجو وهي تعلم أنها ذاهبة بغير رجعة.. أخبرتني أمي ماريا أيضًا أن أمي لم تكن امرأة سيئة، بل كانت ضحية أحد المجرمين، الذي اعتدى عليها ذات يوم وتركها لمصيرها المؤكد. لقد تولّتْ أمي ماريا تربيتي منذ ذلك الحين، واعتبرتني ابنها الحقيقي، ومنحتني كل الحب. واهتمَّت بإخفاء تاريخي غير المشرّف عن الجميع، لكن هذا لم يعد يهم الآن.."

تناولَ نفسًا عميقًا، ثم قال في هدوء:

"لم أرِدْ الاستيقاظ.."

"كان لابد أن تفعل، لأن هناك شخصًا بريئًا كان سيحمل في عنقه كل هذه الدماء. لقد قضيتَ على مستقبلك تمامًا، وفقدتَ كل شيء.. ربما كان ما ينتظرك أفضل مما انتظرهم، لكنك تعجَّلت النهاية السيئة"

"لا أعتقد، ولا أعتقد أيضًا أنني فقدت كل شيء. فقد تناولتُ كمية أكبر منهم جميعًا من الطعام، لأنني كنت أريد الذهاب بسرعة.. وبرغم هذا لم أزل هنا! ألا يعني هذا أنني ربما كنت بطلًا خارقًا حقيقيًا؟"

قالها، ثم أطلقَ ضحكة مرحة صاخبة، أعقبتها بعض التأوهات، فأمسك ببطنه وصمت أخيرًا، وعلى وجهه انمحتْ البسمة المستفزة، وحل بدلًا منها تعبيرٌ متألم..

"هيا بنا الآن، ستهتم شرطة الأحداث بهذا الأمر.. أعتقد أن القضية قد انتهت أخيرًا"

*****

"لقد أخبرني الضابط أن براءتك صارت مسألة وقت، ستخرج من هنا قريبًا، ولن يقترب منك أي شخص مرة أخرى.. لماذا لا تنهض الآن وتفتح عينيك إذن؟ هل آذتك الضربة على رأسك إلى هذا الحد؟ أشعر بأنك من يصرّ على التمسك بهذه الغيبوبة. انهض ولا تخش شيئًا، فسوف يعلم الجميع أنك بريء من كل التُهم. هل ضقتَ بالحياة إلى هذا الحد؟ إنك ضعيف الإرادة إذن! فأنت لم تر شيئًا بعد

هلم! لقد كنت أمزح.. أنا أعلم كل شيء، وسأقول لك هذا لأول وآخر مرة، ولو سألتني مجددًا حول هذا الموضوع، فسوف أنكر أنني قلت شيئًا، هل تفهم؟

نعم، أنا بالفعل كنت أستطيع سماع كل أفكارك طيلة الوقت، وكنت أراك يوميًا في أحلامي، لقد تصورتك أكثر تهذيبًا مما وجدتك عليه!

هل تعرف أيضًا؟ لقد طلَّقني زوجي لأنه لم يعد يحتمل كل هذا الجنون. كان يسمع اسمك في كل ليلة يتردد على لساني أثناء نومي.. وظل لفترة طويلة يلازم البيت كي أظل تحت رقابته.. بالطبع ظن بي السوء بسبب زياراتك المتكررة، ماذا كنت تتوقع أيها الشيطان؟! في النهاية لم يجد ما يقوله لي ولا لأبي، لكنني كنت أعرف السبب.

الآن قد مات أبي، ولم يزل نادر طفلًا، وأنت تعلم أنني فقدتُ كل من لديّ ولم يعد سواك باقيًا لي. هل ستنهض، أم إنك سوف تظل هنا إلى أن تموت؟

أعدك ألا ينال منك أي شخص مرة أخرى، ولن يستطيع مكروه أن يقترب منك وأنت بجواري. سوف أحميك لو تطلَّب الأمر، وأنا أقدر على هذا جيدًا. فقط قم وافتح عينيك.. سأنتظرك على أي حال، ولن أتحرَّك من هنا إلى أن تغادر هذا الفراش الكئيب. سأكبر، وسأجف، وسأتحول إلى تراب في انتظارك، لو أردت لي هذا فلا تنهض..

Obeikan.com

أريد أن أقبّلك، ولكن أخشى أنك ستموت إن رفعتُ هذا القناع عن وجهك.. سأكتفي بقبلة على رأسك، ولو أنك تستحق الموت بسبب ما ألحقت بنفسك..

لماذا لم تخبرني صراحة؟

لا عليك الآن. سأقبّلك هنا، حيث موطن الضربة، لعلك تشفى سريعًا، وتستيقظ.. وسأظل جالسة على هذا المقعد الخشبي القاسي، طالما لا تريد أن تتزحزح قليلًا، وتفسح لي مكانًا بجوارك في الفراش..

هل يمكنك التحرُّك قليلًا، فقط لبعض السنتيمترات؟ على أي حال سوف أنتظر...."

*****

عند هذا الحد لم أستطع الإنصات أكثر، طرقتُ الباب، ثم منحتها ثانيتين كي تعود إلى مقعدها، بعدها فتحتُ الباب ودخلتُ مبتسمًا. طالعني وجهها الباكي، فقلت مهنئًا:

"لا تحزني، فقد اعترف الصبي ببساطة، ولم يضطرني لبذل أدنى مجهود.."

تهللَتْ أخيرًا وجففتْ وجنتيها، فقلت لها:

"المدير ينتظرك بالأسفل، هل أنت واثقة أن والدتك لن تمانع؟"

هزت رأسها نفيًا وقالت:

"أمي تقيم عند جدتي الآن ومعها نادر. وخالتي موجودة، وهي قادرة على العناية بالجميع.. لكن هذا المسكين ليس لديه من يعتني به غيري، أنا

obeikan.com

أيضا أريد هذا.. لقد أخبرتُ أمي أني سأنتقل إلى هذا المستشفى بصفة مؤقتة لأنهم يحتاجون إلى المزيد من الممرضات.."

"هل رتَّبت لنفسك مكانًا للإقامة بالقاهرة؟"

"أحد أعمامي يسكن قريبًا من هنا.. هو لم يكن يحبنا كثيرًا، لكنه لن يَقبل أن أقيم في مبيت الممرضات.. أعتقد أنه سيعاملني بشكل أفضل بعد وفاة أبي"

بكتْ مجددًا، فتركتها تفرغ انفعالاتها، قبل أن أقول:

"أنا لم أطلب من المدير أن يسمح لك بمرافقة حامد والعناية به فقط، بل قدمتُ بنفسي طلبًا لمكتب وزير الصحة، حتى يتم نقلك إلى هذا المستشفى بأمر تكليف رسمي، هكذا تُصبح لديك وظيفة رسمية، وتحصلين على راتب حكومي ثابت، لن يكون مطلوبًا منك سوى الالتزام بمواعيد العمل بالمستشفى، لكن أحدًا لن يجبرك على القيام بأي عمل خارج حدود هذه الغرفة. هيا انطلقي، فهو يجلس في انتظارك بالفعل"

رمتني بنظرة ممتنّة، فابتسمتُ مشجعًا وراقبتها وهي تنصرف مسرعة.. استدرتُ نحو المقعد الذي كانت تحتله ناهد منذ قليل، وألقيت بنفسي عليه إلقاء..

"لقد انتهى الأمر.. حالما تصبح جاهزًا، يمكنك الحضور في سلام، أيها العفريت..."

obeikan.com

obeikan.com

الختام

obeikan.com

راح يدق بأنامله في توتر على زجاج المائدة المواجهة للنيل.

أشعل سيجارة، وصب لنفسه كأسًا جديدًا من النبيذ الأحمر، وبدا في حلته الأنيقة، وشعره المصفَّف بعناية، كجزء أصيل من هذا المطعم الفاخر. حتى لون حقيبته الجلدية، كان يتواءم بشدة مع لون الأرضية الخشبية اللامعة.

راح يتأمل شاشة هاتفه مرة بعد مرة، وكأنه ينتظر اتصالًا فائق الأهمية. مرَّتْ به فتاة باهرة الحسن، واسترعى انتباهها شروده وتأنقه البالغين، مما جعلها تُبطئ الخَطو تجاه مائدتها بعض الشيء.

أخيرًا أطلق الهاتف رنينه، معربًا عن أغنية هادئة بصوت دين مارتن..

(Everybody loves somebody sometime!)

نظرة واحدة إلى الهاتف كانت كافية، لأن يعرف أنه الاتصال الذي ينتظره..

"Congratulations !You got the approval of what you asked without a single word .You can not imagine how much they wish to have this guy."

توتّرت أعصابه أكثر. لم يصدق أنهم وافقوا على طلباته دون مشكلات، خبرته معهم تؤكد مخاوفه.. سأل الرجل صاحب الصوت في شك:

"What about the money transfer?"

"It was already done a few minutes ago ،you Have got 10 millions in your account as we agreed .

obeikan.com

but ،Iam afraid that the other part of our agreement will be postponed.."

بلغ به التوتّر مبلغه.. ها نحن قد وصلنا إلى النقطة المُتوقّعة.. هات ما عندك أيها اللقيط.. أطبق أصابعه على الهاتف في قوة أكبر وهو ينصت إلى محدثه الذي تابع محاولًا أن يطمئنه..

"You will not be granted political asylum until you step onto US soil ،then it will take a couple of months before you get approval .We preferred to follow the usual procedures so we do not raise any suspicions ،but I promise you will get it .Just give it some time & everything will be fine .We are waiting for you at any time ؛just tell me before you are on the plane.."

أنهى المكالمة، ثم التقط حقيبته وقد هدأت أنفاسه قليلًا، شهرين قبل الحصول على حق اللجوء السياسي؟ لكنهما شهران لن يقضيهما هنا، لابد أن يكون بمأمن حتى يحصل على الموافقة.

أخرج من الحقيبة حاسوبه النقَّال، وفتَحه ليتأكد من حسابه البنكي.. بالفعل وجد المبلغ قد تم تحويله. يبدو أن الأمريكان فضّلوا أن تسير الأمور هذه المرة بهدوء، دون توترات، مما يدل على مدى احتياجهم لهذا لروسي المجنون بين أيديهم. تنفس الصعداء وأغلق الجهاز معيدًا إياه إلى الحقيبة، ثم التقط هاتفه وأجرى اتصالًا:

Obeikan.com

«أيوة يا سناء، انتي فين؟ الولاد جهزوا؟ طيب، اسبقيني على المطار، وأنا هاكون عندك في أي لحظة.. سلام»

نهض يشير إلى النادل، طالبًا الشيك، حين رن الهاتف مجددًا، رد دون حماس..

«باشا!»

"أنت فين يا بيه؟"

"خير سعادتك، حصل حاجة؟"

"فيه ظابط مباحث بيحقق في قضية الواد اللي نايم في المستشفى دا اللي انت قبضت عليه.. وشكل المصيبة اللي عملتها هاتنكشف، وتروح في ستين داهية.."

شعر بأنه لا يستطيع الاستمرار واقفًا. انهار على المقعد، وقال بكلمات مهتزة..

"مين الظابط دا، واحنا من إمتى سيادتك بنخلّي حد يتدخل في شغلنا؟"

أتاه الصوت هادرًا:

"شغلنا؟! قصدك شغلك يا سيادة العميد، انت كنت فاكر إن اللي عملته دا هايعدي على خير؟ والراجل الروسي اللي سفّرته أمريكا وهو نايم، على طيارة خاصة دا.. كنت متصوِّر إنه مالوش حد يسأل عليه؟ يوم ولّا اتنين وهاتلاقي نفسك في مشكلة كبيرة، أنا قلت أحذرك عشان ما تتفاجئش. لأن ساعتها ولا حد هايعرفك.. كام مرة قلت لك بلاش الشغل

دا؟ بقول لك إيه، الكلام دلوقت ما منوش فايدة. أنا عايزك قدّام مكتبي في ظرف عشر دقايق.. خلينا نشوف ممكن نعمل إيه في الفضيحة دي.."

تخلَّتْ أصابعه المتشبِّثة بمقبض الحقيبة، فانزلقت بفعل قطرات العرق التي نبتتْ هناك.. مد يده إلى ربطة عنقه، وحلها بعض الشيء، ثم قال بصوت مرتجف:

"تمام سعادتك، عشر دقايق واكون عندك في المكتب.. اتفضل يافندم"

أنهى المكالمة، ثم طفق يرنو إلى الفراغ، وقد بدأت دوامة هادرة في الإحاطة بعقله. ثم انتبه إلى النادل الواقف يرمقه في قلق:

"حضرتك بخير؟ محتاج أي حاجة؟"

هز رأسه بقوة، ثم وضع بضع ورقات مالية بين ضفتي الدفتر الذي حمله النادل، فانصرف في الحال..

فتح حقيبته مرة أخرى، وتأكد من وجود تذاكر الطائرة في مكانها بالجيب الداخلي، كل شيء تمام. راحت أصابعه تداعب أزرار هاتفه، وتنتقي أحد الأرقام:

"Hi..!we will be on the plane which is taking off in an hour ..see you tomorrow ..thank you"

obeikan.com

ضغط زر إرسال الرسالة، وألقى بنظرة إلى ساعته، ثم نهض حاملًا حقيبته، مغادرًا في هدوء حتى بلغ سيارته بالخارج.. فوضع الحقيبة على المقعد المجاور، وأدار المحرك. ظل لثوان يتنفس بعمق دون أن يتحرّك من موضعه، حتى شعر بالهدوء ينسرب إلى نفسه ببطء.. تبادل النظر مع مرآة الصالون في ثقة، وعدّل من وضعيتها.. أخرج شريحة الهاتف من مكمنها وألقى بها من النافذة.. ثم أنطلق بأسرع ما تسمح به قوانين المرور في هذا الطريق.

تمت

القاهرة

٢٠١٢ – ٢٠١٤

ollneikan.com

محمد عبد القوي مصيلحي

روائي وقاص مصري من مواليد شبرا الخيمة عام ١٩٨٦. صدرت له المجموعة القصصية (**طريق النعناع**) – دار **اكتب** ٢٠١١، رواية (**بورتريه**) – دار **اكتب** ٢٠١٢، رواية (**ليليان**) – دار **ن** ٢٠١٣، وأسس وشارك في كتابة المجموعة القصصية التفاعلية (**الناس مقامات**) – دار **ن** في ٢٠١٤. احتلت روايته **ليليان** قائمة أفضل ٢٠ كتابًا مصريًا لعام ٢٠١٣. وتم تصنيف كتابه **الناس مقامات** ضمن أفضل المجموعات القصصية في مكتبات **ديوان**. عضو مؤسس في جماعة **نوفيلا** الأدبية.

www.facebook.com/mamosi7y
www.goodreads.com/book/show/18102059
mo7ammadamosil7y@gmail.com

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧